

الدكتور محمد عبد الرحمن مريخا

مع الفلسفة اليونانية

مَعِ الْفَلَسْفَةِ الْيُونَانِيَّةِ

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
استاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية^١

مَسَّحُ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ

منشورات عويدات
بيروت - بعلبك

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٨٨

مقدمة

هذا الكتاب سيكون في كثير من نواحيه طليعة لكتاب آخر عنوانه « التفسير الحضاري للفلسفة الاسلامية » نأمل ان يتاح لنا فيه قريباً التوسع فيما اضطررنا الى ذكره هنا مجزئاً كشيئاً ، والإفصاح عن السذن والقوانين التي على وفقها تنفجر الافكار وبمقتضاها تنبت وتنتال .

وينقسم كتابنا الحالي إلى قسمين اثنين :

فأما القسم الاول فهو بمثابة المدخل الى دراسة الفلسفة ، أياً كانت هذه الفلسفة . ففيه يحدد القارئ بعض المقدمات الفلسفية العامة التي لا غنى عنها لكل من يود تحصيل الفلسفة واكتناء حقيقتها ومعرفة وظيفتها والفائدة التي تعود عليه من دراستها ، والفرق بينها وبين العلم ، والوقوف على المعاني العميقة التي تثيرها في حياة الانسان والأبعاد الشاسعة التي تمكنه من الانطلاق إليها .

وأما القسم الثاني فيبحث في الفلسفة اليونانية ويقارن بينها وبين الفلسفات الأخرى ويلجّ على أهميتها بالنسبة إلى سائر الفلسفات ثم يعرض للأطوار التي مرّت بها والمراحل التي قطعتها حتى انجبت سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكيف انتهت بالأفلاطونية المحدثة .

والمنهج الذي سنتبعه في دراسة هذه الفلسفة لن يكون المنهج المعيارى بل سيكون المنهج الوضعى في غالب الأحيان ، إذا صح نقل هذا التعبير من ميدان الأخلاق وعلم الاجتماع إلى ميدان تأريخ الفلسفة . فقد جرت العادة بين نفر غير قليل من الذين يؤرخون للفلسفة ، ولا سيما الفلسفة الإسلامية - أن يكثروا من نقد أصحابها وتوجيه المطاعن اليهم ، وأن يطلبوا منهم أكثر مما تتسع له إمكانياتهم وإمكانات الحقبة التاريخية التي يعيشون فيها ، وذلك في محاولة للتقليل من شأنها وإضعاف أهميتها ، أو على الأقل توخياً للدقة في البحث والأمانة في الحكم . ففي أذهانهم مثل أعلى للفلسفة كان يجب على الفلاسفة الإسلاميين أن يرتفعوا إليه ويتحققوا به ، وإلا قُتِبوا لهم وفلسفاتهم ! هذا هو المنهج المعيارى في دراسة الفلسفة الإسلامية ، « منهج ما ينبغي أن يكون » . ولكننا نطالب هنا بدراستها على أصول المنهج الوضعى ، أي دراستها كما هي كائنة بالفعل . فدراسة « ما ينبغي أن يكون » قد أثبتت فشلها ، فهي لا تعود على أصحابها إلا بالشوك والعلقم . فهذا الكتاب تتخلله فكرة أساسية - سنوسمها في كتابنا التالى الذى سلف ذكره - مؤداها أن الأفكار ضرورات حياتية لأصحابها ولعصرها ، ولها وظائف ومهام بعينها ، وأن لكل مرحلة تاريخية فلسفتها ومزاجها العقلى والروحي ، ولكل حضارة خصائصها المتميزة . فالدراسة المعيارية ، دراسة ما ينبغي أن يكون ، تتخذ من الفلسفة اليونانية معياراً للتقويم وتجعل منها المثل الأعلى لكل فلسفة ، كما تجعل من أصحابها اليونان نماذج أزلية أبدية سرمدية للتفكير الصحيح والفهم العميق والحكم الصائب ، والبصيرة النافذة .

ومع إقرارنا بفضل اليونان العظيم على الفكر الإنسانى كله وعلى الحضارة

البشرية بأمرها ، إلا ان تقديرنا لليونان لا يجوز ان ينسبنا الآخرين ولا ان يعيننا عن الاسباب والعوامل والظروف التي توفرت لليونان دون ان تتوفر لغيرهم . ذلك ان تفكير اي جماعة من الجماعات انما يصدر أولاً وبالذات عن ظروف معيشتها وأوضاع حياتها وحاجاتها الاجتماعية والعقلية والروحية . ومن هنا فان مهمة المؤرخ تحليل العوامل المتضمنة في الموقف الاجتماعي الواحد للوصول الى مدى تأثيرها في نشاط العقل . فللعقل حساسية قوية لهذه العوامل وقدرة هائلة على تسجيل ما يطرأ على البيئة من تغيرات اجتماعية او ثقافية او حضارية تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه القدرة الهائلة التي للعقل انما تتجلى في بعض الافذاذ والموهوبين الذين لا يخلو منهم عصر من العصور ولا أمة من الأمم .

واذا كان لليونان عبقريتهم فللعرب عبقريتهم ايضاً ، دون ان تتخذ هذه العبقرية نفس المظاهر التي اتخذتها عند اليونان . فقد كان الفكر العربي - في يوم من الايام - فكراً خصباً معطاءً غزير الانتاج جليل الأثر ، ازدهى به العلم والحضارة امداً طويلاً فكان غرة في جبين الدهر . لكن الفكر العربي لم يكتب له - كما لم يكتب لأي فكر آخر غيره - ان يبقى نشيطاً حياً على الدوام . وإنما طرأ عليه من العوارض الخارجية ما يطرأ على افكار الامم الاخرى ، بل وعلى كل كائن حي ، وانتابه ما انتابها من الملل الباطنة والأمراض الدفينة ، فانطفأت جذوته وشلت فاعليته . وهذه الظاهرة التي تتكرر باستمرار في جميع حقب التاريخ ومراحلها هي من اهم اسباب جمود الحضارات وجفافها وتوقف تدفق النسخ في عروقها . فانه عندما يذبل العقل وتغشاها غاشية الموت تحبوا الفاعلية الحضارية ويتوقف النمو .

هكذا كان حال العرب ، وهكذا ايضاً كان حال اليونان من قبلهم .

غير ان العقل لا يسلم بمأساته ولا يقبل مصيره ، بل هو لحسن الحظ يصمد للردات والهزائم ليعود فيثبت ذاته وفاعليته . فاذا انتكس في مجتمع من

المجتمعات او حضارة من الحضارات وتآلبت عليه عوامل الفساد والتدهور ، لم يعجزه ان يجد لنفسه منافذ ويشق طرقاً جديدة في مجتمعات اخرى ، فيعاود انطلاقة ويستأنف حياته كأن لم يمت بالأمس . وعلى قدر ما تعتمد الأمم على العقل، وكلما كثر عدد المفكرين فيها، كانت ادخل في التاريخ وأمعن في الوجود . فالفكر ثروة لا تقدر بثمن ، وإنما الأمم الافكار وما يوج فيها من افكار . فالأفكار هي التي تقود العالم . انها القوة الحقيقية التي تقرر مصائر الشعوب . فليس من شيء أغلى من الطاقة الفكرية في الأمة ، وليس ادعى لنبطة الظالمين والطغاة وأعداء الانسانية من إبادة اصحاب القرائح والعبقريات، لأنها تزيد من طريقهم قوى الفكر التي تخيفهم .

وقد كان الفلاسفة على الدوام طليعة كل حركة فكرية وكل انتفاضة عقلية . وما اكثر الشهداء الذين سقطوا صرعى الفلسفة والضحايا الذين قدموا حياتهم فداءً لها . فسقراط وأفلاطون ومرقس اوريليوس وبرونو وفولتير .. أودوا في سبيلها ، فصبروا وصابروا حتى استشهد بعضهم على مذبحها . وكانت الفلسفة يوماً ما يخيف اسمها البابوات وأصحاب العروش فألقوا المؤمنين بها في غياهب السجون وزجوا بهم في المعتقلات ، يريدون ليطفئوا نور الفكر الذي تتخلل له قلوبهم ، والفكر متمّ نوره ولو كره الظالمون !

هذا وفي عرضي للفلسفة الاسلامية احرص اشد الحرص، على عرضها بعبارات اصحابها وبالاتعانة بنصوصهم هم، كلما كان ذلك ممكناً ، وذلك بالطبع بعد تعديلها وحذف ما ينبغي حذفه منها ، والتقليل ما امكن بما فيها من غموض وتكرار . فالنص الغامض المضطرب لا استخدمه كما هو، بل اني اتصرف فيه وأوجهه بحيث يسلس فهمه بالاتعانة بأقوال المؤلف ان امكن، وإلا فزيادات وإضافات تفتح مغاليقه . بل لقد أضطر أحياناً الى اجراء تفسير في ترتيب النصوص وتسلسلها باستخدام عبارات للمؤلف وردت في مواضع مختلفة من كتبه . كل ذلك لأغراض منهجية بحجة من شأنها تسهيل فهم فلسفة اصحابها .

وأكثر ما تتجلى هذه الطريقة في عرضي لفلسفة الفارابي وابن سينا . لكن ذلك لا يمنع اني كنت في كثير من الاحيان أورد النص بكامله دون اجراء اي تعديل فيه ، وفي هذه الحالة فاني اضعه ضمن قوسين صغيرين كما هو متبع للدلالة على الاقتباس . المهم اني لا اميل الى اسلوب التلخيص الذي تتدر فيه عبارات المؤلف وتطغى عليه بدلاً من ذلك عبارات الكاتب الذي ينقل اقوال هذا المؤلف. فانا اهتم دائماً بالإبقاء على نفس المؤلف ما امكن ، ليستمر الحوار الروحي بين القارئ، وصاحب النص ، فضلاً عن ان ذلك يفيد ذوقاً لغوياً وحساً فلسفياً لا تفيدهما اساليب التلخيص والاختصار . ذلك بأني مهما تفذلت وتفاصحت فلن اكون اقوى من صاحب النص تعبيراً عن افكاره هو وآرائه ، ولا سيما اذا كان الامر متصلاً برجل فذ عظيم !



وأود ان أنبه الى انني في بعض الاحيان تعرض لي سوانح واستطرادات في نطاق الموضوع الذي أكون عاكفاً على معالجته . فأرجو ان تكون مفيدة والا تكون نشاراً يؤذي النظر ويخدش السمع . إن أريد إلا تسجيل ما يسنح لي في ابان سنوحه إذ لا يمكنني جمع ذلك كله في مكان واحد وحشره حشراً يتعمد فيه التسلسل والرباط ، بل لقد رأيت الخير كل الخير في نثره هنا وهناك في مكانه الطبيعي الذي سنح فيه وبحسب السياق الذي فرض نفسه علي . فذلك في نظري أجدى وأقوم .



وإني أنصح القارئ الكريم ألا يتصفح الكتاب قفزاً بل ان يتتبع تسلسل الموضوعات فيه . وأنا زعيم حينئذ بأنه سيسلس له قياده وينكشف له غامضه ، وسيخرج بزيادة وافيه عنه ، حتى ولو لم يكن راسخ القدم في الموضوع وكان في ثقافته الفلسفية بعض الضحالة . قد تفوته بعض التفاصيل الدقيقة ، فذلك

لا أهمية له إلا بالنسبة الى المختصين . إنما المهم ان يحدث تحول ما في نفسه وتفكيره ، وأن يؤمن بالامة التي أنجبته ، وبالإمكانات والطاقات التي سميت بها يوماً ما الى أعلى ما يمكن ان تطمح اليه أمة ، وأن يتلمس التراث العظيم الذي خلفته له ، فيستلهمه القوة والقدرة ، ويسير على هديه ويوجه التاريخ من جديد ...

محمد عبدالرحمن مرحبا
طرابلس - لبنان



القسم الأول

مدخل الى دراسة الفلسفة

الابعاد الزمكانية للإنسان

١

لقد ارتفع الإنسان^(١) عن مستوى الحيوان بقدرته على ان يتخطى بعقله المكان الذي يعيش فيه ويتصور شيئاً ما خارجه . فالحيوان يرى ويسمع ، وقد تتوارد عليه بعض الصور ، ولكنه لا يستطيع الخروج من إطار الرقعة التي يعيش فيها . وإنما هو ضيق الدائرة ، محدود الأفق ، خاضع لحاجاته المادية العاجلة ، مشئت تتنازع المطالب القريبة ، مبعثر كأنما تذرؤه الرياح . وأما الانسان ففي وسعه ان يقطع صلته - في أوقات خاصة تطول او تقصر وتتفاوت في عمقها وتركيزها تبعاً لدرجة نموه العقلي وقدرته على التفكير المجرد - بالواقع الخارجي الذي يحيط به ، لكي يلمّ شعث نفسه ويجمع شتاتها ويحتلي بها الى حين . هذه الخلوة هي سرّ مجد الانسان . انها هي التي فرقّت بين الانسان والحيوان وجعلت من الانسان معجزة فذة وبدعاً من المخوقات .

وكما ان الحيوان لا يستطيع ان ينفلت من قيود المكان ، فإنه لا يستطيع ايضاً ان ينفلت من قيود الزمان . فالحيوان أسير « اللحظة التي تمرّ » وكأنها هي الأبدية

١ - الزمكانية أي الزمان والمكان .

بمعناها ، على حدّ تعبير برغسون (Bergson) ، فهو في حاضر دائم تكبّله أغلاله لا ينفذ منه الى ماضٍ او مستقبل . والحق ان فكرة الزمان غريبة على الحيوان ، لا معنى لها بالنسبة اليه . وأما الانسان فهو الكائن الوحيد الذي يعيش في الزمان ويتقلب في أبعاده المختلفة . فالزمان يتخلل وجوده كله حتى لكأنما قد من الزمان ا

ومكذا فإن الانسان معرّط ليقع يعيش في الحاضر والماضي والمستقبل ويتخطى الأشياء جميعاً ، لا يقيده مكان ولا زمان :

لا يقيده مكان ، لأن جوهر الانسان إنما يكن في قدرته على التحرر من حدوده الضيقة والانفلات من تيارات العالم المحيط به ، ولو لفترة قصيرة يبتعد فيها عن دنيا الناس وابتذال الأشياء . انه يملو على الوجود الطبيعي للأشياء ، ثم يملو ويملو ليري ما وراء الأشياء ، ويطلّ على أبعاد وعوالم وآفاق لا تكشف له اذا ظلّ أسير العالم المحسوس والعلاقات المحسوسة . وأما الحيوان فليست له أي قدرة على الانفصال عن واقعه والابتعاد عنه قيد أنملة . فهو أسير البيئة التي يعيش فيها ، خاضع لمؤثراتها المباشرة او القريبة من مجال إدراكه . وإذن فالكائن الحيّ إنما تتحدد قيمته بتزايد المسافة بينه وبين واقعه المحسوس ، وتظل هذه المسافة تزيد وتزيد في الانسان حتى لا يقيده مكان .

وكذلك هو لا يقيده زمان . فإذا كان الحيوان تشتته اللحظة الحاضرة لا يعرف غيرها — هذا اذا كان عنده شعور بالزمان الحاضر — فإن الانسان قلما يحس باللمحة الحاضرة . إذ هو في تجاوز مستمر للحاضر نحو مستقبل لا يحده الموت نفسه ، او في عودة دائمة نحو ماضٍ لا تقطعه الولادة ، بل يخترقها وينفذ الى منا وراها . فالحاضر عنده منطلق للمستقبل في محاولة لتجميع عناصره ، او كوة نحو الماضي في محاولة للاعتبار به والإفادة منه او لتصحيحه واستدراك ما يمكن استدراكه منه . وليس هو ابداً مقصوداً لذاته .

انه مجرد اداة للعمل والبناء . وأما الحيوان فهو منسحق في الحاضر تلح عليه مطالبه . فإذا ما اشبع هذه المطالب سكن وهذا حق لكأنه الحجر ، فلا تشغله اخطاء الأمس ولا ترهقه هموم القد . فالندم لا سبيل له الى نفسه ، والأمل لا معنى له بالنسبة الى وجوده . فكيف يشعر بالوجود اذا لم يستكمل شرائط الوجود ، اذا فقد بُعدين اساسيين من إبعاد الوجود ؟ انه محصور في رقعة ضيقة لا يكاد يمتد فيها الى الامام او الى الوراء . انه يكاد يختنق لقلّة الحركة . وأما الانسان فإنّسه في مجبوحة من العيش يتحرك فيها كما يشاء . وهذا ما يمكن له في الوجود ، ويجعله سرّاً من اسرار الوجود !

والخلاصة ان منطقة الحيوان الزمانية المكانية – او الزمكانية اذا استعرتنا هذا التعبير من نظرية النسبية – هي « هنا – الآن » . وأما الانسان فينقلب حراً طليقاً « هنا وهناك » و « الآن وكل آن » .



مفارقة الذات العضوية

٢

وينتج عن هذا ان الانسان هو في انفصال مستمر عن ذاته العضوية ومفارقة دائمة لها . فتراه على الدوام يقفز فوق ذاته ويعدو وراءها ويحده في طلبها كأنما هما كائنان متمايزان أحدهما عن الآخر . فالانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يعيش خارج ذاته ولا تحده رقعة ذاته ، بل انه لا يحقق ذاته إلا بخروجه عن ذاته . أجل هو الكائن الوحيد الذي يعمل على ذاته باستمرار ليقف أمامها او وراءها او يستشرفها من على ، وبالتالي فهو دائما على مسافة ما من ذاته . فوجود الانسان يتراوح بين الخروج عن الذات والعودة الى حرم الذات ، لأنه عاجز عن ان يبقى قابعا فيها لا يغادرها . فنحن كما يقول فاليري (Valery) : « محبسون خارج ذواتنا » ، منها بدا هذا القول غريبا . ولعل من كينونة الانسان انه يستطيع الخروج عن ذاته والفرار منها في ساعات وجوده الحصيب ، حتى ليكون حيث هو غير موجود اكثر منه حيث هو موجود . فهو على الدوام لا ينفك عن التحرر من حدوده العضوية والتغلب عليها إذ لا تتحقق الشخصية ولا يكون للوجود الانساني معنى إلا بالخروج من الذات والمفارقة المستمرة لها . ومعنى هذا ان « البعد

الخارجي ، للانسان داخل في مفهوم الانسان وشروطه . وأما الحيوان فهو محروم من هذه المقولة الروحية البحتة ، إذ هو لا ينفك عن قوقعة ذاته . انه قابع فيها ، محصور بين جدرانها . فلا مفارقة في عالم الحيوان ولا انعتاق ، وإنما فيه التصاق ووثاق .



القدرة على التغيير

وبفضل هذه المفارقة، ونتيجة للأبعاد الزمكانية التي يتحرك فيها الانسان، فقد اصبح في مقدوره ان يتصور اوضاعاً لا وجود لها في الواقع ، فيخترع نماذج جديدة من الواقع يحتد في تحقيقها وإخراجها الى حيز الوجود . وهذه مزية ينفرد بها الانسان ايضاً دون الحيوان . فجميع الحيوانات - ما عدا الانسان - لا يمكنها ان تتصور اي تغيير في الواقع مهما كان طفيفاً . فهي تتقبل هذا الواقع وتستسلم له في ذلة وصغار . كيف لا وهو لا يثير فيها اي خطرة ولا يحرك لديها اي هاجس ، وبالتالي لا يطرح أمامها اي مشكلة تتطلب الحل ، فعلام التغيير ؟ لذلك تركز الى واقعها كما هو دون ان تشعر بالحاجة الى تغييره ، وإلا لكنا للحيوان حضارة كحضارة الإنسان . فما الحضارة سوى ما تخلف عن قدرة الانسان على التغيير، وسوى الآثار المحسوسة لهذه القدرة . ثم ان الحيوان - نتيجة لذلك - إنما يعمل بأعضائه فقط ، انه لا يعرف الآلة او الاداة التي تتطلب صناعتها إحداث تغيير في البيئة المحيطة . وأما الانسان فقد اخترع لنفسه آلات وأدوات امتداداً لأعضائه واستكثالا لوجوده ونتيجة لإرادة التغيير عنده ولقدرته الفائقة على تجاوز واقعه وتصور

واقع آخر خير منه ، في محاولة لتحسينه وتصحيح أوضاعه . انه الموجود الطبيعي الوحيد الذي يعاود على الطبيعة ، والذي يرى ما في الوجود من عمق ميتافيزيقي . فالرؤية عنده هي غير مجرد النظر البحت ، انها تضرب في أغوار حقيقة لا يصل اليها الحيوان . لذلك لا يستسلم لواقعه المتمرد ولا يعنو لضغوطه بسهولة ، لأنه يثير فيه مشاكل لا تهدأ إلا بإعادة تنظيمه من جديد . وهو إنما يتمكن من تنظيمه بقدر ما يستجيب له وما يحيد فيه من طواعية وفي ضوء ما يهيجس في نفسه من خطرات وسوانح .

فإرادة التغيير إذن ، وبعبارة أدق القدرة على التغيير ، تدخل في معنى وجوده الفريد الفذ ، وترتبط بالامتياز الذي يتمتع به دون غيره من سائر المخلوقات ... فقد كان دأبه منذ فجر التاريخ التحكم في نفسه وفي واقعه وفي القوى العاشمة التي تحيط به . ولئن وجدنا طرائقه فجّة جافية كلما أوغلنا في القدم فحسبه انه لم يتوقف عن التغيير . ولئن دلّ ذلك على شيء فلأنما يدلّ على انه لا يتخاذل ولا يلتني امام واقعه ، وعلى ان كل شيء يجب ان يطأطأء الرأس امامه وينصاع لجبروته . وبينما تظل علاقة الحيوان مع الطبيعة هي هي من حيث الكم والكيف واذا طرأ عليها تغير ما فانه يكون غير مقصود ويقع إشباعاً لحاجات وجوده البيولوجي المحض ، فان الانسان يعدد من علاقاته مع الطبيعة وينوّع فيها عن قصد وغاية ، وذلك ليسيّطر عليها وليسخرها في خدمة أغراضه وخططه ، وليمضي في تطوره الروحي وبلوغ اهدافه العليا .

العالم العقلي

٤

فاذا كان الانسان يعيش في الماضي والحاضر والمستقبل ، واذا كان يقذف بذاته خارج حدود ذاته ، واذا كانت تلحف عليه ارادة التغيير وقلب الاوضاع ، وبالتالي اذا كان يستطيع ان يخرج من إطار وجوده المادي وإطار الاشياء المحيطة به ، فما ذلك إلا ليتحرك في أبعاد ميتافيزيقية يحلها الحيوان من شأنها ان تسعو به من مرتبة الوجود البيولوجي الى مرتبة الوجود الميتافيزيقي ولتجعل منه موجوداً حضارياً راقياً وتزيد في عمق حياته الباطنة . هنالك يشرف على تخوم عالم جديد يطلق عليه اسم « العالم العقلي » وهو عالم زاه عجيب من القيم والمثل والمعاني والأفكار ليس للموجودات فيه اي قوام مادي ، وليس له شكل او حجم او لون او طعم . فهو عالم مفارق قائم بذاته لا تدركه الابصار وإنما تدركه البصائر .

ان هذا العالم يشغل الانسان كثيراً ، بل هو لدى بعض الافراد شغلهم الشاغل . حتى يمكن القول ان قيمة الانسان انما تتحدد بمدى تعلقه بهذا العالم . فكلما اشتد تعلقه به اخصب وزاد عطاؤه ، وكلما امله اجذب

وأصيب بالقمح والمحمل . فما من تغير طراً على الطبيعة ، وما من حضارة قامت ، وما من انتصار تحقق ، وما من تقدم أحرز ، وما من اختراع تم ، وما من نظرية وضعت ، إلا وتدين لهذا العالم الذي هو عنوان مجد الانسان . فالعقل والانسان صنوان لا يفترقان .



العقل والانسان

٥

اجل ان العقل والانسان صنوان لا يفترقان .
بالعقل كان الانسان سيد المخلوقات .
به يذلل الصعب ويروض الوحش ويحيي القفر ويبدد الظلام وينشر النور .
به أخضع الاشياء لسلطانه وعنت الموجودات لقضائه .
به سيطر على الحياة والموت والصحة والمرض .
به اقتحم معقل الذرة واخترق طباق الارض ، وعلا اجواز السماء ، وهو
في طريقه الى الشمس والنجوم .
به دانت الاشياء وتضاعرت ، وانصاعت الكائنات وتخاضعت .
به قضى الانسان على طول النوى ، وبه على العرش استوى .
به صال وجال وطار كل مطار ، وقال انا الواحد القهار .
ان قوى العقل قوى فذة لا 'تحد' ، قوى لا يمد لها شيء في الارض ولا في
السماء ولا يقارن به شيء . فهي كل شيء ، ولولاها لم يكن شيء .

فالعقل هو اعلى مراحل الوجود الانساني وهو التفسير الكبير للانسان !
انه ايضا مأساة الانسان !

اجل هو مأساة ، وأي مأساة !

فالانسان هو اشقى الكائنات وأتمسها ، وما ذلك إلا لأنه يفكر . فليس
سوى الانسان من يتألم بالتفكير ، وليس سواء من يشقى بالتفكير .. ولذلك
صدق الشاعر حين قال :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فالحيوان يمرض ويشقى وتنزل به الكوارث ويموت ، ولكنه لا يسمو الى
تصور المرض والشقاء والكارثة في مجردها . ان البهائم تجوع كما نجوع ،
ولكنها في منجاة من هم الرزق وخوف المسغبة . وهي تفقد اولادها كالإنسان ،
لكنها لا تدرك المشكلة كما يدركها الإنسان . وهي تتوجع كما نتوجع وتتألم كما
نتألم ، ولكن لا يساورها ما يساور الانسان مما يأكل القلوب ويقرح الجفون
ويقبض المضاجع ويفتت الأكباد . فهي - اذا صح التعبير - في غيبوبة عقلية
او ميتافيزيقية لا تستطيع معها تقدير ما يقع عليها . انها تقوم بأفعال وتؤدي
اعمالاً لا تدرك كنهها ولا تفهم معناها . فهي كما قلنا في غيبوبة افقدتها القدرة
على الحكم على الاشياء . انها على الرغم مما تتعرض له من كوارث ومحن لا
يدرك هولها الانسان ، إلا انه يمكن القول ان هذه المحن والكوارث ليس لها
المعنى الذي يكون لها عند الانسان . فالتعرض للكارثة شيء والقدرة على
تصورها في الذهن واسترجاعها والحكم عليها شيء آخر . فالحيوان كما اسلفنا
في الفصل الاول لا يعرف غير اللحظة التي تمر دون ان يستشعر وخز الزمان
وضغط الديمومة ، وإنما هو يعيش مجموعة من الحالات المنفصلة وكمية من الآفات
التي تظل متباعدة مشتتة رغم تقاربها في الزمان وتجاورها في المكان . انها
تبقى كذلك مفككة ما لم يجمعها عقل الانسان ويربط بينها ويوثق عراها ،
ليؤثل مجده في نفس الوقت الذي يدك فيه عرش سعادته .

فالعقل هو الذي يجعل الآلام الانسانية اكثر تحمداً في الشعور وهو الذي يفاضل بينها . وكما انه عنوان مجد الانسان فهو إذن أصل بلائه .

انه يتصور اشياء غير موجودة ، ويخلق لنفسه مخاوف وآمالاً لا وجود لها ويتقلب في الحقيقة والوهم والخيال واللامعقول .

ومن هنا فإن العقل وحده هو الذي يخشى المرض ، وهو وحده الذي انتج تلك الرهبة المصطنعة من الموت . فإذا كان الحيوان - كالإنسان - متمسكاً بالحياة ، غير انه يختلف عن الانسان في أنه لا يخشى المرض ولا يهاب الموت ، ويتميز ادق لا يفهمها . فكيفما يخشى الكائن الحي المرض او الموت لا بد ان يكون على علم بها مقدماً ، لا بد ان يتوقعها ويتنبأ بمحدثها ، لا بد ان يكون في وسعه التفكير في عقبي المرض وفراق الأحبة وسكرات الموت ، وتصور الجنة والفساد وديدان القبر ووحشته ومصيره وراء القبور .. وإن ما نرى في الحيوان بما نظن انه تهيب من الموت إنما هو في الحقيقة دفاع عن بقائه وتشبث بأوضاع نشأ عليها لا يريد التخلي عنها . هذا كل ما في الأمر . وأما الخوف من الموت بالمعنى الانساني فهو عمل ميتافيزيقي بحث يتطلب تركيزاً عقلياً قوياً لا يرقى الحيوان الى مستواه .

وهكذا فالمرض لا يخيف ، وإنما الذي يخيف فكرة المرض . وكذلك الموت لا يخيف ، إنما الذي يخيف فكرة الموت . اجل هو ليس بخيفاً في ذاته بل في تقديرنا النفسي له ، أي انه لا يخيف كواقعة ، بل يخيف كفكرة تتسلط على عقل الانسان وتتغص عليه حياته . ومعنى ذلك ان التفكير في المصيبة مصيبة اخرى في منطق الوجود الانساني .

والسبب في ذلك ان الانسان ليس مجرد وجود ، وإنما هو وجود وقدرة على الحكم على الوجود ، او قل هو وجود ميتافيزيقي . انه لا يعيش فقط ، وإنما هو يعيش ويدرك انه يعيش . انه لا يعيش واقعه البيولوجي الفج فحسب

وإنما هو يعيش هذا الواقع ثم يتخطاه . فهو إنما يتوهج ويزداد كينونة حيث هو غير موجود أكثر منه حيث هو موجود . انه يتحرك من الداخل أيضاً وليس فقط بالظروف الخارجية التي تضغط على جسمه الترابي . انه ليس مجرد جهاز آلي سلمي يبقى كما هو في الرقعة التي يكون فيها ، بل هو تطور تاريخي خالق يحيا من باطن بشيء اعظم كثيراً من مجرد وجوده المكاني . انه يحيا بالأفكار والقيم والمثل والمعاني . انه لا يستطيع ان يكون موجوداً فقط ، يتغذى بما تخرج الارض وتلك البهائم ويتناسل كالحوانات بلا ندم ولا امل . فقيمة الحياة ليست في الحياة بل فيما يصحبها من وعي وبما تحقق لنا من كرامة وحرية وإبداع .

فالحياة الانسانية مشروطة دائماً ببعض المعاني والقيم ، والحيوان وحده هو الذي يقبل حياته بلا شروط ويعيش بلا معنى .



المعنى العميق للفلسفة

٦

قلنا ان الحيوان يظل في مستوى الأشياء والظواهر لا يستطيع ان يتخطاها او ان يعمل عليها . انه مجرد واقعة وهو يتقبل وجوده كواقعة لا تدهشه ولا تدعوه الى اي تساؤل ، فالحيوان يحيا ويموت ولكنه لا يتساءل عن معنى الحياة والموت . انه يعيش في العالم ولكنه لا يتساءل عن معنى العالم ، عن أصله ومصيره وعن علاقته معه ^(١) ومع غيره من الذوات والأشياء .

وأما الانسان فأمره مختلف . انه ليس مجرد شيء او واقعة ، انه موجود ميتافيزيقي . ففي دخيلة كل منا شعور بالانبهار والدهشة واقتناع كامن بوجود سر او لغز ينساب من الكون ويتحدى الانسان . وإزاء هذا السر العظيم لا يقف الانسان مكتوف اليدين ، ولا يسعه ذلك ، بل تلاحقه الأسئلة تترى وتتمجج الجواب عنها : من أين جئنا ؟ من أوجدنا ؟ ما غاية وجودنا ؟ ما مصيرنا بعد الموت ؟ ما الخير وما الشر ؟ كيف وُجد العالم ؟ ما أصله ومصيره ؟ الخ ...

١ - لم أجد أحداً من القدماء يستعمل حرف الجر (ب) عند استعمال كلمة علاقة ، انما كانوا يستعملون (مع) . فالتفتى التنبيه ، إلا في حالات نادرة جداً .

أسئلة ضرورية تتردد كثيراً لا مناص منها لأنه لا بد للإنسان من تفسير شامل للوجود يسلك على أساسه في هذا الكون وبه يتحدد منهج حياته ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج . فهو يحكم فاعلية ذهن التي تنضم الى معطيات التجربة يبحث عن تحليل يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق : حقيقة الألوهية ، حقيقة الكون ، حقيقة الحياة ، حقيقة الإنسان والمصير الانساني ...

كل هذه الأسئلة هي من صميم الوجود الانساني كما هي محاور التفكير الفلسفي . فحولها كانت - ولا تزال - قدور أبحاث الفلاسفة ، ومن ينبوعها تتفجر مذاهبهم ، وللإجابة عنها كانت تتفتق قرائعهم .

فالفلسفة إذن إنما هي محاولة لمواجهة هذه الأسئلة التي تلح على الإنسان في كل زمان ومكان وإيجاد أجوبة مترابطة عنها تتصف بوحدة النظر فضلاً عن عمق هذا النظر وتماسكه وشموله . انها البحث في ماهية الاشياء وأصولها وعلاقة بعضها مع بعض ومع الإنسان والوجود الانساني . انها تطلع دائب الى الآفاق البعيدة والأسس العامة . انها تعرف لجوج على مظاهر الـكون ووقائعه وأحداثه وتلجس لأسبابها البعيدة وإيجاد تحليل منطقي معقول لها وردها الى أصل واحد ينتظم الـكون بأسره . انها نشدان لعنصر الوحدة الكامن وراء الكثرة وتعقب للانسجام المختبئ خلف غشاء كثيف في وجوه التنوع والاختلاف .

وبعبارة أخرى ، تدل الفلسفة في اوسع معانيها على جملة المحاولات التي قام - ولا يزال - بها الإنسان بحكم أنه موجود ميتافيزيقي رسماً بعض خصائصه ، ليمثل مجموع الاشياء ومكانه من هذا المجموع ودوره فيه ، بنظرة واحدة شاملة تستوعب كل جزئية من جزئياته وتصوغها في صيغ كلية قليلة العدد. فهي التعبير الواعي المنظم عن المفاهيم الاساسية التي تستند اليها المعرفة وعن القيم الاصلية للوجود الانساني .

فكل فلسفة اذن هي - بحكم التعريف - عمل ضخم جداً او برنامج واسع ينوء بالعصبة اولى القوة ، ناهيك بالفرد الواحد ! وهذا الشمول الذي هو من طبيعة العمل الفلسفي ومصدر خصبه وأصالته ، يحمل في ذاته بذور فشله . ولذلك ستتلاحق المذاهب الفلسفية تباعاً يستدرك الخالف منها عثرات السالف ويتلافى اللاحق ان يقع في اخطاء السابق . فكل فيلسوف يعتقد في نفسه القدرة على التصدي لهذه المهمة الضخمة ويظن ان كلمته ستكون الكلمة الفصل ، وأن مذهبه هو ، وهو وحده ، كفيل بسد جميع الثغرات وإسكات كل الاصوات !

إنها دعوى عريضة فضفاضة لم يستطع اي فيلسوف ان يتحرر منها او ان يكون له في سابقيه درس وعبرة . ولكنه العقل ينشد الحقيقة . فتراه لا يبدأ ولا يطمئن ولا يقر له قرار حتى يجدها ، وإلا ابتدعها ونسج خيوطها من نفسه ، وظن ان عصارة فكره هي التفسير الوحيد لها .

هذا هو اذن مبرر وجود الفلسفة ، وهذا هو الدافع الكبير اليها .



هذا والفلسفة قديمة قدم الانسان . فهي مركوزة فينا وتجري في عروق كل فرد منا بحكم اثنائنا. كائنات عاقلة او موجودات ميتافيزيقية ليست الأبدان حدوداً طبيعية لها، وإنما هي تمتد وراءها وتمتد حتى لا يسمعها مكان ولا زمان. فلكل منا فلسفته في هذه الحياة ، وكل انسان فيلسوف بطبعه ، على تفاوت في ذلك : أجل ، لكل منا رأي في الحياة وطبيعتها وغايتها ، في الوجود ومآله ومصيره ، في العقل والجسم وعلاقة كل منهما بالآخر ، فيما قد يصيب الانسان في هذا العالم من سعادة او شقاء ، وغنى او فقر ، وصحة او مرض ، في الخير او الشر ، في الإله وصفاته وعلاقته مع الطبيعة ومع سائر الذوات الآخرين. ولا شك ان هذه فلسفة، غير ان عقله لم يتناولها بالتحليل والتمحيص

ولم يعم الدليل على صحتها او بطلانها . فالفلسفة عنوان وجود الانسان ما دام له عقل واع ، ومشاكل ملحة ، وواقع متمرد غير مطواع .

ويؤيد ذلك ان كلمة « فلسفة » نفسها لم يكن لها في بادئ أمرها معنى محدد ، وانما كانت تشمل كل ثقافة واستنارة في أي موضوع كان ، وكل مجهود عقلي في سبيل تقدم المعرفة الانسانية ، بل كل تطلع الى العلم وكل رغبة في البحث والنظر .

وأصل كلمة « فلسفة » وتاريخها يدلان على ما ذكرنا . فقد روى المؤرخ اليوناني هيرودوت ان كريسوس قال لصولون : « لقد بلغني انك تقلبت في كثير من الأقطار متفلسفاً ، أي باحثاً منقياً . واستعمل بركلييس هذه الكلمة ايضاً في حق الأثينيين حيث قال : « نحن قوم نتفلسف ليس فينا أوثنة » أي اننا نحب البحث والنظر لاننا ارباب عقول وشجاعة .

وكلمة « فلسفة » او « فيلسوف » مأخوذة من « فيلو » ومعناها محب او محبة ، و « سوفيا » ومعناها حكمة و « سوفوس » ومعناها حكيم . فعني كلمة « فيلسوف » إذن « محب للحكمة » . ولقد كان المستعمل في اول الامر كلمة « سوفوس » وحدها للدلالة على كل بارع في صناعة من الصناعات ، وقد أطلقها هوميروس في الإلياذة على « النجار البارع » . ولما جاء سقراط وجد من الغرور ان يسمي نفسه حكيماً ، فأطلق على نفسه اسم « فيلسوف » أي محب للحكمة ، على سبيل التواضع ، وليميز نفسه عن طائفة السوفسطائيين المتجرين بالحكمة . ويقال ان فيثاغورس هو اول من سمى الفلسفة بهذا الاسم .



حقاً ان القليلين منا فقط لهم فلسفة خاصة بهم واضحة المعالم محددة الاهداف . لكن كلاً منا تقريباً يحسّ - على منواله الخاص - بالطابع العام للكون بأسره ، ويروده شعور غامض بما عسى ان يكون هذا الكون . وهذا الشعور هو الذي يحدد له سلوكه ويقرر له الخطط والافعال التي يجب تحقيقها ،

ويُلي عليه الخطوات اللازمة للوصول بها الى غايتها . فتصرفاتنا الحميدة والمرذولة ، وأفاننا المتهورة والدروسة ، وبرَمَنا بالحياة او اقبالنا عليها ، وانسراحنا لبعض المواقف او ضيقنا بها — كل اولئك وكثير غيره مرجعه الى فلسفتنا في هذه الحياة ونظرتنا اليها .

ان هذه الفلسفة اذن لها اهمية كبيرة جداً في كينونة كل فرد منا ، ومع ذلك لا تكترث لها كتب الفلسفة التقليدية . فهي ذلك الشعور الخفي بمعنى الحياة والكون والوجود . انها ذلك المعنى العميق الذي نضفيه على وجود لا معنى له ، انها ذلك الروح الذي نشيعه في عالم موات لا حشاشة فيه . انها ذلك النظام الذي نقره في عماء ليس بعده عماء . وبكلمة واحدة : انها وعينا بهذا العالم وبرسالة الانسان فيه . ولما كانت هذه المشاعر لا يتخلو منها انسان لأنها مبرر وجوده — وإن كانت تختلف من انسان الى آخر — كان كل انسان فيلسوفاً ، على تفاوت في ذلك بالطبع .

يقول نيتشه بحق : « ان المشكلات الكبرى توجد في الشارع » . فالفلسفة تنفجر من معين الانسان ، أي انسان ، وتنبثق من اعماق وجوده ، وذلك لأنه يحتاج لعقلنة الأشياء وتعليلها وإشاعة النظام فيها ، وإلا فقدت معنى وجوده ونقطة ارتكازه ، فزلت به القدم وسقط في مهاوي العدم . انه مفطور على تقدير الأشياء ووزنها بميزان من قيمه ومعاييرها ، يرى ما عسى ان يكون لها من معنى بالنسبة اليه ، وبالنسبة اليه وحده .

فاذا به يتساءل دائماً عن الأغراض والغايات ، كأن كل شيء موضوع لفرض ويرمي الى غاية : لِمَ هذا ولمَ ذاك ؟ ما الحكمة من وجود الأشياء ؟ وهل للحياة غاية تسمى اليها ؟

واذا به يتساءل ايضاً عن الطبائع والماهيات ، كأن لكل شيء طبيعة تحسه وماهية ليست لغيره : ما هذا الكون ؟ ومم يتألف ؟ وبم تتفاضل الموجودات وتبائن ؟

وإذا به يتساءل أخيراً عن علاقة الكون مع الإنسان، كأن الكون يدري من امر هذه العلاقة شيئاً : هل هذا الكون صديق للإنسان يساعده على بلوغ أهدافه وغاياته أم خصم له وعدو لدود ؟ هل يعمل لمصلحة الإنسان أم هو مجرد آلة صماء عمياء تدور وتدور ؟ هل الإنسان في مركز الكون أم هو هباءة تافهة لا شأن لها في مقاييس الأشياء ؟

ان « لِمَ ؟ » ، و « ما ؟ » ، و « هل ؟ » ، هي الثالث الذي يعطي للإنسان المادي وجوداً غير مادي ويقتحم به عالم ما بعد الطبيعة . وبحسب إلحاح هذا الثالث على الإنسان ووعيه به ، إنما يتحدد شعوره بوجوده ويتعين مستواه العقلي والروحي ويدلف الى ذلك العالم الواسع الذي لا يعرف الحدود او السدود ...



أجل ان الحياة تدفع بنا الى التفلسف شتاً أم أبيناً . فلا يكاد يمرّ على الإنسان يوم دون ان تحدث له فيه ظروف وأحوال تسوقه الى طرح هذه الأسئلة والإجابة عنها على طريقته الخاصة :

فهو في بعض الاحيان ، وتبعاً لما يمرّ به من تجارب وخبرات سعيدة ، او يسمح له من فرص ذهبية ، لا يتألك ان يشعر بأن الدنيا بخير ، وان العالم صديق له ، وان الحياة جميلة لذيدة تستحق ان تُعاش . ما أجمل هذا الكون وما أعظم هذا الوجود ! انها لنعمة كبرى ان يولد الإنسان ويستمتع بالحياة . فالحمد لله الذي أورثنا الارض تكتبوا منها حيث نشاء ! الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وأحلّنا هذه الدار من فضله لا يمستنا فيها نصّب ولا يمستنا فيها لغوب ... هنالك يطمن الإنسان للكون ويفقد عليه الصفات الطيبة ، ويشعر ان الروح المحرك له صالح وجميل . وبالتالي هنالك يتفلسف الإنسان ويكون لتفلسفه طابع التفاؤل والبشاشة ، ويكون له رأي في الكون والوجود والحياة يطفح بالبشر والإقبال ...

وفي بعض الاحيان الاخرى ، وتبعاً لما يفوق من متسافع او يصيبه من كوارث ، يرى القبح والشر والباطل تملأ الارض وتسد المتسافع على الناس حتى لتجعل الحياة بغيضة لا تطاق . ألا كتباً لهذه الحياة التي لا معنى لها ، وسحقاً لما فيها من عبث وظلم وقوضى . انما الدنيا جيفة وطلابها كلاب ! فلتخسأ الدنيا وليخسأ طلابها ! هذا في نظرتنا مصدر ثر* لفلسفات التشاؤم والجبر وقعود الهمة وتثبيط العزيمة .

وهكذا فالفلسفة بمعناها الأوسع غير منفصلة عن الحياة ، بل هي متصلة بها متفاعلة معها لا تنقطع عن التأثير فيها والتأثر بها . وان الاهتمام بها هو من قبيل الاهتمام بالحياة وبالوجود الانساني وبالمصير الانساني . فلئن كانت الفلسفة نظرة اجمالية الى الكون وموقفاً فكرياً معيناً من الحياة وتجاربها ، فان هذه النظرة الإجمالية ، وهذا الموقف الفكري يؤثران بطبيعة الحال في تصرفاتنا وأعمالنا وفي معالجتنا للحوادث وتوجيهنا لها . يقتضى هذه النظرة انما نسير في أفعالنا، وعلى وفق هذا الموقف انما نواجه الحياة والطبيعة ونسلك مع أصدقائنا وأعدائنا وتتحدد ارتباطاتنا وعلاقاتنا مع الأشياء والمجتمع .

وكما يتضح اثر فلسفة الفرد في حياته المعادية نورد المحاور التالية لا لطرافتها ، فهي تحدث كل يوم مع كل فرد منا، بل لما لها من مغزى. ولما تحمل من دلالة . وقد سمرت هذه المحاور بين رجل متهور وثب الى داخل الحافلة الكهربائية وهي مزدحمة بين فيها وتسير بسرعة كبيرة ، وبين أحد الركاب المعادين . فكلاهما لم يدرس الفلسفة ولعله لم يسمع بها :

— ما هذه العجلة يا اخي ؟ لقد عرّضت نفسك للخطر. أما كان الأجدر بك انتظار حافلة اخرى ؟

— لم يحدث إلا الخير والحمد لله !

— أيّ خير ؟ ألا تخشى ان تسقط تحت عجلاتها فتموت ؟

— كلا ، لا أخاف هذا ولا أخشاه !

— أجنون انت ؟ أفلا تخاف الموت ؟

— لا أخشى الموت أبداً لأنه لا مفر منه ولأن العمر مقدّر في الازل .
فاذا جاء اجلي لا استأخر ساعة ولا استقدم . بل لو كنت في بقي وكان
مكتوباً عليّ ان اموت تحت عجلات الحافلة الكهربائية لبرزت الى مضجعي ،
وإلا فلن يمسي الضر . جفّت الأقلام وطويت الصحف !

— وما ادراك ان عمرك مكتوب منذ الازل ؟

— اجل اجل ان عمري مقدّر مكتوب منذ الازل . ولا أدلّ على ذلك
من ان كثيرين ينجون من الموت بأعجوبة وآخرين يلاقون حتفهم بأهون سبب .
فلو كان الحذر يجدي او كانت المخاطر تؤذي لما نجا من الخطر تاجر ولما أصاب
الحذر مكروه . أفلا ترى المقعد في بيته تنهافت عليه الارزاق ؟ وكمن
جاديّ في طلبه لا يجده ؟

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال !
— ولكي أرى ايضاً ان من يلقي بيده الى التهلكة يكون كمن يسعى الى
حتفه بظفره ، وأن من يقعد في بيته لا يريم عنه ولا يتم بطلب الرزق
يموت جوعاً .

— نعم انه يموت لا لأنه قعد عن طلب الرزق بل لأن اجله قد جاء .
وهكذا الحال فيمن يهلك عند تعرضه للخطر . فلو لا ان الموت قد كتب
عليه لما اسرع الى حمامه .

— هذا كلام لا يقبله العقل ، لأنك تستطيع ان تودي بحياتك متى أردت !

— كلا ! انا لا استطيع ان اموت متى اردت ، وكمن شخص حاول

الانتحار فحيل بينه وبينه ! فانا لا أموت إلا بقضاء الله وقدره !

— هذا عين الجنون !

— بل هذا عين العقل !

ينين لنا من هذا الحوار الذي نصادف أمثلة كثيرة له في حياتنا اليومية الى اي مدى يصح القول ان لكل انسان فلسفته في الحياة . فهذان الرجلان كلاهما له فلسفة معينة انضجتها تجاربه هو ، وكلاهما له رأي في الكون والمصير الانساني لم يستمد من اي كتاب ولا تلقاه من اي فيلسوف . لقد جاء الى هذه الحياة وجاءت معه فلسفته في وقت واحد تقريباً . وبمقتضى هذه الفلسفة يتصرف كل منهما في شؤون الحياة ويواجه الحوادث . وهكذا الحال في فرد فرد وشخص شخص . لا يُستثنى من ذلك احد ، اللهم إلا البله وضعفاء العقول . بل حتى هؤلاء هم فلسفاتهم البلهاء يسلكون في الحياة تبعاً لها وهم لا يشعرون . فلا يستطيع احدنا ان يعيش وينشط دون ان تكون له فلسفة خاصة يستوحيا ويسير على ضوئها ، دون ان يكون له رأي في الله ، في الحياة والموت ، في الخير والشر ، في الجبر والاختيار ، في الزهد بالحياة او الإقبال عليها الخ ... سواء أقرّ بذلك ام لم يقرّ .

فأحد هذين الرجلين جبّري متهور يسلب الانسان الحرية والإرادة ويجعله مغلوباً على امره كريشة في مهب الريح ، ومن ثم يسلك مع الناس بحسب هذه الفلسفة ، فيقتحم المهالك ويفشى المخاطر ويصارع الردى دونما خوف او وجل .

والآخر قدرى رزين يؤمن بفلسفة الحرية والاختيار ويفكر في كل خطوة يخطوها . فالإنسان تبعاً له حر مريد لأفعاله مسؤول عنها يتحمل نتائجها . ولسان حاله يقول : ان الله قد حباه العقل ليميز به الخبيث من الطيب ، وهده النجدين ثم تركه وشأنه . فاذا به لا يقدم على عمل إلا بعد الروية والتبصر وإعمال الفكر وتقليب وجوه الرأي والحيلة .

قد يكون في هذا التصور بعض الغلو والتبسيط الشديد . فليس هناك جبّري مطلق ولا قدرى مطلق . ليس هناك جبّري لا يتبصر او قدرى يخلو من عنصر الجرأة والتهور . بل قد يحدث العكس . فان الجبر لا يورث صاحبه الجرأة والتهور على الدوام ؛ فكم من جبّري متخاذل جبان ! وكذلك كم من

فدري جريء مغوار أ فالحياة أعقد من قضايا المنطق والتحليل المنطقي ،
ولكنها أمثلة يراد بها الإيضاح والتقريب للأذهان .

وعلى كل حال ، وسواء كان هذان الرجلان مخطئين أو كان أحدهما مصيباً
والآخر مخطئاً ، فالنتيجة واحدة : وهي ان لكل منا فلسفة يستوحىها
ويسير بمقتضاها ، ولكل منا نظرة تقود خطاه وتوجه مسيره . فبعضنا متفائل
بالحياة مقبل عليها مقارع لها لا يلوي على شيء ، ويعتقد ان الكون صديق له
يساعده على تحقيق غاياته وبلوغ اهدافه ، وبعضنا متطير متشائم مرم بالحياة
يضيق بها ويرى في الكون عدواً لدوداً يتربص به ويتسقط عثراته ويحصى
عليه انفاسه ، فيقضي حياته في هم وشجن ويميش مميشة ضنكاً كأننا تتخطفه
الطير او يصعد في السماء !

بعضنا يؤمن ان للمجهود الإنساني اثرأ في اصلاح الحياة والمجتمع ، فتراه
لا يدخر وسماً في محاربة الشرور والآفات ولا يفتقر عن الدعوة الى
الخير والحق .

وبعضنا يظن ان ليس في الإمكان ابداع مما كان ، وأن ما هو كائن لا بد
ان يكون وأن جهودنا عبث ضائع ووم في غير طائل .



والخلاصة ان الفلسفة تملأ دروبنا وتتخلل جوانب حياتنا وتوجه جميع
اعمالنا ، حتى لنجد في اقوال الناس وأفعالهم مواقف فلسفية واضحة او كامنة .
فكل ما حولنا يدفعنا الى اتخاذ مواقف معينة من الله والكون والحياة
والناس .. وهذه الأمور التي يجب ان نحدد موقفنا منها وإن كان فيها ما لا
يتم الى العالم المادي بصلة فإنها تدخل في صميم المعضلة الانسانية الكبرى ، فلا
يستطيع الانسان ، أي انسان ، ان يظل غريباً عنها غير مبال بها ، إلا اذا
تنكر لإنسانيته وتحلى عن طبيعته .. ماذا اقول ! بل اتنا اذا رفضنا ان
نحدد موقفنا منها فهذا الرفض نفسه ينطوي على موقف فلسفي معين .

هناك حالات لا يبدو فيها اتخاذ مثل هذه المواقف واضعاً . إذ يوجد قوم - وما أكثرهم - لا يرون في الحياة غير البؤس والشقاء ولا يحدون غير الخصاصة والحرمان ، مما لا يدع فرصة للاهتمام بشيء آخر غير البحث عن الرزق لسد رمقهم ورمق عيالهم . لذلك يعتقد البعض ان التفكير الفلسفي لا سبيل له الى نفوسهم . فلهم من هموم الحياة ما يشغلهم عنه .

والحق ان الحياة الانسانية مهما ركبتها الهوموم ومستها البأساء والضراء واشتد بها الإملاق والضعف فلانها لا تخلو من نبضات الفكر وخطبات الرأي والقرينة ، وبالتالي لا تخلو من نظرة الى العالم ومن تكييف لظروف الحياة ومعالجتها تبعاً لهذه النظرة . فحسب الانسان ان يتفلسف بلسان الحال اذا لم يستطع ذلك بلسان المقال ! وما يضيره ان يعيش تجربة ما دون ان يعنى بمضمونها الفكري الصريح ودون ان يحاول العبارة عنها في ألفاظ مجردة كثيفة ؟ فهو يتفلسف كما يتنفس قسراً عنه وعلى غير وعي منه .

فليت شعري ! كيف يتسنى للانسان ان يتغاضى عما يحيش في صدره من الاسئلة اللاعبة التي تقض مضجعه عندما يسكن الى نفسه ولا تلاحقه الحياة بمشاغلها وهمومها ؟ ان ظروفاً خاصة قد تصرفنا ظاهراً عن العناية بهذه الشؤون ، ولكنها لا تستطيع ابداً ان تجتث جذورها من افسنا ، او تتأصل شأفتها . ومهما حاولنا ان نكبح جراح النفس وهفوها الى عالم المعاني فلن نستطيع الى ذلك سبيلاً . وكما ان احداً يصبح صدره حرجاً عندما لا يجد كفايته من الهواء ، كذلك يساوره الضيق والقلق عندما لا يعانى التجربة الفلسفية حق في فجاعتها وغموضها اذا لم يستطع معاناتها في رقتها ونصوعها . ولشد ما يرمض من الهم والغم ان لم يترك عالم الحس بشوائبه وفجيحه وينطلق الى عالم الفكر ، وهو عالم كل شيء فيه بسيط وصادق وبديل ، تسود فيه قوانين العقل وتسيطر عليه ضرورات المنطق ، ولا تلقى فيه سوى الحق والخير والجمال والنور .

فالتفلسف في هذه الحالة إنما هو من قبيل التنفيس عن الحياة كالشعر والموسيقى، ومحاولة لجعلها شيئاً مطابقاً محتملاً له قيمة ومعنى وله غاية وهدف . إنه رغبة في التمتع بالوجود كما يجب ان يكون . وهو ضروري لنمو العقل والشعور بالذات ضرورة التنفس لنمو البدن واستمرار البقاء . وحسب الانسان فيه ان يتخطى معطيات التجربة والواقع المحسوس لا ليسخرها لأغراضه وغاياته ، بل ليفهم الكون ويسبر غوره ، وليبني نظاماً من الافكار والمعاني يفني به مضمونه ويخصب حياته ويساعده على الولوج في اعماق الوجود .



وظيفة الفلسفة والفائدة منها

٧

ينعى الكثيرون على الفلسفة جودها وبعدها عن الحياة والواقع وينظرون اليها شزراً .

انهم يتساءلون عن جدوى دراسة الفلسفة اليونانية او الفلسفة الاسلامية في هذا العصر الذي تقدمت فيه فنون المعرفة العلمية فأخذ يشمر بالقصة بإزاء اهداف الفلسفة ويشكك في وظيفتها والغاية منها .

ما هي فائدتنا من معرفة الماضين من الفلاسفة حتى نعى بهم هذه العناية اللاهثة؟ وما هي تلك العلاقة التي تربطنا بهم؟ وبيننا وبينهم فواصل من الزمن، وفواصل من التفكير ، وفواصل من الاتجاهات وطريقة الحياة ، تباعدنا عنا اجيال وأجيال ؟

انهم لم يقدموا لنا صورة صحيحة عن الكون والطبيعة والحياة ولم يكن كثير من آرائهم في جوانب المعرفة ناضجاً . فضلاً عن انها لا تعكس لنا في حياتنا نتيجة واقعية ملموسة . لا سيما ونحن نشهد كل يوم انقلاباً جديداً في ذهنياتنا ومفاهيمنا وتحولاً هائلاً في اتجاهاتنا الفكرية وفي إدراكنا للحقيقة الكونية في خضم هذا التطور السريع في العلم والصناعة .

اجل لقد فقدت الفلسفة ثقة الكثيرين اليوم . انهم يريدون ان ينصرفوا الى العلوم، فهي اجدى لهم وأقوم. وحسناً فعلوا، فنحن لا نريد لهم غير ذلك.

لكن ما معنى العلم بلا فلسفة ؟ وفي حوزة من نشأت العلوم ؟ او لم تكن جينياً في احشاء الفلسفة، ثم ترعرعت ونمت في رعايتها حتى اذا استقلت عنها اخذت تتوقف في وصفها للأشياء عند عللها القريبة تاركة للفلسفة الأم مهمة مواصلة السير بحثاً عن العلل البعيدة والمبادئ القصوى ؟ او لا يفتقر العلم الى اساس فلسفي يقوم عليه؟ ألم يكن تقدم الفلسفة من أهم بواعث التقدم العلمي؟ او ليس افضل العلماء من استطاع التفلسف في علمه ؟

ان تأخرنا العلمي من تأخرنا العقلي والفلسفي ، ولا بدّ من الانكباب على الفلسفة والعلوم العقلية لإجباب المفكرين والعلماء . ان علوم اليونان لم تدخل ارض الخلافة لو لم تدخلها فلسفة اليونان وعقلية اليونان . كما ان علوم العرب لم تدخل اوروبا اللاتينية لو لم تدخلها فلسفة العرب وعقلية العرب . وكذلك لا امل لعلوم اوروبا ان تغزو بلادنا اليوم ما لم تتقبل الفلسفة الأوروبية وطريقة التفكير الأوروبي ، وما ذلك إلا لأن الفلسفة إنما هي اساس العلم ، ولأنه ما من ثورة اجتماعية او دينية او سياسية .. قامت إلا وكان وراءها فلسفة ما . فما التاريخ إلا تاريخ فلسفات وايدولوجيات وأفكار، وما الفلسفة إلا فتح للمجهول وسيطرة على القدر .

ان الفيلسوف لا يقدم لنا -- مهما بلغ من سداد الرأي ونفوذ البصيرة وشمول النظر -- حلاً نهائياً للقضايا الكبرى التي تشغل بال الانسان : اصله ومصيره وقدره والغاية من وجوده .. فكل ما يقدمه إنما هي حلول مؤقتة نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان والبيئة والعصر والمرحلة التاريخية والاجتماعية والثقافية والحضارية .. وهذا هو سر مجد الفلسفة ولباها وفيه تنحصر مهمتها في الحياة الانسانية .

ان الفلسفة ليست لعباً مدرسياً بالتصورات الميتة البعيدة عن اهتمام المجتمع

والانسان . فالفلاسفة لم يحيدوا يوماً بمزول عن الحوادث والتيارات التي تسود في مجتمعاتهم . بل لقد كانوا دائماً على صلة بهذه الحوادث والتيارات ان لم يكونوا في ذروتها ويأخذوا بقسط بارز فيها ، فانعكس ذلك في فلسفاتهم وترك آثاراً مختلفة في مذاهبهم التي تعبر عن تجارب حياتهم وآمال مجتمعاتهم وأحلام مواطنيهم . فمن الخطأ إذن ان يُنتزع الواحد منهم من بيئته ويلسى من حوله او ان تُبحث آراؤه منفصلة عن الظروف والأحوال المحيطة به . اجل من الخطأ دراسة المذهب الفلسفي على حدة كأنه جلود من الصخر . فهو إنما يُدرس من حيث موضعه في نظام الافكار وسياق الحوادث ومن حيث تمييزه عن الحاجات والمثل والأمان التي تراود العقول وتدغدغ المشاعر ، في مرحلة دون اخرى وفي عصر بعينه ، وبالتالي من حيث دلالاته على اتجاه فكري معين يضعنا في تيار الحضارة الانسانية العام . فهو حلقة من الحلقات ولحمة في تاريخ الفكر في صميم الجهد الذي يقوم به من اجل تفسير العالم وحل رموزه والتماس اسبابه وعمله ، ومدخل متمرّج غير مباشر الى العصر الذي نشأ فيه والبيئة التي انبثقت عنها والحاجات العقلية والاجتماعية التي تمخضت عنه . وهكذا فالمذاهب الفكرية إنما هي ظواهر حضارية نسبية معبرة لا يصح إغفالها او التغاضي عن معناها في كل دراسة علمية رصينة تتصدى لفهم حضارة من الحضارات والنفوذ الى طرق تفكير ابنائها ونمط حياتهم وأسلوب معيشتهم .



ومن هنا كانت دراسة الفلسفة ذات فائدة جليلة في إقامة الحياة العقلية كلها عند القدماء وتجميع ما يمكن تجميعه من عناصرها الأولية في محاولة لإعادة بنائها من جديد واستخلاص ما يراد استخلاصه منها على ضوء المعطيات والحقائق التي ذكرنا . ففي كل عصر وصل الى درجة معينة من التنظيم والوعي والتماثل ، وفي لحظات قذرة فيه من تألق العقل ويقظة الوجدان وإشراق الروح ، يظهر رجال يرون في هذه الارض مرور النhamat الحيرة فوق

الصحرارى البيد ، ثم يمضون وقد اعطوا ما أعجز عصرأ بأكله وربما مدنية بأسرها . من هؤلاء العالقة رجال يمضون بالتفكير الفلسفى 'قدماً لأنهم يهتمون بالتحليل الراعى لمعضلات الكون والحياة في مرحلة تاريخية معينة وبصياغة نظرة زمنية - هي في ظنهم أزلية - شاملة في الإنسان والوضع الإنساني والمصير الإنساني في الخطط الكبير للأشياء .

فالفلسفة اذن انما وظيفتها التعبير عن الدوافع والاهتمامات والحاجات والمقائد والأفكار والمثل والقيم السائدة في احد العصور التاريخية وإعادة تنظيمها من جديد وتنظيم التجربة الإنسانية كلها كلما كان ذلك ممكناً . وهي في ذلك كله تتأثر - بطبيعة الحال وكما قلنا مراراً وتكراراً - بالمستوى العقلي السائد الذي يحدد مضمونها النظري الرئيسي ، وبالعوامل الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية التي تحيط بها وبالموقف الذي تستمد منه عناصر الخبرة ونظرتها الاساسية الى العالم ، وبالوروث الذي المحدر اليها من اجيال خلت وأصول غبرت . وهكذا فاذا كان الفيلسوف يوجز عصره ، فان فلسفته لا تنعصر في إطار هذا العصر وحده ، بل يمتد قليلا الى الأمام وإلى الوراء في حركة متموجة مستمرة لتستلهم الماضي وتبني المستقبل في صراع الحاضر وتلاطم امواجه .



هذا ومن نافذة القول ان نذكر ان لكل عصر طابعه المميز ومزاجه الفكري العام . وكذلك لكل حضارة طابعها ومزاجها ، اي طرق تفكيرها المميزة وجوهر الرأي فيها . فبعض الحضارات - كالحضارة اليونانية مثلا - يسود فيها التفكير النظري . وبعض الحضارات الاخرى - كالحضارة المصرية القديمة مثلا - يسيطر عليها التطبيق العملي . وبعض العصور تتميز بالروح الديني ، كما هي الحال في العصور الوسطى التي نحب ان نسميها بعصور العبقرية الدينية . وبعضها الآخر يتميز بالذهنية العلمية والتفكير الوضعي ، كما نرى في

العصر الحديث . والحضارة الواحدة قد يتبدل مزاجها من وقت الى آخر كما تبدلت الحضارة اليونانية . كذلك نجد ان العصر الواحد قد تنتشر فيه أمزجة حضارية مختلفة المشارب متعددة النزعات متباينة الاهداف والفايات كالعصر الحاضر . والعصر الواحد لا يعبر دائماً عن فترة زمنية واحدة . ففي إبان القرن العشرين نجد العصر الجبري والعصر الوسيط وعصر التنوير ... والمزاج الواحد لا يكون على درجة واحدة في الحضارة الواحدة والعصر الواحد بل قد يكون على درجات متفاوتة تختلف بحسب الافراد والجماعات .

وأمزجة العصور كأمزجة الافراد : فهي تتمسarf وتتناكر وتأتلف وتختلف . وهذا هو السبب فيما ننكر على القدماء من فلسفات ومذاهب لا تروق لنا اليوم . فليت شعري ! كيف تروق لنا وهي من مزاج غير مزاجنا ؟ وتعبّر عن عصر مختلف عن عصرنا ؟ وتنبع من اهتمامات ومشاعلا لا تمت إلى اهتماماتنا ومشاعلنا؟ وتتصل بمجموعة مركزية من المشكلات ليست مشكلاتنا؟

لكنها اذا كانت لا تثيرنا لبعده الشقة بيننا وبينها فانها لا تفقد قيمتها التاريخية . فالمسافات الشاسعة التي تفصلنا عنها لا تبرر ابدأ عدم اهتمامنا بها لا سيما وأنها هي وسيلتنا الوحيدة للاتصال بالقدماء واستئناف الحوار معهم والوقوف على مدى تأثيرهم في العصور التي أعقبتهم . فالفلسفة اليونانية من اهم عناصر الحياة العقلية للعرب في القرون الوسطى : فلا بدّ من دراسة هذه الفلسفة لكل من يتصدى لتطور التفكير عند العرب والمسلمين . وكذلك الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي كان لهما أثر عميق بالغ في افكار الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى وتصورهم للعالم وتوجيه دراساتهم ، كما كانا حلقة الوصل بين الفكر اليوناني والحضارة الأوروبية الحديثة . وإذن فلا بدّ من دراسة كل من الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي لكل من يتصدى لتطور الفكر الأوروبي في مراحل التاريخ . وهكذا فدراسة الفلسفة أياً كانت جزء لا يتجزأ من دراسة تاريخ الحضارة العام .

وما دامَت كل فلسفة تابعة لمزاج العصر ، فلا نتوقَّع من دراسة تاريخ الفلسفة في عصر من العصور وتسجيل أحداثه وتطوراتهِ ان تتلقى دروساً تفيدنا في التفكير في القرن العشرين. او حلولاً للمشاكل التي تلحُّ علينا اليوم .
« فلا ينبغي ان نطلب من الماضي إلا الماضي نفسه » كما يقول رينان Renan ،
فتاريخ الفلسفة هو في حقيقة أمره سجل للتطورات التي مرَّ بها الفكر الإنساني في مختلف مراحلهِ ، أكثر منه حشداً مبرقشاً من المعلومات المفيدة . وهنا تكمن أهميته .

اجل ، لا يجوز ان نطلب من الماضي إلا الماضي نفسه. حكمة بالغة يجب ان نضعها نصب أعيننا. فلا نطمح ان نجد في فجر المعرفة الإنسانية افكاراً تشبه افكارنا او حكمة تضارع حكمتنا او لها معنى بالنسبة الى نظرياتنا العلمية ومفاهيمنا الحديثة . فالأفكار والآراء والنظريات التي نجدُها عند اليونان او عند خلفائهم من العرب من الطبيعي ان تبدو لنا اليوم بعيدة عن الاهتمام المركزي للفلسفة ، غير انها كانت في الماضي ذات علاقة وثيقة بالتفكير الفلسفي عند اليونان وجوِّ الرأي الذي يسود بينهم . واذا لم يعد لها اليوم اي معنى او وظيفة ، فقد كان لها في يوم من الأيام أهمية مركزية وكانت المحور الذي يستقطب حوله ثلة من الفلاسفة والمفكرين وقادة الرأي وجدوا ان حياتهم بواسطتها ذات معنى وعالمهم معقول . وكذلك الفلسفة الإسلامية وغطت التفكير الإسلامي وطريقة المسلمين في حل مشاكلهم ومعضلات حياتهم - كانت تعبيراً صادقاً عن الحياة العقلية للمسلمين في القرون الوسطى ورؤاهم الشاملة للوجود والحياة والمصير الإنساني. فلقد استطاع فلاسفتهم وعلمائهم ومفكروهم ان يؤثروا في حياة أمتهم وشعوبهم وأن يخلقوا بيئة عقلية خاصة بهم وأجواء فكرية لا معنى لها إلا بالنسبة اليهم ولا مندوحة لدارس القرون الوسطى من تعمقها والإحاطة بها .

على هذا الأساس ينبغي بالطبع دراسة آثار الأقدمين وتقديرها ، بل هنا تكمن أهميتها . انها تبين لنا المستوى الذي بلغته المعرفة الإنسانية في عهد

تفصله عنا مئات السنين . وطبيعي اننا اذا نظرنا اليها اليوم بمعايير عصرنا وثقافتنا وجدنا انها في كثير من جوانبها بضاعة مزجاة وأنها لا تخلو من السذاجة والسقوط وأن المتحف اولى بها من عيون الكتب . ولكن حسبها انها كانت في يوم من الأيام تجعل للحياة معنى وغاية وأنها كانت تلك الحلقة الضرورية في تطور المعرفة الإنسانية حتى بلغت مبلغها اليوم .

فلا نطلب من القوم اذن ان يجيبوا عن الأسئلة التي تطرح علينا اليوم ولا ان يقدموا لنا حلولاً للمعضلات والمشاكل التي تواجهنا . فقد كان لهم من المشاكل والمعضلات ما يفنيهم كما طرح عليهم من الأسئلة ما يكفيهم . فلندعهم وشأنهم !

ان الاعتراضات التي يوجهها الفكر المعاصر لليونان ثم للعرب من بعدهم لا تقلل ابداً من فضل اليونان والعرب على الانسانية جمعاء ولا من الاحترام الذي نكنه لهم . فليس المهم في تاريخ الفلسفة ان نقبل آراء افلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا وابن رشد ... فهذا أهون الأشياء . وإنما المهم ان نقرأ آثارهم ونفهمها وننقدها . وما اكثر ما نرفض من آرائهم . ولكن ما أعظم ما يبقى من هذه الآراء بعد غربلتها واستبعاد ما ينبغي استبعاده منها . فأما الزيد فيذهب "جفاءً" وأما ما ينفع الناس فيمكنه في الأرض . وهذا الذي يمكنه في الأرض بعد عملية التخلخل والغربة هو على قلته عميق الدلالة كبير المغزى . فليس على النوابغ بأس ألا نقبل منهم كل ما خلّفوا لنا ، وإنما علينا نحن كل البأس ألا نقرأهم وألا نستنطق آثارهم ، وأن نزرى بهم ونستخف بمحورهم ، لا شيء إلا لأنهم يخالفوننا في طرق البحث وأساليب التفكير والنظر ، وبالتالي ان نتعاضد عن العبء الذي حملوه والدور الذي قاموا به في توعية جيلهم ومجتمعهم وفي تبديد الظلام من حولهم ، ثم في تطور المعرفة الانسانية وإغناء مضمونها وزيادة ما فيها من خصب وغراء . فإذا رأيناهم لم يصلوا الى الأغوار البعيدة التي يتفجر منها الماء فقد كفونا الحفر والتنقيب ووطأوا لنا الأرض .

ما أبعد الفرق بين من يفتحهم ساحة القتال لا سلاح له إلا السهام والقسي وبين من يفشاها مدرعاً بأسلحة العلم الحديث ومعداته ! ما أعظم الفرق بين الضوء الخافت ينبعث من زيت القنديل وبين النور يشع من غاز النيون ! ولكننا مع ذلك لا يسعنا إلا أن نعجب بشجاعة أصحاب القسي والنبال ورباطة جأشهم أمام قوى الطبيعة الفشوم وأن نشي على الأضواء الخافتة تومض من قناديل الزيت، لأنها على خفوتها كانت تشق الظلام وتصدع الليل الداجي.

فإذا رأينا القدماء قد غفلوا عن حقيقة تلبيها نحن اليها أو اغلق عليهم موضوع 'فتحت لنا أبوابه' ، أو أدركهم وهم في الرأي والنظر، فمحقق بنا أن نقدر ظروف القوم ونرجع القهقري عبر العصور لنعيش معهم ونرى كيف كانت وسائلهم إلى الفهم والإدراك ، وأنا زعيم بعد ذلك بأننا سنكون أكثر رفقا بهم وأقل تنريباً عليهم وأدنى إلى الإقرار بفضلهم والمرفان يميلهم !

وإذا كانوا لم يخالوا من الميوب، فإن لهم كثيراً من الحسنات . فكل مفكر علاق ، وكل عالم فذ ، وكل فيلسوف عظيم يشاطر معاصريه أكثر مفاهيمهم ومعظم افكارهم وآرائهم ، وبهذا الطريق فلا يخالو من أخطائهم ومغالطاتهم ، وأن انفرد دونهم ببعض الآراء الجريئة والنظريات المبتكرة وأضاف إلى مكتسباتهم الفكرية ورصيدهم العقلي حقائق جديدة لا يسعون اليها . ولذلك فالحكم عليه لا يكون بتعقب سقطاته ، وإنما يكون بالوقوف على مدى ما وضع من لبنات جديدة ارتفع بها صرح المعرفة وازداد بها علواً وشمواً . فليس بين العظماء من لا يخطئ أو من يعد عظيماً لأنه لم يخطئ ، ليس بينهم من ينجو من ضغط الآراء والمعتقدات السائدة في عصره ، ليس بينهم من لا يشترك مع معاصريه في معظم ما يقولون ويفعلون ، من لا يستبقي منهم بقايا لا يوقئ دائماً للزروع عنها . والبطل البطل هو ذلك الذي لا يخفي الهامة امامهم ولا يسير مع القطعان البشرية إلى حيث يريدون له ان يسير، بل يخرج على بعض ما يقولون ويفعلون ، لا حباً في الخروج بل تقويماً للاعوجاج ، إن

يريد' إلا الإصلاح . ولا تثريب عليه بعد ذلك انه تعثر في طريقه وانه لم يقدر له ان يجتث جميع الرواسب الضارة والخلفات المؤذية التي تسربت من مجتمعه . فحسبه انه حمل المشعل وأضاء المحجة وأشرع الباب ، وانطلق يستحث الخطى لا يلوي على شيء ولا هم له الا تثقيف المقول وتنوير الأذهان.

بعد هذا الاستطراء الطويل في وظيفة الفلسفة وأهميتها والفائدة المرجوة منها نود ان نستدرك بالملاحظة التالية :

لقد ترددت كلمة (فائدة) هنا كثيراً مقرونة بالفلسفة مضافة اليها ، بما يؤذن بشرعية هذه الاضافة وصحتها. فهل تُطلب الفلسفة حقاً لفائدة مرجوة منها ؟ في رأينا ان الانسان لا يلقى به ان ينشد الفائدة ويتوخى النفع في كل خطوة يخطوها ، لان ذلك بما يتنافى والكرامة الانسانية . فاذا كان الانسان يختلف عن الحيوان في شيء فانما يختلف عنه في قدرته على تحطيط واقعه المادي ومعطياته المحسوسة . وبالتالي مطالبه العاجلة ومنافعه الآنية ليجلو الى ذاته ويعيش قليلاً في عالم المعاني . فلئن كانت الفلسفة لا تطعم خبزاً كما يقول الكثيرون تندراً ، فان الانسان لا يمشي على الخبز وحده . فهو كما يتغذى بالخبز فانه يتغذى كذلك بالمعاني . وكما يضرب في الأرض طلباً للرزق الحلال ، كذلك تغريه الرحلة الى داخل ذاته ، الى حقيقته المجردة ليحصل على اجابات عن الأسئلة التي تؤرق حياته . وكما اننا جميعاً نعى بدراسة الأشياء ، فاننا نهتم ايضاً بالبحث عن حقيقتنا ومبررات وجودنا ، واذا كان انتماق الفكر من عالم الاعيان الى عالم الازدهان امرأ عسيراً صعب المنال ، فانه مع ذلك ضروري كالتنفس وطلب القوت سواء بسواء. فاذا كان الانسان يقتات بالخبز فانه يقتات ايضاً بالافكار ، واذا كانت الفلسفة لا تصنع خبزاً فان في وسعها ان تصنع افكاراً ، والافكار - لا الخبز - هي التي تصنع الشعوب ، وان كان الخبز لا غنى عنه في صناعة الشعوب ، لكنه على كل حال ليس هو الذي يصنعها ، وانما هو يصنع الحد الأدنى منها . انه يحفظ عليها رفقها ، ولكنه

لا يفتح لها باب التاريخ . فالتاريخ لا يدخله إلا اصحاب الأفكار . وحتى الحيز نفسه فان الفكر هو الذي سخره لاغراض الحياة وصنع منه غذاء . فلو لا الزراعة التي هي اكتشاف انساني بحث ، للفكر فيه اكبر نصيب ، ولو لا ما يتبعها من حصاد وتذرية وطحن وعجن .. لما كان خبز ، ولاعتمد الانسان - كالحيو ان - على ما تجود به الطبيعة . فالفكر اذن ام من الحيز ، لأنه عندما لم يجد كفايته فيما تجود به الطبيعة قام بملاحظات وتجارب مكنته من معرفة خصائصها والسيطرة عليها .



نعود الى الفلسفة والفائدة منها . ما فائدة الفلسفة ؟

سؤال غجول حقاً ! فنحن لا نسأل هذا السؤال عن الموسيقى والشعر والرسم والنحت والأخلاق .. الخ . وإذا كان الشعر يكشف لنا عن الجبال الذي لا تدركه أعيننا الغريبة ، وإذا كانت الموسيقى تخلق لنا جواً من الصفاء والمتعة يعبق بالرؤى والأحلام وينقلنا الى حيث آلهة الاولمب ، فان الفلسفة تسمو بنا فوق ذواتنا وتهبنا الشهور بالوجود العميق وتوغل بنا في حقائق الأشياء .

ان الحيوان ينزوي في بقعة فجأة من الارض تجود عليه الطبيعة بها ؛ وأما الانسان ففضلاً عن انه لا ينتظر عطف الطبيعة ، يبني بيته بيتاً يزينه باللوحات الزيتية والأزهار : وهذه الأشياء « عديدة الفائدة » حقاً ، ومع ذلك ففي « عدم فائدتها » يتمثل جمال الفن المجرد . ان العمال والفلاحين اكثر « فائدة » لنا من الشعراء والمصورين والنحاتين ، ومع ذلك لا يقل تعلقنا هؤلاء عن اولئك ، ان لم يكن يزيد عليه درجات ودرجات .. بل ان الشعراء والرسمين والنحاتين لا يساؤون شيئاً في موازين الفائدة ومقاييس المنفعة ، بل انهم في هذه الموازين جماعة من الطغاة المتسكمين الذين هم عيال على الكادحين والأعضاء العاملين ! ان الشعراء لا يقولون غير الاخيلة والأكاذيب والجحون ،

وفي كل واد يهيمون ، ومع ذلك فإن الذين يصدثون في القول والعمل فافهمون بالقياس الى مزويد وهو ميروس وهوراس وعمر بن ابي ربيعة وأبي نواس والمعري وشكسبير.. ولا يفعل الرسامون والنحاتون إلا اهراق الزيت والقماش وتبديده الرخام والمرمر ، ومع ذلك فإن الانسان لا تقدر من يشق الطرق ويبني طاطحات السحاب مثلما تقدر فيدياس ورافائيل وميكل انج . انها لا تمجد العمال والفلاحين مثلما تمجد اصحاب الروائع والآثار الفنية الخالدة .

ثم أي فائدة تجنيها الأم من حديها على فلذة كبدها المريض وقيامها الليل سهراً على راحته ؟ ما الفائدة من إغاثة الملهوف وإنقاذ الفريق واحتمال الجوع والعطش والمذاب والتضحية بالنفس في سبيل مبدأ او هدف بعيد لا يحلب لصاحبه أي منفعة عاجلة ، لكنه يحدوه أمل خفي انه اذا تحقق جلب للأجيال المقبلة وللانسانية جماء الخير والبركة والغبطة والسعادة ؟

فليت شعري علام يدل كل اولئك ان لم يكن يدل على ان عنصر الفائدة ليس كل شيء في حياة الانسان ، بل لعله اتفه الأشياء وأقلها شأنًا . فكما انه يطلب المادة ويحوري وراءها فإنه يهفو الى القيم والمثل والمعاني ، لا لجر منفعة او دفع مضرة ، بل تذوقاً لها واستمتاعاً بها . انه لا يسعى الى ملء بطنه وجيبه فقط ، بل يهيم ايضاً الشعور بوجوده . انه إنما يصبو الى اشياء ليس في خزائنه المادة الجامدة ما يشفي غليلها ولا تروي ظمأها حياة القصور .. فسله بدن عارٍ يطلب الماء والغذاء والكساء ، وله نفس غرثى تطلب الحق والخير والجمال .

فحسب اللوحة الزيتية والأثر الفني او - على الأقل - باقة الزهر ان تدخل في البيت معنى جديداً وتشيع فيه جواً من السكينة والأنس بالذات وبالأخرين ، حتى يقبل الانسان عليها ويهرع الى اقتنائها . وحسب الموسيقى ان تهز المشاعر وتصفق الأدواق حتى يتجشم الانسان في طلبها كل صعب . والفلسفة شيء من هذا القبيل . فهي عند افلاطون « اسمى ضرور

الموسيقى ،^(١) بل هي عند سقراط « اعظم الفنون جميعاً »^(٢) فثن كانت
اصالة في الفكر ، فهي ايضاً رقة في الحس وغازرة في الخيال وسمو في الذوق
والشعور . انها وليدة الإحساس العميق بالجمال الأسمى الذي يلف الكائنات
جميعاً بوشاح واحد . فالفيلسوف - كالفنان - يحس ويستلمهم بعقله وشعوره
وخياله ومزاجه وذوقه جميعاً . وحسب الكون ان يكون مدار العقل والفكر
والشعور والوجدان حتى يكون الفيلسوف والقنان اخوين شقيقين يستشعران
في الكون قوة جمالية واحدة تتخذ تعابير مختلفة ! وإلا فإذا عسى ان تكون
الفلسفة إن لم تكن في عداد المآثر الفنية العظيمة التي أبدعتها الروح الانسانية
في مختلف مراحل حياتها لتقيض على ما يقع لها في دنيا التجربة صورة لها
معنى وغاية ؟ ماذا عسى ان يكون معنى الحياة والوجود والمصير الانساني كله
لولا خيال بعض الفلاسفة وإلهاماتهم وسجّس معانيهم ، ولا سيما في هذا العصر
الذي يتميز بضعف الشعور بالمصير الانساني ومعنى الوجود الانساني ؟ فليس
كالفلسفة ما يساعد على المقاومة ويفتح امام كل واحد موارد الحياة والتجديد
الروحي ، في عصر تزداد فيه لغة العلوم تجريداً يوماً بعد يوم وتعمن فيه مأساة
الحياة تمزقاً بعد تمزق وشعوراً بالغرابة والضياغ . فهي يتوكيدها لمعنى الحياة
وقيمة الوجود الانساني وبتحريرها لثروات باطنية جديدة تقضي على مفعول
الآلة والتجريد في نفوسنا وتزيل الحواء واليأس في حياتنا وتعيد اليها المتعة
والطمأنينة .

فبدون الفلسفة ، وبالتالي بدون الشعور بالذات ومعنى الوجود يصبح الانسان
شيئاً من الأشياء ، ويصبح وجوده سخيلاً ناقهاً لا يساري جناح بموضة . ففي
الفلسفة إذن غنى وأي غنى ، بل فيها كل ما في العالم من غنى وثرأ .

١ - افلاطون فيدون ص ٦١ .

٢ - افلاطون : آخر أيام سقراط - للترجمة العربية ص ١١٩ .

بين الفلسفة والعلم

٨

ان التفرقة بين مفهوم العلم ومفهوم الفلسفة حديثة العهد ، وذلك لأن العلم لم ينفصل عن الفلسفة إلا في القرن الثامن عشر . فقد اختلطت في أذهان القدماء المعرفة التي تستند الى الملاحظة بالمعرفة التي تعتمد على النظر العقلي المجرد . فلما وضعت مناهج البحث العلمي في القرن السابع عشر أمكن التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية من ناحية ، وبينها وبين الفلسفة من ناحية أخرى ، عن طريق المنهج الذي تصطنعه كل منها . فإنما المنهج هو الذي يحدد موضوع الدراسة : فالقول بأن العلم يتميز بمنهجه التجريبي إنما يعني ان موضوع دراسته ظواهر جزئية محسوسة ، إذ غير المحسوس لا تيسر دراسته بمناهج الملاحظة الحسية .

لذلك نقول في التفرقة بين العلم والفلسفة ان العلم له عدة خصائص اهمها :

١ - انه يعتمد على التجربة والملاحظة .

٢ - انه يصنف الظواهر الطبيعية الجزئية في طوائف متمايزة فيختص كل علم بدراسة طائفة واحدة فقط منها . فهناك طائفة الظواهر التي يدرسها علم الحيوان ، وطائفة الظواهر التي يدرسها علم النبات الخ .

٣ - انه وصفي تقريري ، لا تفسيري ، بمعنى أنه يكفي بالكشف عن العلاقات الثابتة بين الظواهر الطبيعية ، دون ان يتعداها الى ما وراءها من البحث في طبيعتها وإدراك كنهها والحكمة من وجودها الخ .

٤ - انه يفرض وجود الأشياء والمدرجات العقلية او القضايا الأولية التي تستخدم للدلالة عليها ، دون ان يعبا بما اذا كانت هذه الاشياء موجودة حقاً او ما اذا كانت المعاني التي تدل عليها صادقة صحيحة . فالفيزيائي مثلاً يفرض وجود المادة ويسلم بمجموعة من المفاهيم (مبدأ الهوية او قانون عدم التناقض مثلاً) لا يمكن تقديم علم الفيزياء بدونها . وكذلك علم الهندسة يفرض وجود المكان ويسلم بطائفة من المعاني يسميها مصادرات Postulats لا قبام لم الهندسة بدونها . وكذلك كل علم له فروضه ومسلّماته وله قضاياها الأولية التي لها حرمتها ولها قداستها .

٥ - ان تاريخ العلم ليس جزءاً منه . فكثير من علماء الطبيعة لا يعرفون شيئاً عن تاريخ علم الطبيعة ، لا يعرفون رأي افلاطون وأرسطو في مسائل هذا العلم مثلاً . فكّم من العلماء يحيلون ماضي علومهم .

وأما الفلسفة فلها خصائص اخرى تكاد^(١) تكون مضادة للخصائص السابقة :

١ - فالفلسفة تعتمد على التفكير المجرد والنظر العقلي البحث .

٢ - ثم هي قدّرس العالم في كليّاته لا في جزئياته . فكل علم من العلوم يختص بفرع واحد فقط من فروع المعرفة ويدرس جانباً من جوانب الوجود لا يتعداه . اما الوجود ، ككل الوجود في شموله واتساعه ، الوجود المطلق ،

١ - قلنا « تكاد » ولم نجزم بالتضاد التام بين خصائص كل من الفلسفة والعلم ، لأن الفلسفة اخذت في هذه الايام تتجه اتجاهاً قوياً نحو العلم ، كما ان العلم بدأ يفلس كثيراً من قضاياها ويغوص في اشياء كانت حق عهد قريب وفقاً على الفلسفة .

بصرف النظر عن ان يكون هذا الشيء او ذاك، بصرف النظر عن ان يكون انساناً او حيواناً او نباتاً او جاداً ، فليس بين العلوم جميعاً علم يتصدى لدراسته . فالعلم الوحيد القادر على استيعاب ذلك كله ، او قل علم العلوم جميعاً او العلم الكلي إنما هو الفلسفة .

٣ - واذا كان العلم وصفاً تقريرياً فإن الفلسفة تتجاوز التقرير الى التفسير . وإذا كان العلم ينحصر في بحث الظواهر فإن الفلسفة تهتم بما وراء الظواهر . فهي استكناه لحقائق الأشياء وتعمق لوجودها وطبيعتها وتفسير لكيونتها وعلّة وجودها والغاية منها .

٤ - اذا كان العلم يسلم بوجود الأشياء والقضايا الأولية التي تدل عليها ولا يميز لنفسه ان يسها او ان يتك اسرارها ، فإن الفلسفة هي كاشفة الاستار وهاتكة الحرامات . انها لا تسلم بشيء اذا لم يؤد اليه العقل والبرهان ، أما التجربة الحسية فلا تقم لها كبير وزن ، إذ يمكن ان تكون خداعاً حسياً . فالعقل اصدق من التجربة ، والبرهان أدعى للثقة من الواقع المحسوس ، ان العلم يكتفي بالملاحظة والتجربة ، فهي اداته الفعالتان لبناء صرحه الشامخ . لذلك لا يخطر له على بال ان يتساءل عن قيمة التجربة والملاحظة او ان يتشكك في امرها ، وأما الفلسفة فإنها لا تكتفي بالتساؤل عنها والتشكيك فيها ، وإنما هي تتساءل أيضاً عن قيمة المعرفة العلمية نفسها والمبادئ التي تقوم عليها . بل ان العلم نفسه ما هو إلا حقيقة واحدة من حقائق كثيرة تعالجها الفلسفة ! ماذا اقول؟ حق العقل الذي هو عمدة كل نظر فلسفي، والذي هو من الفلسفة بمنزلة الملاحظة والتجربة من العلم لم يسلم من هجوم الفلسفة ! وم من فيلسوف عملاق كفر ببضاعة العقل وعدل عنه الى غيره !

٥ - ان تجاهل الماضي ممكن في العلم متمذّر في الفلسفة . فتاريخ العلم غير تاريخ الفلسفة . ان تاريخ العلم هو شيء آخر غير العلم ، وأما تاريخ الفلسفة فهو جزء من الفلسفة . ان تاريخ العلم ليس جزءاً من العلم وإنما هو الجزء الثاني

من العلم ، انه الخطوات التي تعثرت والمحاولات التي انتكست او المغالط التي اقترفت قبل الوصول الى الحقيقة العلمية . اجل ان تاريخ العلم قد بلي وخلق ، وأما تاريخ الفلسفة فلا يبلى . انه في تجدد دائم وشباب مستمر . فالمشاكل الرئيسية التي اثارها الاغريق قبل الميلاد لا تزال تثار اليوم بعد عشرين قرناً من الميلاد ، وستظل تثار في الغد القريب او البعيد ، لم تتغير موضوعاتها وإمهاات المسائل فيها ، وإن تغيرت طرق معالجتها والحلول التي توضع لها .
فالفلسفة بحر لجي لا غاية له ولا انتهاء . انها كالأزل ، كالأبد ، كالخلود ، كالوجود ، كالفكر ، كاللانهاية ، لا اول ولا آخر . بل هي غمر بلا قعر ، وخضم بلا سطح ، وبحر بلا شط ، وأفق بلا حدود .

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين الفلسفة والعلم فهناك صلات ووشائج وثيقة تربط بينهما . فالفلسفة بغير علم عاجزة . فليت شعري ، كيف تنمو الفلسفة بدون روافد المعرفة المكتسبة بالملاحظة الامينة والبحث الصادق والتزهد عن الهوى والغرض ؟ أفلا تجتمع في مومياء المدرسية الكثيبة بإبتعادها عن تيار الفكر العالمي وعدم وصول دم جديد اليها ؟
لكن العلم بغير فلسفة توجهه قليل الرؤية اعشى . فهو لا يستغني عن الفلسفة تمده بالأسس والمناهج والعلاقات والقدرة على الربط والتعليل والشمول . فبدونها يظل العلم اشتاقاً متفرقة وأوصالاً مقطعة ، لا رباط بينها ولا جامع يجمعها .

وهكذا فالعلم يغذي الفلسفة بنتائج اختياراته ، والفلسفة تمد العلم بالنظرة الكلية الشاملة والمعنى المرشد والتعليل الأصيل . ولا شك ان تساند العلم والفلسفة قد أدى الى تقدم العلم ونضج المذاهب الفلسفية واطراد النمو في الفكر والحضارة (١) .

١ - هناك فروق اخرى كبيرة بين العلم والفلسفة لا يمكن ان نأتي عليها جميعاً في هذه المقالة ومن اراد التوسع فيها فليرجع الى كتابنا « المسألة الفلسفية » : الصفحات ٩٤ - ١٣٣ في منشورات عويدات .

القِسْمُ الثَّانِي

الفلسفة اليونانية

اليونان وأنماط التفكير عند الشرقيين

١

في حياة الأمم والشعوب قم عالية من الشموخ والنضج تعقبها منخفضات سحيقة من الإحذار والهبوط . فلا تكاد الأمة تزهر وترتفع ، ولا يكاد تجمها يتألق معبرة عن ذلك بشئ من عباقرة الفكر والأدب والفن وينظام من الحكم الديمقراطي والحياة الدستورية والعدالة الاجتماعية - حتى تذهب ريجها ويحفظ نسفها ، وتنضب قرائح بنيتها ، ثم تستغرق في سبات عميق يصعب جداً - ان لم يتعذر - إيقافها منه . فلأهم أعمار كما للناس أعمار ، على حد تعبير ابن خلدون . وما فات من العمر قلن يعود .

وفي قمة سامقة من قم الصعود الإنساني ارتفع الأغارقة وباهوا الأمم والشعوب بسخاء عطائهم وعظم تراثهم ودقة أحاسيسهم وسمو مشاعرهم . فلقد مروا في هذا العالم كما يمر الغمام فوق أرض قفر وواد غير زرع ، فكلوا كالأمل المشرق في عتمة اليأس . ثم مضوا كالخلم تاركين وراءهم الحضرة والنضرة والرواء لقوم غراث عطاش .

فإلى اليونان انما يرجع القسم الأكبر من تراثنا العقلي ومعدنا الفكري ، ولهم تدن الإنسانية يحل منتجاتها الفلسفية والأدبية والفنية . فقد شمع بهم

التاريخ وامتدوا بأيديهم على رؤوس الايام وهام الحقب وغزوا بأفكارهم خيرة
المقول والأفهام . ان كل ما قيل ويقال في وصفهم ادنى مما يجب لهم . فهم
كالشمس في رابعة النهار يرتد البصر عنها خاسئاً وهو حسيراً وحسبهم فخر
ان اللحظات الفذة في تاريخ الأمم والشعوب التي أعقبتهم تعبق بنفحاتهم
ويقوح منها شذى أريحهم .

لقد قهرهم الغزاة عسكرياً ، ولكنهم قهروا غزائهم حضارياً ! فاذا هؤلاء
يركعون بين خرائب ائينا ويقتلون مواطىء أقدام الفلاسفة اليونان وشعرائهم
ومصورهم وينادرون الأرض التي قدسها الفكر وقد هانت مطامعهم وصفرت
سراهم ولانت قسيهم ونبالهم . وبعد أن كانوا غزاة تافهين وبرابرة عتاة
جبارين، اذا بشوكتهم تنخضد، واذا بقناتهم تلين، واذا الناس غير الناس...
لقد صقلتهم ائينا وهذبت مشاعرهم أطلال المدينة العظمى ، وجعلت منهم
رسلاً للفكر والحضارة .



اجل، ان اليونان هم اساتذة العالم القديم والأوسط والحديث. كيف لا وهم
رواد النزعة العقلية في العالم وطلانها ، وهم جنود الفكر الخالص الذين آمنوا
بالعقل كأول من آمن وتعلقوا بالمعرفة لذات المعرفة ، لا لتحقيق مغنم او دفع
مغرم . فطلب المعرفة لذات المعرفة، اي للمتعة العقلية التي تفتج عنها ، بدعة
جديدة ابتدعها الأغارقة وكانت مزيتهم الاولى التي فاخروا بها أمماً سبقتهم
او عاصرتهم ، والتي كانت نبراساً لأمم اعقبتهم . فالفلسفة اصلها يوناني ،
وروحها يوناني وعبقريتها يونانية . وما من فكر اشرب او فيلسوف قام او
رجل أوتي الحكمة وانتال عليه المعاني ، إلا وبدأ باليونان وبني فلسفته على
اساس من فلسفة اليونان ، وأبرز افكاره وآراءه من خلال افكار اليونان وآراء
اليونان ، فأعظم باليونان اساتذة للفكر والحضارة ، وأكرم بهم رسلاً للعق
والخير والجمال !

لقد أوتي اقوام كثيرة قبل اليونان حكمةً وفكرًا وحضارةً وفناً ، ولكن الحكمة التي اختص بها اليونان كانت فريدة في نوعها وإليها وحدها ينصرف اسم الفلسفة بمعناها الدقيق . فلتن توصلت بعض الحضارات السابقة الى كثير من الحقائق التي عرفها اليونان إلا انها لم تستطع ان تصوغ ذلك في منهج موحد سليم ونظرية عقلية متماسكة وفي كل منسجم شامل .

هذا وان فضل اليونان على غيرهم من الأمم والشعوب ليس في وضع المشاكل والحلول المناسبة لها بقدر ما هو في قدح الزناد وإطلاق الشرارة الاولى للتفسير العقلي والتفكير المنهجي والتعليل المبني على المنطق والاستدلال ، والبعيد عن الهوى والاسطورة والتقاليد الدينية ، وبالتالي البعيد عن كل سلطة غير سلطة العقل . فالبدء والانطلاق يتطلبان دائماً أصالة وعبرة ووعياً لا تتوفر إلا في التفكير المبدع والعمل الخلاق . فاليونان هم أول من قدم المنهج وأشرع الطريق ، وأول من وضع الأسس وحدد المشكلات والاتجاهات الرئيسية التي سارت عليها الفلسفة حتى اليوم .

وليس معنى هذا ان الأمم الشرقية خلّت من كل تفكير فلسفي وتحميص عقلي . كلا . فلقد كان لدى الشرقيين عناصر هامة من التفكير الفلسفي والحكمة العقلية . لكن هذه العناصر لم ترتق الى مستوى البحث النظري المنظم والنظرة الكلية الشاملة ، بل لقد ظلت محجوبة بسحب كثيفة من المذاهب الدينية والأساطير الشعبية والاهتمامات العملية . فضلاً عن انها ظلت مفككة مقطعة الأوصال . ومع انها لم تستطع ان تتخلص من هذه الشوائب لتتبلور وتستقل بنفسها ، إلا انه كان فيها أصالة لا تُنكر وكان لها طابع متميز وملامح تركت آثاراً واضحة في التفكير اليوناني ، و - عن طريق هذا التفكير - في التفكير الانساني كله .

ولبيان خصائص كل من التفكير اليوناني والتفكير عند الشرقيين ، نلقي نظرة عجيلى على صور التفكير عند الأمم الشرقية القديمة التي كانت لها حضارات عريقة او تقاليد عقلية راسخة وكان لها شأن كبير في التاريخ القديم .

١ - نمط التفكير عند المصريين

ولنبداً بالمصريين . فقد كان الشغل الشاغل لحكام المصريين القدماء وكان أكبر مشهم تطهير النفس الانسانية وإعدادها للانتقال من دار الفناء الى دار البقاء . وأما التفكير النظري البحت والعمل العقلي الذي يكون رائده الفلاسف للوصول الى الحقيقة المجردة فأمر بعيد عن مركز اهتمامهم ومقتضى حياتهم ، او قل انه يأتي في المرتبة الثانية اذا لم نقل في المرتبة الثالثة والاخيرة في سجل اهتمامهم . ولذلك فلم يستطيعوا ان ينجبوا اي مذهب فلسفي بالمعنى الصحيح . فالعالم التي جاء بها حكماء مصر القديمة رغم عظمتها ووصولها الى درجة عالية من السمو الخلفي ، ورغم الجهود التي بذلوها لإقامتها على فكرة التوحيد ، إلا انها ظلت تدب بعبادة آلهة محليين ، كما كانت تقتصر الى معايير عقلية يضبطها المنطق ويكبح من جماحها الغيبي ويخفف من نزعتها السحرية الغالبة وإيمانها بالطلسمات والحوارق . وبذلك فان العنصر الخلفي يضيع في هذا الخليط المشوش ويصبح حطاماً ^(١) .

وبعبارة أخرى ، ان النصوص العظيمة التي أفصح فيها حكماء مصر القدماء عن سمو تصورهم للأخلاق وخلود النفس والعقاب في الحياة الثانية ، تبدو على حد قول البعض « كجزيرة صغيرة من العقائد الخالصة جداً تضيع في خضم واسع من النصوص السحرية » ^(٢) .

واذا كان قدماء المصريين قد وصلوا في الهندسة الى كثير من الحقائق ، إلا انهم لم يجعلوا من الهندسة علماً ذا علل ومبادئ ولم يصلوا الى نظريات تشبه نظريات أقليدس ، وإنما هي افكار متفرقة لا تماسك فيها ولا رابطة بينها ولا جامع يجمعها كشأنهم دائماً في منتجاتهم الاخرى وسائر أقاويلهم ووجوه نشاطهم .

« أما الاكتشاف الحقيقي لعلمي الهندسة والحساب بنظرياتها وقواعدها ، مع البرهان النظري على صدقها صدقاً يعمّ كل الحالات الجزئية ، فمن اسرار الحضارة اليونانية » (١) .

٢ - نمط التفكير عند الايرانيين

ولئن عجز المصريون القدماء عن الوصول الى عبادة إله واحد رغم ما قد بذلوا من جهود صادقة في هذا السبيل ، فان الديانة الايرانية القديمة ظلت دائماً يشوبها التفكير بوجود اصلين قديين مدبرين للعالم هما : اهورا مزدا (Ahura Mazda) إله الخير وسبب النظام في هذا العالم والمسؤول عن إقرار العدالة ومحاسبة النفوس بعد الموت عما اجترحت من السيئات في هذه الحياة - وأهريمان (Ahriman) إله الشر والمرض والموت وملك الشياطين . فتقسم الكائنات الى طاهرة وذنّة ، والصراع بين الخير والشر ، بين الجنة والنار ، بين الألوهية والإنسان ، هذا هو لب المذهب الديني والعقائدي الذي يعرضه الكتاب المقدس لدى الايرانيين : الزند افستا (Zend Avesta) .

ان ديانة الزند أفستا هذه تمتاز بالتوازن العقلي الذي يسود فيها وبسمو التفكير ، كما أن فكرة الألوهية فيها على جانب عظيم من العلو والرفعة ، غير انه يتخللها - وهذا هو طابعها المميز كما هو آفتها ايضاً - ثنوية جذرية كما قلنا ظلت تنمو وتكبر عبر الاجيال دون ان يستطيع التفكير الفارسي ان يتخلص منها ، فضلاً عما فيها ايضاً من عناصر قديمة تتصل بعبادة النار والشجر والنجوم والشياطين (٢) .

والأخلاق بدورها تنبثق من هذه الثنوية ايضاً . فواجب الإنسان هو ان يفعل الفضيلة ويقول الصدق والحق ولا يجترح السيئات - وهي الخروج على

١ - الدكتور محمد ثابت الفندي : فلسفة الرياضة ، ص ٣١ .

٢ - المصدر السابق ص ٣٨ .

القوانين والسنن التي وضعها إله الخير - ليجنب نفسه ومجتمعه سخط إله الشر . وبذلك فهو يعمل على انتصار الخير على الشر .

هذا هو أس^١ الاخلاق عند حكماء ايران القدماء وهذا هو غط تفكيرهم ، وهو تفكير لا مكان فيه متميز عن الدين . ولذلك لم يتمكنوا من وضع نظرية في الكون عميقة ولم تتكوّن الفلسفة عندهم نظاماً من التفكير مستقلاً قائماً بذاته يكون نتاج العقل الخالص . حقاً لقد وصلت بعض فرقهم الى نظرية ما في المعرفة ، ولكنها معرفة تقوم على أساس الذوق والكشف لا على أساس العقل والمنطق ^(١) . وهكذا حكم المصريين القدماء ، بل والآشوريين والبابليين ايضاً .

٣ - غط التفكير عند الهنود

وأما الهنود فلم شأن آخر، فهم على ما يبدو الشعب الشرقي القديم الوحيد الذي يمكن ان يقال ان له أنظراً فلسفية يمكن التماس خطوطها العامة في الفيدا (Vêda) ، وهي الاسفار المقدسة التي تعبر عن تفكير الهند من القرن الخامس عشر حتى القرن السادس قبل الميلاد ^(٢) . ففي هذه الاسفار المتباينة منذ الريح فيدا (Rig Vêda) - وهي أقدمها جيماً - حتى الاوانيشاد (Upanishads) البرهمانية - وهي الاسفار المتأخرة - كما في الاسفار التي أعقبتها من لدن الفيدانتا (Vedânta) حتى المذاهب الحديثة ، في هذه الاسفار جيماً نلمس في آن واحد الاستعداد العجيب لدى الشعوب الهندية للنظر الفلسفي الى جانب عجزهم الفاضح عن حلّ المشاكل التي يثيرها هذا النظر : من نحو القلق الميتافيزيقي للانسان امام سيلان الظواهر والكائنات والاشياء ، وسميه الحثيث وراء مطلق ما - موجوداً كائن او غير موجود - لا سبيل له اليه

١ - المصدر السابق من ٣٨ - ٣٩ .

٢ - المصدر السابق من ٣٩ .

ويحاول عبثاً العثور عليه في باطن ذاته ، ليدرك ذلك الروح الذي فيه بنسج المكان وتتشابهك أطرافه ، وليتحد به ، وليتخلص بواسطته من دورات التناسخ (Cycle des transmigrations) التي تلتظره ، وليحرره من الأم بقتل سلطان الرغبة فيه والقضاء على كل تعلق له بالعالم ^(١) .

ومن خلال ذلك كله يشفّ مذهب في الحياة تحركه نفحة روحية واحدة رائدها التوافق التام في الطريق المؤدي الى السكينة (salut) : أعني الخلاص الذي يصل اليه السالك بإماتة كل رغبة فيه ، وكل حظ للنفس وكل مطمع . فهنا يكن البراهما او التيرفانا التي هي المثل الأعلى للبراهمة والبوذيين . انهم يتفقون جميعاً حول هذه الغاية رغم اختلافاتهم الميتافيزيقية وتباين آرائهم . وهذا الاتفاق حول الغاية وطريق السلوك يبين بوضوح طبيعة المذهبية الهندية وعدم مبالاتها أصلاً بالتصورات او الأفكار التي هي الأساس في كل نظير فلسفي عند اليونان او خلفائهم من الغربيين ^(٢) .

فالحياة الروحية التي ينشدها حكماء الهند لا تقيم وزناً كبيراً للتصورات العقلية . انها المقصد والغاية ، وكل ما عداها فإنما هو هراء في هراء . ان اكبر مهبها هو التجرد عن الرغبة وترك كل حظ للنفس وسكون السالك 'مطرقة' غاضاً بصره معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية ، مقبلاً بكنهه الهمة على التأمل الخالي من كل مضمون ، خفي يفي عن نفسه وتغيب عن ذكره وفكره جميع الصور والرسوم ويتلاشى في مبدئه ويتحد به... الى غير ذلك مما لا يفهم الحديث ولا تشرحه العبارة ويضيق عنه نطاق العقل ولا يكشف أفعال فيه غير الخيال . هذا هو طريق السلوك عند القوم ، وهو واحد في جميع المذاهب على اختلافها وتنوع صورها وأشكالها وتعارض اقوالها في النفس والشخصية الإنسانية ورب الأكوان بل ومسألة الوجود والعدم .

وهكذا « فكأنما علم النحلة الهندية (orthodoxie indienne) غريب على الميتافيزيقا » على حد قول لافاليه بوسان (La Vallée - Poussin) ^(١) فهو لا يتقبل هذه الميتافيزيقا العقلية ، بل لا يحتمل أي إمكانية للقاء معها . وهو بنزعته اللاواقعية التي تنف موقفاً وسطاً بين النفي والإثبات لا يبالي بحل المشاكل بل حتى ولا بوجود موضوع للتفكير ^(٢) . فالسالك عندما يقبل على التأمل فإن تأمله يكون بدون محتوى ، وعندما يكون مطرقاً مجتمع الهمة والفكرة فلا يسبقن إلى ذهنك ان امرأ جلاً يحتذبه : فهو مطرق لا في شيء ، مجتمع الهمة والفكر لا في موضوع !

وبذلك فإن الحكمة الهندية تختلف اختلافاً تاماً عن طريقة التفكير في المذاهب الغربية . فهذه الأخيرة حتى وهي تشك وتنفي ، تثبت أيضاً ما هي تدعي إنكاره ، وهي إذ تفعل ذلك إنما تشكك في معرفة الوجود أكثر مما تقول باللاوجود . أنها تبين الفارق الكبير بين الوجود الحقيقي والطريقة التي يظهر لنا عليها هذا الوجود ، وهذا في حقيقة الأمر لا يعدو ان يكون نوعاً من تأكيد الوجود في ذاته ، بل لعله أوثق أنواع توكيده ^(٣) .

لكن الوجود في ذاته شيء غير معروف عند حكماء الهند . فهم عندما يلتمسون خلال « المظهر » او الخداع الحسي « الوجود » الواحد اللامتناهي المباطن (immanent) العالم ، فليس موضوع التأمل وغايته القصوى عندهم الوجود او اللاوجود ، إنما هو شيء ما ليس له أي شكل من أشكال الوجود المعروف او المتخيل ، لا بالنسبة إلى التفكير الإنساني ولا بالنسبة إلى عقل خالص مطلق قياساً ، كالعقل الإلهي مثلاً . فهو شيء بعيد ، بعيد جداً عن تصورات الإنسان ومداركه وحدوده ، شيء لا يُسبر غوره ولا تعرف

١ - في كتابه « اليودية وديانات الهند » نقل عن شيفالييه ، المصدر السابق ص ٤٠ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٠ .

ماهيته ولا تحدّ هويته ، ولا تحيط به العقول والأفهام ، وهو منفصل عن وجود الله وعن ديومة النفس وجوهريتها، وبالتالي عن كل ما يحول في الخاطر ويرتسم في الذهن. ذلك بأن الرمز، تبعاً للهنود، يعدل الرموز اليه، وبتعبير أدق، لا وجود للرموز اليه ، إذ لا يوجد إلا رموز. حتى ان الفلسفة بالنسبة اليهم لا وظيفة لها إلا تقرير الظواهر وتصويرها، بحيث ان حركة الظواهر ، هي الحقيقة في ذاتها ، مها تكن هذه الحقيقة مؤقتة خاطفة ، وبالتالي ، ان الحقيقة وهم وسراب وخداع . ومن العبث ان نبحث عن شيء وراء هذه الظواهر ، إذ لا شيء وراءها على الإطلاق ^(١) .

فلا شيء موجود ، والكل يصير . وبتعبير أدق ، ان الكل هو صيرورة بتغير جوهر « فكل شيء فارغ ، والكل لا جوهر له » ^(٢) كما يقول بوذا .

انه سيلان دائم وتعاقب من الملل الظلالية آخذ بعضها يرقاب بعض ، او قل هو تحول دائم لا ينقطع — لا اول له ولا آخر ولا حد ولا علة — لطراز واحد من الكينونة اليه يعود كل شيء ليفنى فيه ، دون ان يقال عنه انه موجود او غير موجود . هذا هو مذهب وحدة الوجود (panthéisme) او مذهب الألوهية المبثوثة في كل مكان (théopanism) كما يستخلص من الميتافيزيقا البرهمانية ، وهو « لبّ مذهب بوذا وكل تفكير خرج منه . وأما الشخصية الفردية والنفس وخلودها وفنائها في النيران فصور لا معنى لها في علم النسخة الهندية الى حد بعيد ، ولا هي تهتمها في قليل ولا كثير. فضلاً عن انه لا قيمة لها من حيث الخلاص ، بل ان هذا الخلاص لا سبيل اليه اذا اعتقد المرء بالوجود الجوهرى للأنا او بديومته وقيامه بذاته، او اذا كان يصبو الى تحقيق ذلك ويعني النفس به ^(٣) .

١ — المصدر السابق ص ٤٠ — ٤١ .

٢ — « Tout est vide , tout est insubstantiel » .

٣ — المصدر السابق ص ٤١ .

ولكن هذا لا ينبغي ان يؤخذ على اطلاقه . فبضرب من التناقض الذي يصدم كل من يفكر على اساس المعقول دون ان يحرك ساكناً في اصحاب الفلسفات التي إنما تقوم على اللامعقول - وهو تناقض يتميز به علم النحلة الهندية بحيث ان من لم ينتحله لم يكن منها ولم يُعَدَّ من جملتها - اقول بضرب من التناقض الفاحش يؤكد البوغيون الثواب والعقاب والمسؤولية في حياة اخرى غير هذه الحياة، حتى انهم يكفّرون كل من يعتقد بأن الموت من شأنه ان يضع حداً لحياة الإنسان على الارض وألا امل للانسان في البقاء .. فحذار من الرغبة ومن وساوس الرغبة ، إذ اتنا ستكون هناك تبعاً لما نفكر وهنا . فالأفعال التي كسبنا في هذه الحياة الدنيا لما كانت وليدة الرغبة وكانت سبباً في توليد الرغبة ، فإنها قد النفس بإمكانيات مهيأة لأن تتجسد في حياة اخرى تؤتي فيها ثمارها . وهذا بالضبط مما يجب تجنبه والحذر منه اذا كنا نريد الخلاص ^(١) . ولكي تنجو من الحياة الأليمة التي تنتجها الرغبة وتتجدد بها ، وكبلا نفع فيها يسميه الهندوس السمسرة (Samsāra) او الدورة الأبدية ، ذلك الشر الكوني الذي هو اصل الطبيعة الانسانية والذي هو وليد التعلق بالحياة ، وحتى لا تتعرض للتناسخ او دورة الأرواح التي تنتقل - بما قدمت ايديها في هذه الحياة - من مصير الى مصير أليم آخر لا تتجينا منه سوى الزفانا ^(٢) .

فهناك قانونان ينبغي إلزامهما والتقيدهما : قانون التوقف عن العمل او عن الرغبة ، وقانون استئصال شأفة الرغبة . وفي التزام هذين القانونين تنجو من الغناء ونضمن البقاء في حاضر ابدى دائم لا يلحقه موت ^(٣) .

١ - المصدر السابق ص ٤٢ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٢ .

ان الفيدانتا^(١) (Védanta) يعبر عن المذهب الاسامي للبراهمانية ولكل تفكير هندي ، ألا وهو التوحيد بين براهما والنفس ، توحيداً ينتج عن الشعور به انعدام الفردية التي هي مصدر كل شر .

ان الفلسفة الفيدانتية كما يعرضها اليوم راما كريشنا (Rama Krishna) تقوم على تحليل الحلم الذي لا يخرج في مجموعه ومحتوياته عن ان يكون انعكاساً (Projection) للعقل في الزمان والمكان والعلية . وانطلاقاً من هذا المعنى يذهب حكماء الهند الى ان العقل يخلق كل شيء ، سواء في ذلك موضوعات الحلم او موضوعات اليقظة ، حتى ان جميع هذا العالم التجريبي ما هو إلا حلم كوني عظيم ، ولا قيمة له تريد على سائر احلامنا . وهكذا فكل شيء إنما هو من انتاج عقولنا ، وما الكون بأمره إلا سراب في سراب^(٢) .

ان تجربة النوم العميق التي يتوقف فيها نبض الأفكار ويسكن الجسم والروح ، وحيث يستيقظ فينا وجدان الصمت الخالص والفراغ والكينونة اللامتعينة والتي لا شكل لها ولا صورة - اقول ان هذه التجربة تسوقنا الى الاعتراف بأن اليقظة والحلم والنوم العميق ما هي إلا مظاهر لحقيقة واحدة بذاتها هي براهما ، الكائن السرمدي الاعلى . فهي في مظاهرها الثلاثة وليدة نشاط عقلي خلّاق او هي انعكاس له . لكن على حين ان حالة اليقظة تخترق الأشياء المحسوسة وتتخللها جميعاً ويكون لها تجربة بها، مما يضيف عليها بالنسبة إليها صفة الموضوعية والوجود الخارجي المستقل عن الانعكاس العقلي الجمعي الذي هو الاصل والغاية ، فان حالة الحلم تعيش الأشياء التي تنتج عن الرغبة ، بانعكاس العقل الفردي على ذاته، وتنص تكثرها وما فيها من تعدد وانتشار .

١ - الكتاب الديني للهند ألفه سنكارا (Sankara) من عهد شارلمان تأليفاً فلسفياً خالصاً تتجلى فيه واحدة (Monisme) مثالية للوجود لا تقبل بها التعددية (Pluralisme) للمعدة لسامكيا (Samkhya) .

٢ - المصدر السابق ص ٤٣ .

وفي الوقت الذي يحقق فيه المرء تجربة العالم الحسي كعلم ، فإنه يصل - بعد ان يبلغ من هذه التجربة غاية مداها - الى رؤيا روحية سرمدية لحقيقة هي في ذاتها سرمدية ساكنة يدركها بمحس مبائر يقتنص فيه الأنا الأساس الحقيقي للوجود ، المنزه عن الزمان والمكان والمبرأ من الحدوث والآنية اللذين هما علامة الوم وسمة الخداع والسراب (١) .

ان ما يظهر من تناقض بين هذه التجارب الثلاث (اليقظة والحلم والنوم العميق) مصدره اننا نضعها جميعاً على مستوى واحد من الزمان . وللتناقض سرعان ما يزول عندما نتنزه الى اختلاف ظروف الانعكاس الزماني التي تجري هذه التجارب الثلاث فيها ، وعندما نعيد لتجربة النوم العميق قيمتها الحقيقية التي لا يمدلها شيء من الأشياء ، تلك التجربة التي تليح لنا منذ هذه الحياة بالذات الإنتساب والتحرر والائحاد والقبطة العظمى والبهجة القصوى . هناك ينعدم التمايز والتفريق ، وتنقطع العلائق وقوت الذكريات ، ويتلاشى الكل في الكل ويضمحل ، ولا يبقى إلا الواحد الحق ، الكائن المطلق ، وهو واحد سرمدى غير متشخص ، ليس كمثله شيء ، لا تنايز فيه بوجه ولا صلة له بغيره (٢) .



ان التفكير الهندي - رغم مزاياه العظيمة ورغم جاذبيته وتأثيره العميق في التفكير اليوناني ، ثم في طرق التفكير في القرون الوسطى الاسلامية والمسيحية ، بل ورغم استمرار هذا التأثير في العصر الحديث - أقول رغم هذا كله يختلف اختلافاً جذرياً عن التفكير اليوناني ، وبالتالي لا يصلح ان يكون أساساً لفلسفة عقلية إيجابية معطاء . واذا نحن ترجنا هذا التفكير الى

١ - المصدر السابق ص ٤٣ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٣ - ٤٤ .

لغة الوجود والمعقولة ، قلنا انه ينكر الوجود والواقع والشخصية الانسانية ، ويسام بذلك في تعطيل الملامح الرئيسية للتفكير الفلسفي كما برز عند اليونان ، دون ان يقدم له عناصر جديدة او يغذوه بدم يمنحه الحياة والنمو . ولكي ندرك اي خطر كانت ستتعرض له الانسانية لو انها انسأقت في تيار التبعة الهندية فما علينا إلا ان نقارن بين ما أنجبته نمط التفكير اليوناني وما أتى به التفكير الهندي . فان التفكير اليوناني قد وهب التفكير الانساني جميع المعاني العقلية الأساسية وجهاز العمل الكامل - المنطقي والوجودي - مما مكنتنا من تحقيق ذلك التقدم الرائع الذي تشهد به كل يوم خمسة وعشرون قرناً من التاريخ . وأما التفكير الهندي فانه على الرغم مما فيه من بصرية عميقة وغنى في الحدس لم ينضج معينه ، إلا انه لم يصل قط الى التعبير عن ذاته في صورة ذهنية معقولة وفي مذهب متماسك مترابط قابل للنمو والعطاء يجمع بين الحقيقة والحياة ويساعد على التقدم ، كما فعلت الحكمة اليونانية والعلم اليوناني والفن اليوناني . فلقد 'نكب منذ البداية بمذهب وحدة الوجود وألفتته أوهام الكشف والذوق ، فنكص على عقبيه و'شل' عن الحركة وضل' سواء السبيل .

والخلاصة ، ان التفكير الهندي قد سحق الانسان وهو يدعى تأليه الانسان !!

٤ - نمط التفكير عند الصينيين

ولنتقل اخيراً الى شعب عريق آخر في اقصى الشرق هو الشعب الصيني ولنفحص تفكيره عن كسب فنقول :

ان التفكير الصيني ينطبق عليه ما ينطبق على التفكير الهندي بوجه عام . وذلك لتقارب المناخ العقلي والتقاليد الدينية بين البلدين . فهو أيضاً يتم عن طراز رفيع جداً من الحكمة مغاير تمام المغايرة للتفكير اليوناني ولائمات التفكير الاخرى التي تأخذ بتقاليد الفكر اليوناني والعقلية اليونانية ، ولذلك لم ينبج حتى عهد قريب اي حصيله دائمة من شأنها ان تغني التفكير الانساني وتوسع آفاقه .

إن الحضارة الصينية هي كما قلنا حضارة عريقة جداً وتشف عن أصالة قوية ، وهي من الشرق الأقصى وتاريخه ينزلة الحضارة اليونانية الرومانية من أوروبا وتاريخها . ولهذا الحضارة جذور عميقة في التاريخ . وقد انبثقت عن الديانة البدائية القديمة التي تتادي بعبادة السماء العليا التي اوجدت ما يقوم بين الأشياء من علاقات وربطتها برباط محكم من القانون والسببية والتي ترتبط بها أيضاً ارتباطاً وثيقاً بعبادة الأرواح وبخاصة عبادة الأسلاف . وفي القرن السادس قبل الميلاد تقريباً جاء لاو - تسي (Lao - Tseu) وهو حكيم غامض أسس مذهب الطاوية (Taoisme) الفلسفية ، فجذد هذه الديانة وأدخل فيها إصلاحات جمّة . وأعقبه بعد ذلك بقليل كنفوشيوس (Confucius) أو كونغ - تسي (Kong - Tseu) (٥٥١ - ٤٧٨ ق.م) فأعاد بناءها مرة أخرى هو وتلميذه له جاء بعده بزمان طويل اعتنق آراءه وأنبرى للدفاع عنها اسمه مونشيوس (Mencius) أو (Meng - Tseu) (٣٧٢ - ٢٨٨ ق.م) لكن مو - تسي (Mo - Tseu) (أواخر القرن الخامس ق.م) هو وحده الذي أبدل عبادة السماء اللامتشخصة بعبادة الله القادر على كل شيء ، رب السموات العلي ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والذي يريد الخير لعباده ويحب العدل ويحنو على جميع خلقه ^(١) .

ويبدو أن التفكير الفلسفي في الصين هو في جوهره وليد التصورات الطبيعية القديمة التي نشأت عن تقلب الليل والنهار وتعاقب الفصول والأشياء حسب الين (Yin) واليانغ (Yang) ؛ من نور وظلمة وحرارة ورطوبة ، وتوسع وتقلص ، والمذكر والمؤنث ، والأرض والسماء .. فتعارض هذين المبدأين وتعاقباها وارتباطها أحدهما بالآخر وتغيرهما وفقاً لنظام الطاو - كل أولئك يفسر سير الحوادث وحياة العالم التي يدبر الله أمرها من عليين وتشرف السماء العظمى عليها ^(١) .

هذا هو مصدر الفكرة العزيزة على الحكمة الصينية والتي تقول بوجود قوى خفية تربط بين جميع الموجودات والحوادث في الطبيعة، من ادناها الى اقصاها ومن اعلاها الى اسفلها ، وهي التي تكفل النظام الدائم في العالم وتحقق الانسجام والاستقرار والسلام . وبهذا النظام المستقر الغامض يرتبط الإنسان ارتباطاً وثيقاً هو من الشدة والمتانة بحيث ان الفضيلة العظمى في حقه إنما هي الخضوع لهذا النظام وتوجيه سلوكه وفقاً له وتحريره من ذاته ليسام في نظام الكون بالإتحاد به والفناء فيه . وهذا من شأنه ان يمد الإنسان بقوة سحرية هائلة للتنبؤ بالمستقبل والتأثير في الكون والحوادث وجعلها طوع بانه (١) .

هذا هو لب التفكير الصيني. ففي تضاعيفه تكمن ثنوية ميتافيزيقية تختلف كثيراً عن ثنوية فارس لم يلبث التأمل الفلسفي ان اخضعها لمبدأ الطاو (Tao). فالضدان الين (Yin) والينغ (Yang) ليسا مبدأين متعارضين احدهما في صراع مع الآخر، وإنما هما مظهران يكلل احدهما الآخر ولا يوجد احدهما إلا بوجود الآخر . ولا بدّ من اجتماعهما معاً لتحقيق النظام الكوني. وهكذا فالميتافيزيقا الصينية تقدم لنا عالماً تحكمه قوى متازجة لا حدّ لها تتفكك وتتألف وفقاً لمشيئه الين والينغ، من تنافر وتجاذب، وحب وبغض .. بتأثير العملية المتبادلة والحركة الدورية، تبعاً لمبدأ أعلى او «طريق مركزي». يسمى الطاو (Tao) ، هو محور التعادل والتوازن والتضاد والتخالف ، وهو المدير الأعظم والجوهر الأوحده ، وما الين والينغ سوى مجرد صيغتين له . انه قلب ابدى سرمدي لا تدرك ذاته ولا يُعرف كنهه ، ولا يوصف إلا بطريق السلب (٢) .

وهذه البنية الايقاعية التي يشهد التاريخ بديمومتها واستمرارها يسمى السحرة الى التأثير فيها وامتلاك ناصيتها كما يسعون الى امتلاك الزمان والمكان

١ - المصدر السابق ص ٤٧ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٨ .

الذين تفرض عليها الطاو نفس الايقاع. ويكفي الساجر ان يعرف الطاو عن
يسيطر على الزمان والمكان ويحقق النظام في العالم ويقيم المبدأ الأعلى للأشياء^(١).
وهذا الطاو عصي على العقل ينفر من جميع الصور المجردة والميكانيكية ،
سواء في ذلك صور التفكير او صور الخضوع . ولذلك فإن الجدل عدوة
الدود ، ولشد ما يكره أهل الجدل الذين في مقدورهم اقحام الخصم بطريق
النقاش والمقارعة بالألفاظ ولكنهم يعجزون عن إقناعه ، إذ يستبدلون مناهج
المنطق بمناهج الحكمة فيدخلون بذلك عنصر القسر حيث يجب ان يحل التفكير
الحر وانصياع القلب والروح انصياعاً واعياً خالياً من كل إكراه لا يحجبه
إغراء منطق او بهرج برهان. فالحقيقة لا يمكن الوصول اليها بالبلاغة والمنطق ،
حق ولا بالمعرفة التحليلية ، بل بالعلم اللدني والكشف الصوفي . انها لا تعرف
بفن العبارة والمقال ، ولكنها تتال بالذوق والحال . انها لا تحصل بطريق
التعلم والاستدلال ، وانما هي إلهام ونفث في الروح لا يدأتيه أي ضرب من
ضروب المعرفة الأخرى ، سواء في موضوعه او منهجه وغايته . وشتان بين
المعرفتين^(٢) .

وهذا الرفض التام للعقل ولبضاعة العقل يدخل في صميم العقليّة الصينية
القديمة . كما ان المنطق الذي هو من مقومات العقليّة اليونانية يندد به الصينيون
دائماً وليس له من مقابل لا في لغتهم ولا في تفكيرهم . ولذلك فإنّ العلية
(السببية) ومبدأ عدم التناقض لا معنى لها في منطق الطاو^(٣) ، كما كان
الحال عند الهنود .

وهذه مسألة يتفق عليها جميع حكماء الصين من طاويين وكنفوشوسيين .
واذا اختلفوا في شيء فإتّما يختلفون في المناهج والطرق التي ينبغي اتباعها
لتحصل الحكمة ، أي في وسائل تعليمها ونقلها الى الآخرين^(٤) .

١ - المصدر السابق ص ٤٨ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

٣ - المصدر السابق ص ٤٩ .

فكنفوشيوس يعطي الأولوية للشعائر والطقوس الدينية باعتبارها أساساً للنظام الكوني والاجتماعي . فهو يركز كل الحكمة في الانسان الذي هو بالنسبة اليه موضوع المعرفة . وهو إذ كان لا يبالي بصور التفكير ولا يعبأ بالميتافيزيقا بل يلقى بها جانباً ، ولا يهتم بمشاغل الحياة بعد الموت ، إنما يرد كل شيء الى ما يطلق عليه اسم « الجن » (Jān) ، ذلك الفن من فنون الحياة الذي يحل محل العلم والفلسفة والسياسة والذي يستخلص منه نظاماً للأخلاق القائمة على قواعد وإرشادات سلبية (لا تعامل الآخرين ...) تتصل بتنظيم الروابط العائلية والتفاوت الاجتماعي والإيمان القوي واحترام حقوق الناس ... دون ان يكون فيها سوى قاعدة إيجابية واحدة هي ان يخضع الانسان لقانون السماء وتقاليد الآباء والأجداد . ان العناية القصوى لهذه الاخلاق تحقيق الخير للدولة بإنقاذ الكرامة الانسانية وإقرار الانسجام بين الجار وجاره والصديق وصديقه وخلق ثلة من الناس متحدين متفاهمين تجمع بينهم الإلفة والمحبة ^(١) .

وخلافاً لكنفوشيوس ، فان تشوانغ - تسي (Tchouang - Tseu) المتوفى سنة ٣٢٠ ق.م . وتلميذ لاو - تسي (Lao - Tseu) زعيم الطاوية وحبرها وإمامها إنما يعطي الأولوية للموسيقى التي تستوعب في ألحانها السماوية كل شيء في وحدة شاملة صامتة من الألوهية الكونية المتصلة المباطنة لنا ، تلك الألوهية التي تؤلف قانون العالم وتهب دفته وسورته ، والتي ينبثق على الحكيم ان ينزع اليها ويتحد بها ، بانفصاله عن الناس والمجتمع ، ليصل في خلوته الى السكون والظلام ، وليعيش لحظات فظة سعيدة من تقرين القلب والسر (Vacuité beatifiante) تحرره من كل شيء ، حتى من سلطان الموت نفسه ^(١) .



ان الحكمة الصينية رغم ما قامت به من محاولات صادقة للتجديد والانفتاح على الثقافات الاخرى فقد ظلت - شأنها في ذلك شأن الحكمة الهندية - بعيدة

عن المنطق والدقة والمعقولة ، وبالتالي لم تستطع ان تنفذ الى تراث الفكر العالمي لتقدم له شيئاً إيجابياً بناءً وتسهم في رقيه وتطوره . فهي إذ كانت تقتصر الى التوازن العقلي لم تتمكن من وضع مذهب في الوجود والحقيقة يرضى عقل الإنسان ويشق له طريقاً من النمو المطرد المتواصل لا يعرف الحدود او السدود (١) .

كل ذلك يفسر لنا عقم هذه الحكمة التي لا تخلو من السمو في كثير من جوانبها ، غير انها لم يكن في مقدورها أن تضمن البقاء للحضارة الصينية إلا بتجميد هذه الحضارة . فهي على حد قول بعضهم (٢) : «تزييف صارخ للخلود لا مثيل له» . فلئن بقيت حتى الآن فإنما هو بقاء مستنار سُدته الجود ولُحمته العقم . أجل انه بقاء ، ولكنه كبقاء المومياء محنطة في ظلمات القبور فما أخزاه من بقاء !



كل ما تقدم يبين لنا بصورة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام أن من الاغريق — وبعبارة أدق من اغريق القرن السادس قبل الميلاد — يجب ان نبدأ اذا اردنا ان نؤرخ للفكر الانساني ؛ لأنه انطلاقاً من هؤلاء الاغريق اخذ الفكر يجمع شتات نفسه ويصي ذاتة بلزاء موضوعه ويواجه معضلات الوجود والحياة بروح جديدة . فالليونان هم أعرق الشعوب في التقاليد العقلية وأرسخها قدماً وأطولها بقاءً . فقد بنينا لأول مرة المراد من العقل البشري وكانت لهم فكرة واضحة جديدة كل الجدة عن وظيفته والقصد منه ، فاستغلوه أعظم استغلال وجنوا منه اطيب الثمرات . فلم يكن الاغريقي يشعر بالسعادة إلا اذا

١ — المصدر السابق ص ٥٠ — ٥١ .

٢ — Gilbert Brangues: Les Fondements de la pensée Chinoise .

نقل عن المصدر السابق صفحة ٥٢ .

استقصى الجزئي في اطار الكلي وربط الحالة الخاصة بالقانون العام . ففي التعميم يمكن رؤية الحقيقة كما هي واختبارها . والاغريقي يقنع على المعنى فلا يزال يستقصي فيه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية . وهو كثير التعليل لما يقول . وكل هذه تقاليد جديدة كانت هدية اليونان الى الشعوب الاخرى .

فهم عندما كانوا يلاحظون الظواهر التي تقع امام أعينهم كانوا يفسرونها تفسيراً طبيعياً أولاً ثم عقلياً بعد ذلك دون ان يدخلوا اي سلطة خارجية غير سلطة العقل كلاً له والقوى الخفية والسحرية والعوامل الغامضة والخرافات والأساطير . وهكذا فقد حل علم الكون الجديد محل الاساطير ، كما حل النظام والقانون محل التحكم والهوى . فاذا لم يكن العالم متقلب الأهواء ، وبالتالي اذا كان خاضعاً لقانون ثابت فمن الممكن تفسيره . اجل ! ان الكون خاضع لنظام شامل وللمجموعة من القوانين لا تتخلف . أنه كل منطقي رياضي جميل وحق ، وبالتالي يمكن تفسيره بالعقل وحده . ماذا اقول ؟ حتى الله نفسه ، مقيد بسلسلة من القوانين والأنظمة لا تدع له مجالاً للتصرف بحرية واختيار . وما هذا النظام الشامل الذي تخضع له الاشياء والموجودات جميعاً ، وما القانون الذي يسير وفقاً له ، سوى قانون العقل . فالعقل هو قانون الاشياء ، كما أن الاشياء انما تسير وفق قانون العقل . والله والعقل لفظان مترادفان ، فالله إنما هو عقل خالص ، والعقل الخالص هو التعبير الفلسفي عن معنى الله .

بل لقد ذهب اليونان في تقديس العقل الى حد تكذيب ما لا يتفق معه ولو أيدته الحس . فالمنطق اصدق من الواقع ، والعقل أحق بالاتباع من الحس . شاهد الحس يخطئ وشاهد العقل معصوم عن الخطأ . فما يخالف العقل فهو غير موجود ولو شهد الحس بوجوده ، وما يوافقه فهو وحده الموجود ولو لم يصل اليه الحس . ومن هنا تفرقتهم بين عالم الحقيقة والمثل وعالم الظن والوهم والخيال .

أرأيت ايماناً بالعقل اعظم من هذا الايمان ؟

أرأيت بين الشعوب القديمة شعباً ذهب في تقديس العقل مذهب اليونان ؟

أرأيت أمة عاشت تجرية العقل وعانت منها وغاصت على معناها كما فعل

اليونان ؟

فكل هذا فتح جديد له ما بعده .

فهم برفضهم تدخل السحر والأسرار والقوى الخارقة ابتدعوا بدعة جديدة في تقاليد الأمم التي سبقتهم او عاصرتهم . وبذلك فقد خطوا خطوة حاسمة نحو العلم وأوجدوا بداية منهج إيجابي بنسأ لتفسير خفايا الطبيعة . ومما قيل في سذاجة هذا التفسير وبعده عن الواقع فإنه يظل هو البداية الواعية المنظمة للمنهج العلمي ولكل تفسير علمي منتج .



وليس معنى ذلك ان الإغريق قد ظهروا على مسرح الحياة فجأة وهم يحملون طابعهم العقلي الفلسفي المتميز . فهم - كأبي شعب آخر - لم 'يخلقوا' أفذاذاً منذ النشأة الأولى . فما من شعب يأتي فذاً بالفطرة والولادة . فلفقد وقعوا في غمرات الأوهام والأحلام التي وقع فيها سوامم ، وقارفوا في عصورهم السحيقة ما كان يقارفه غيرهم من ضلالات وخرافات بعيدة عن سمع المعقول تجد مثلها الأعلى في أساطير هوميروس وخيالات هزيرود . وما الى ذلك من أقاصيص الميتولوجيا وكل ما يحوي القصص الشعبي من سذاجات . وبدت منهم محاولات صيبانية لفهم الكون والوقوف على أسرارها ، بل لعلمهم كانوا أكثر من غيرهم إيفالاً في هذه العمايات وأشد منهم 'بعداً عن المعقول' وأكثر منهم شططاً . لكن خلف من بعدهم خلف أخذوا - ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد - يخرجون على المألوف ويتعدون عن المألوف ، فجعلوا يختلسون من شواغلهم واهتمامهم بشؤون حياتهم سويمعات خصبة يقزعون فيها الى البحث والنظر والفوص على معنى الكون والحياة وأسرار الوجود . وما زال هذا المنهج العقلي البسيط يترقى وينمو حتى بلغ قصاره في القرن الرابع قبل الميلاد.

والسبب في هذا الامتياز الذي يتمتع به اليونان لا يعود الى انهم مخصوصون - دون غيرهم من الأمم والشعوب - بعقل مطبوع على البحث والنظر وطلب المعرفة لذاتها وللمتعة العقلية الناشئة عنها . فهذا الرأي لا يمكن قبوله اليوم لأن أذواقنا لم تعد تقبل تفسير الخصائص الذهنية على أساس عنصري . فعقل المتوحشين لهم القدرة على الاستنباط وعلى التفكير المنطقي والحِجَاج العقلي والجدل والتكهن . ولله در دريبرغ (Driberg) حين قال : « من المتوحشين مفكرون وفلاسفة ومنجمون وزعماء ومخترعون » ^(١) . فضلاً عن ان نتائج اختبارات الذكاء تثبت ان الفروق بين الأمم والشعوب إنما هي فروق حضارية تاريخية وليست فروقاً تكوينية أساسها السلالة او الجنس . فالعقل الانساني لا يختلف من أمة الى أخرى مهما كان الفارق الاجتماعي والسياسي بينها كبيراً، إنما الاختلاف في الظروف المتاحة والفرص المتوفرة وأوضاع الحياة وملابساتها . فليس أبعد عن الحق من القول بأن طلب المعرفة لذات المعرفة مزية من مزايا العقل الآري عامة والشعب اليوناني خاصة ، وان الامم الاخرى التي لا تمت الى الآريين بصلة إنما تطلب العلم للمنفعة وتعنى بالمعرفة تبعاً لما تستفيد منه في معاشها ، وبالتالي من خطر الرأي وسوء القالة الزعم بأن العقل اليوناني يتركب في أصل الفطرة والطبع على غير التركيب الذي استقر في السلالات البشرية الأخرى . إنما العقل البشري واحد في اليونان وغير اليونان . فلا اختلاف هناك في أصل الفطرة والطبع بين عقل يوناني وعقل غير يوناني، وإنما يقع الاختلاف لأسباب تاريخية وحضارية تجوز على اليونان كما تجوز على غيرهم من الشعوب الأخرى ، شرقية كانت او غربية .



ومعنى ذلك انه لا اساس للقول بالمعجزة اليونانية ، فليس في الأمر معجزة او ظاهرة خارقة للعادة ، إنما هي ظروف سحبت لليونان في فترة من فترات

١ - نقل عن بليامين فارنتس : العلم الإغريقي ، الجزء الاول ، ص ٢٣ .

التاريخ لم تسنح لغيرهم ، وهي لم تسنح لهم إلا لفترة قصيرة جداً ليست شيئاً
مذكوراً في تاريخ اليونان الطويل لم تلبث بعدها العقلية اليونانية ان جف
نسفاً ونضب معينها فجمدت في مكانها لا تستطيع حراكاً .

ان القول بالمعجزة اليونانية وليد التعصب والهوى ، او على الأقل نتيجة
للكسل ولعدم الرغبة في مواجهة المشاكل . فارنست رينان (Ernest Renan)
وهو من اقطاب الفكر في القرن الماضي ، وقف مشدوهاً امام عبقرية اليونان ،
لكنه لم يشأ ان يחדش هذه العبقرية بإعادتها الي اسبابها الطبيعية فعمد الى
كلمة غامضة يُنفس بها عن فشله في تفسير ظهور العلم عند اليونان بعوامل
طبيعية معقولة ، هذه الكلمة هي المعجزة اليونانية .. وهو يعني ان المعجزات
اذا كانت من نوع ديني فإن معجزة اليونان إنما هي تأسيس العلم . ولقد ذاعت
عبارة رينان هذه في اوساط المؤلفين الغربيين الذين يشاطرونه الرأي ويمتقدون
مثله ان العلم عند اليونان لا يمكن رده الى اسباب وعوامل طبيعية بل يجب
رده الى عوامل خارقة للعادة من قبيل المعجزات التي ترد في الأديان .

لكن مقالة رينان قد مضى عهدها . فإذا كان لهذه المقالة بعض العذر في
القرن الماضي فما عذر من يأخذ بها اليوم بعد ان تقدمت الدراسات التاريخية
والنقدية ؟

اجل لقد بطل القول بالمعجزة اليونانية اليوم . فهذا مؤرخ كبير من
مؤرخي العلم احدث عهداً من رينان وأرسخ منه قدماً في تاريخ العلم هو جورج
سارطون الذي تحاشى الخطأ الذي وقع فيه رينان ورجال مدرسته . ففي رأيه
ان « من سذاجة الأطفال ان نفترض ان العلم قد بدأ في بلاد الاغريق . فإن
المعجزة اليونانية قد سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين
وغيرهما من الأقاليم ، والعم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً ... » (١) .

١ — جورج سارطون ، تاريخ العلم ، الجزء الاول ، ص ٢٠ — ٢١ (من الترجمة العربية) .

هذا ما استقرَّ عليه الرأي بين الباحثين الغربيين اليوم . وليس هو مجرد رأي شخصي لسارطون وحده وإنما هو يعبر عن اتجاه جديد بدأت تتخذها الدراسات الحديثة في تاريخ العلم والفكر . فليس في الامر معجزة اذن ، وإنما هي عوامل طبيعية من البيئة والعصر تأثر بها اليونان ، وعناصر شخصية من الاستعداد الفطري لا يد للسلاة او الجنس فيه ، إذ لا تخلو الامم والشعوب - مهما كان موضعها في سلم التطور والنضج السياسي والاجتماعي - من أفراد قلائل ، بل قلائل جداً ، على جانب كبير من الذكاء ، كما لا تخلو ايضاً ، وبنفس المقدار ، من افراد قلائل ، بل قلائل جداً ، على جانب كبير من الغباء . فالذكاء او الغباء هما قدر جميع الامم والشعوب ، فاذا ما تساوت في شيء فإنما تتساوى فيها ، ثم تأتي ظروف التاريخ والبيئة والحضارة فتطمس من المواهب ما تطمس - جهلاً او عمداً - وتُذكي منها ما تُذكي ، بالتربية السديدة والتوجيه المهني .

وعلى هذا يمكن تفسير امتياز الإغريق بالتأمل العقلي والبحث النظري اللذين أنجبا العلم والفلسفة بين ظهرانهم ، بموامل طبيعية عدة . أهمها اثنان :

١ - تحرُّر الإغريق - ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد تقريباً - من ضغط العقيدة الدينية ، وبتمتع أدق ، من نفوذ رجالها . فلقد نشأت بلاد اليونان وتطوَّرت دون ان ينشأ فيها كهانة قوية لها نفوذ واسع كذلك الذي كان يتمتع به رجال الدين في مصر وفارس والهند . وها هي ذي اوروبا نفسها لم تدخل التاريخ إلا بعد انتصار أحرار الفكر فيها على الكهانات القوية التي سحجرت على العقول وفرضت وصايتها على الفكر والعلم فلم تسمح بها إلا في حدود النصوص المقررة . وقد استطاعت الكهانة الأوروبية ان تفعل ذلك على حدائق عهدها نسبياً ، فما ظنك بالكهانات الشرقية القديمة ذات الجذور العميقة في التاريخ البعيد ؟

٢ - تحرُّر الإغريق من الملك العضوض ونفوذ الحكام . فكما تخلصوا من ضغط الكهانة فقد تخلصوا ايضاً من تحكُّم رجال السياسة وبتمتع أدق من انفرادهم بالسيطرة وإغراق المواطنين بالواجبات دون إعطائهم متسعاً من

الحقوق . فاذا كانت حكومة أثينا قد أثقلت كاهل الناس بالواجبات فأنها قد أعطتهم في مقابلة ذلك حقوقاً كثيرة قوت فيهم الشعور بالمسؤولية وعززت من شخصية الفرد وارتفعت عن التضحية بها في سبيل المصالح السياسية والأطباع العسكرية . لقد كانت هناك رقابة قوية على سلوك الحكام بحيث لم يكونوا ليقطعوا أمراً إلا بالرجوع الى مجلس الشيوخ ومناقشته على رؤوس الأشهاد . وما أضعف سلطة الدولة في بلاد اليونان في العصر الذي نتكلم عليه ظروف حياتهم الجغرافية والطبيعية ، إذ لم تكن تلك البلاد أكثر من حطام من الجزر وأشباه الجزر تتناثر هنا وهناك بين الشاطئ الاوروبي والشاطئ الآسيوي والأفريقي لا تتسع كبراًها لأكثر من بضعة آلاف من السكان وتضيق صغرها عن بضع عشرات . فلم يكن من السهل ربط هذه المتناثرات لمبعثرة في دولة قوية متماسكة . وقد نتج عن ذلك جميعاً أن الدولة لم تكن لتتدخل في حرية القول والعمل والفكر ، بل لم يسمعها ذلك لحسن حظ بلبيها وظروف الحياة فيها ما نرى .

فطبيعي بعد كل هذا ألا يذوب الأفراد في جهاز سياسي ضاغط يحكم فوق الصدور وألا يعيشوا أسرى للأطباع والنعرات ، فيشمر كل فرد حينئذ بالأمن والدعة والطمأنينة ويحتفظ بشخصيته واستقلاله بنفسه ، فينتفتح وعيه وينطلق تفكيره حراً من كل قيد ، فأعداء الفكر الضغط وكبت الحريات تمارسها سلطة غشوم دينية او زمنية .

فلبت شعري كيف لا يُذكي جو كهذا الجو الخصب الريان ، المواهب الكامنة في الأفراد والجماعات وكيف لا يطلق الامكانيات الزاخرة ما دام تركيب العقول وآلية التفكير والسليقة الفطرية متشابهة لا اختلاف فيها ولا تباين ، مها اتسعت مسافة الخلف بين الأمم والشعوب ؟

وعلى كل حال لم تعرف اليونان القديمة سيطرة الملوك ولا سيطرة الكهان ، فذهبت في حرية القول والفكر والعمل من جيل المذهب ما بزت به شعوب

العالم القديم قاطبة' ، وأقبل رجالها وقادة الرأي فيها على تراث الشعوب التي هي أعرق منهم في الحضارة وأرسخ قديماً، فاهتدوا يديه وسخروه لأغراضهم وانتفضوا به أيما انتفاع في تحقيق ذاتهم وتمتع وجودهم . لقد كان أداة للعمل في أيديهم وفرصة سايغة صنعت لقرائعهم ، ففجرتها وأورث نارها وملأت الأفاق بآياتها . ولا تزال حتى اليوم ننعم بخيراتها ، رغم توالي الأزمان وكر المصور والأدهار !

اجل لقد اقبل اليونان على اصول حضارة سبقتهم ينهلون منها ما وسعهم ان ينهلوا . إذ لم ينشئوها لإنشاء ، بل هي وليدة افكار سابقة مرتت بمراحل متعددة من التلاحق والتفاعل والتطور فتناولتها يد صنّاع وصهرتها بالتأمل والدرس حتى تمخضت عن تلك الزبدة في الفكر الإنساني الرائع ، ان ما ورثه اليونان من الحضارات أكبر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل المتلاف للخبرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت الى مدائنهم مع مغائم التجارة والحرب . فاذا درسنا الشرق الأدنى وعظمتنا شأنه فإننا بذلك نعارف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأميركية ، وهو دين كان يجب ان يؤدي منذ زمن بعيد (١) .

وبما هو عميق الدلالة في هذا الباب ان الاغارقة الاصليين في ارض اليونان وفي جزيرة اقريطش لم تكن لهم فلسفة ولا نبغ منهم حكماء متفلسفون ، وإنما نبغ من نبغ من فلاسفة اليونان لا في بلاد اليونان الاصلية ، بل في المستعمرات اليونانية الواقعة على الشواطئ الآسيوية او الجزر القريبة منها . ولم تنتقل الفلسفة الى اثينا إلا بعد ان قطعت في هذه المستعمرات شوطاً لا يستهان به . ومعنى ذلك ان اختلاط اليونان بالامم الشرقية ذوات الحضارة المريعة بالهجرة والمصاهرة والتجارة والفتح كان له فضل كبير في تنبيه اذهانهم

١. — ويل ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الثاني صفحة ١٠٠ .

الى البحث في اصل الوجود وعلل الأشياء ، وإلا لما ظهر الفلاسفة الأولون في اطراف تلك المستعمرات ، بل لظهروا في بلاد اليونان الاصلية .

يضاف الى ذلك انه لا اساس للقول بوجود شعب نقي خالص لم يمتزج بغيره من الشعوب ، ولا سيما اذا كان هذا الشعب يقع على خطوط المواصلات العالمية وفي منطقة تلتقي فيها حضارات متعددة كالشعب اليوناني . فالقول بوجود شعب يوناني خالص اسطورة يروج لها بعض^(١) الاوروبيين زوراً وغروراً . فمن الثابت اليوم ان الاغريق لم يكونوا شعباً تجمعهم وحدة الجنس والدم والتاريخ والعقيدة ، بل لقد كانوا قوماً مختلطي الاصول وشعباً متعددة ربطت بينها رابطة الجوار والمصالح والحروب . وعلى ذلك فإذا كان من غير الممكن اثبات السلالة اليونانية الخالصة للشعوب التي تناثرت بين آسيا الصغرى وتراقيا وجزر الارخبيل وأرض اليونان الاصلية وصقلية وجنوب ايطاليا وشمال افريقيا ، فكيف يمكن اثبات هذه السلالة لجميع الفلانقة الذين انحسرت جميع هذه المناطق في فترة قصيرة جداً من تاريخها الطويل ؟

وليس معنى هذا اننا نقلل من شأن العبقرية اليونانية . كلا . فالعبقرية اليونانية شيء ، ووم المعجزة اليونانية المبني على دعوى العنصرية شيء آخر . فإذا كان للعبقرية اليونانية اسبابها التاريخية والجغرافية والاقتصادية والحضارية فلا سبب للمعجزة اليونانية إلا أوهام العنصرية وخواصها الاسطورية التي لا تصمد للبحث العلمي المجرد ولا للدراسة الموضوعية النزمية .



والخلاصة ، لم ينبغ اليونان لمزية لهم في طبيعة التركيب وأصل الفطرة ، وإنما هي كما قلنا عوارض البيئة والتاريخ والحضارة أورثتهم حرصاً على الحرية في حياتهم الاقتصادية والسياسية وجعلتهم مرثي العقل والطبع سريري التهج

١ - وتشدد هنا على كلمة « بعض » لأن اكثر العلماء اليوم ليسوا على هذا الرأي .

والحساسية الى أقصى مدى مستطاع. وهذه الموارد نَجُوز على اليونان كما نَجُوز على غيرهم . فالسبب اذنت انما هو سبب حضاري بحت لا جنسي تكويني . فكل ما في الامر انه أُبيع لهم ما سُرِّم على غيرهم ، أُبيع لهم ان يفكروا بنأى عن كل ضغط او إكراه ، في وقت كان يُضيق فيه على الآخرين ويُخصى عليهم أنفاسهم . فجمد هؤلاء وانطلق اولئك لا يلون على شيء . فلا معنى اذن للفوص على اصول التركيب والتكوين . فلو لم يُتَح لليونان هذه الحرية الفضة ذات الحفلة ، ولو لم يُمكنَّ لهم في مذاهب الاستقلال في الرأي والفكرة اذن لما انتالت عليهم المعاني كالسماء المدرار ، ولما كانوا ملوك الرأي وأرباب الحكمة ، ولما كُتِب لهم الخلود على تطاول الزمان والمكان . ولو كان لأصول التكوين والتركيب بعض الخطر في حياة اليونان لما انقضى عصرهم الذهبي ولما غاض ما فاض من قرائعهم ، وبالنسالي لما اندرسوا كما اندرست أمم من قبلهم ومن بعدهم ولما تدهوروا في عصور الجود والإفقار . وحسبنا دليلا على ان اليونان كغيرهم من الأمم والشعوب انهم منذ القرون الأخيرة قبل الميلاد لم يظهر منهم فيلسوف واحد الى هذه الايام .

فلما الأيام دول ، وتلك عبرة وذكرى لكل معتبر

اطوار الفلسفة اليونانية

٢

يكاد يكون من الثابت اليوم ان العقلية اليونانية بدأت تفريق من سباتها العميق في ايونيا على شاطئ آسيا الصغرى في القرن السادس قبل الميلاد، وأن الايونيين هم الذين بدأوا يرتادون البحار ويؤسسون المستعمرات ويرقون الفنون ويمشون تلك الحياة الكاملة الحرة التي اصبحت من خصائص الاغريق . ففي ايونيا استمرت الثقافة المينوية القديمة باقية تتركاً ، وفي ايونيا كان الاتصال المباشر بحضارات الشرق العريق . وفي ايونيا ايضاً وُلد اول شاعر من شعراء المأساة الاغريق : هوميروس ، صاحب الإلياذة والأوديسة ، إنجيل اليونان القدماء .

فمن الطبيعي اذن ان تكون ايونيا مهبط الوحي ينثال على مفكرها وأرباب الرأي فيها ، ومن الطبيعي ان تقود الحركة الفلسفية العظيمة في بلاد اليونان قاطبة وأن تحمل المشعل الذي سيضيء الآفاق .

واذا كان التفكير الفلسفي قد نشأ في ايونيا فانه قد نما وترعرع في صقلية وجنوب ايطاليا . لكنه لم يرقَ الى مرتبة الفلسفة الحقيقية إلا في اثينا حيث بلغ غاية مداه في فترة قصيرة نسبياً ليست شيئاً في أعمار الأمم ، ولكنها على

فصرها كانت فترة وضاءة فذة في تاريخ اليونان . فالأعمار انما تقاس بالآثر والأعمال ، لا بطي السنين والأزمان . فقد انتج اليونان في هذه الفترة القصيرة أعمالاً فنية وعقلية وأدبية رائعة ، وأورثوا الانسانية ذخيرة من العلم والحكمة لا تزال حتى اليوم نطلب رفدها وتتغذى بلبانها .

وكان القرن الرابع قبل الميلاد هو العصر الذهبي لهذه الذخيرة ، فهو العصر الذي وصلت فيه الأمة اليونانية الى اقصى ما كان يمكن ان تصل اليه من مجد سيامي وعلمي وأدبي . وكان لذلك كله بالطبع أثر ظاهر عظيم الخطر في حياة من شاهده من الناس ، لا سيما اذا كان له قلب ذكي وعقل راجح وبصيرة نافذة وطبيعة جيدة قيّمة كسقراط وأفلاطون وأرسطو .

لكن اثينا التي اشرفت ذلك الاشراق الباهر وكانت حاضرة العلم والفكر والأدب ومنزل عرائس الشعر وآلهة الحكمة - لكن اثينا هذه لم تلبث ان امتزجت بامراض الضعف والهزال ، فرانت عليها غاشية الجود والتحجر وأصابها ما يصيب الشعوب كلما خارت العزائم وضعفت الهمم . ومضت اثينا وبلاد اليونان قاطبة تقط في نوم عميق لا يبدو انها اوشكت ان تستفيق منه . وعلى ذلك فقد مرت الفلسفة اليونانية بثلاثة اطوار :

(١) طور النشوء والنمو (٢) طور النضج (٣) طور الجود والانحطاط .

ففي الطور الاول نشأت الفلسفة اليونانية وتمت وعمرعت ، وكان ذلك قبل سقراط . ولذلك تسمى هذه الفلسفة « فلسفة ما قبل سقراط » .

وفي الطور الثاني بلغت هذه الفلسفة اقصى ذروتها وغاية مداها ، ويمتد هذا الطور من سقراط حتى ارسطو .

وفي الطور الثالث والاخير اخذت في التدهور والذبول ، ويمتد هذا الطور حتى بدء القرون الوسطى .

وسندرس هذه الاطوار على التوالي حسب اهميتها بالنسبة الى الفلسفة الاسلامية .

الفلسفة قبل مقراط

استهلت الفلسفة اليونانية فجر حياتها بالبحث في أصل الكون وطبيعته ؛ وكان ذلك امتداداً طبيعياً لشغف شعراء المأساة الاغريق الذين كانت لهم شطحات اسطورية خصبة في تفسير نشأة الكون وعلاقته بالآلهة ^(١) . لكنها شطحات لا تتجاوز مع ذلك من الإيمان بشيء من القانون يحكم سير الحوادث ويضبط نظام الأشياء . مما جعل هوايتهد (Whitehead) يطلق على شعراء المأساة هؤلاء لا اسم « الفلاسفة الاوائل » كما يسمون في العادة ، بل اسم « المؤسسين الحقيقيين للتفكير العلمي » .

وأول فيلسوف بحث في أصل الكون وطبيعته هو طاليس الملطي (Thalès de Milet) (المتوفى حوالي سنة ٥٤٧ ق. م.) الذي قال ان الماء هو أصل كل شيء . وليس المهم في ذلك رده الأشياء الى الماء ، إنما المهم انه :
١ - كان أول من عبّر عن افكاره بعبارات منطقية معقولة . فهو لم يفسر الكون بالخرافات والأساطير ، ولا بالقوى الخفية وقوى الآلهة بل على أساس عقلي علمي معقل ، يرتبط فيه المعلوم بالعله ارتباطاً وثيقاً .

١ - كما هو الحال عند هزود مثلاً .

٢ - كان اول من أرجع الكون كله الى عنصر واحد. فلقد رأى من خلال تعدد صور الاشياء وتباينها وحدة شاملة تكن وراءها ، اليها ترد جميع الأشياء ، وعنها صدرت . فتعدد الأشياء الظاهر للحس امر سطحي لا قيمة له ، إنما المهم ما يكن وراءه . ان طاليس لا يهتم بتنوع الكائنات والأشياء ، إنما يعنيه الفوص على الحقيقة البسيطة الواحدة التي تضرب في الأعماق ، دون نظر الى ما يبدو للحس الظاهر .

وسواء فشلت محاولته هذه ام لم تفشل فهي المحاولة الفلسفية الاولى التي تنظر الى الكون نظرة كلية شاملة وتضع له تفسيراً واحداً يستوعب جميع جزئياته .

وليس يهنا بعد ذلك كثيراً قوله ان كل الأشياء كانت في الأصل ماء ، او قول انكسمندريس (Anaximandre) (المتوفى حوالي سنة ٥٤٧ ق. م .) تلميذه من بعده بأن الأصل هو اللامحدود او اللامتناهي ، او قول انكسيمنس (Anaximène) (المتوفى حوالي سنة ٥٨٠ ق. م .) بأنه الهواء ؛ او قول اكزينوفانوس (Xenophane) (المتوفى حوالي سنة ٤٨٠ ق. م .) انه التراب ؛ او قول هيراقليطس (Héraclite) (المتوفى سنة ٤٧٥ ق. م .) انه النار ؛ او قول امبيدوقليس (Empédocle) (المتوفى حوالي سنة ٤٣٥ ق. م .) انه هذه العناصر الاربعة جميعاً ، او قول برميندس (Parménide) (المتوفى سنة ٤٥٠ ق. م) انه الوجود ، او قول ديمقريطس (Démocrite) (من رجال القرن الخامس ق. م .) ولوقيبوس (Laucippe) (من رجال القرن الخامس ق. م .) انه الذرات ؛ او قول انكساغوراس (Anaxagore) (المتوفى سنة ٤٢٨ ق. م .) انه عدد لا نهاية له من العناصر او البذور يحركها عقل رشيد حكيم بصير الخ .

اجل ان كل هذه الاقوال لا تهنا ، إنما يهنا منها انها جميعاً لم تقم إلا على اساس من التفكير العقلي المجرد وانها قد نظرت الى العالم في إطار من الكلية

الشاملة واستوعبته في فكرة واحدة او افكار قليلة ، فأذايت الفوارق بين الاشياء وتجاهلت ما بينها من اختلاف وتنوع وربطتها بشبكة من العلاقات جعلتها شيئاً واحداً بعد ان كانت اشتاتاً مبعثرة .



وبلاحظ على هذه الفلسفات جميعاً انها كانت متجهة نحو العالم الخارجي ، عالم الارض والسماء وسعة الأفلاك . وأما العالم الداخلي ، عالم الذات الذي هو مصدر الاخلاق وموطنها ، وأما العقل الذي هو مصدر المعرفة ومستقرها ، فقد كانت الفلسفة اليونانية آنذاك لا تزال بعيدة عنها ، قاصرة عن النفوذ اليها واستيعابها . فان البحث في الطبيعة أقرب منسلاً من البحث في الذات وأيسر وصولاً ، لأن كل ما يتطلبه انما هو إلقاء شعاع الفكر على الاشياء وتقليبه فيها واستخلاص بعض النتائج منها . اما ان يرتد الفكر على نفسه يتأملها ويعن النظر فيها فهذه مرحلة اخرى تتطلب مجهوداً أكبر ، وذلك لأن الفكر فيها يخرج من رتبة ذاته ، لا ليراقب الاشياء ويدرسها عن كنب ، بل ليراقب ذاته ويهتك أستارها وينفذ الى أعماقها .

ثم ان عالم الطبيعة عالمٌ حوّل قلب لا استقرار فيه ولا ثبات ، فلاحظته سهلة ، وتتبع أفاعيله امر ميسور . وأما عالم الذات فهو اكثر استقراراً وأشدّ تماسكاً ، فليست تطراً عليه تغيرات ظاهرة يمكن تعقبها بالنظرة القريبة والتفحص المباشر ، ثم تأتي قوة العادات والتقاليد فتزيده استقراراً الى استقراره وتشدّ تماسكه ، فاذا هو أمتع على التغير ، وبالتالي أعصى على الملاحظة .

وأخيراً ان عالم الذات هو أداتنا الوحيدة للوصول الى عالم الاشياء . فالبدء بدراسة الأداة قبل دراسة الاشياء من شأنه ان يعطل دراسة الاشياء ويخلّ في فهمها ، ويقلب الأوضاع فيها رأساً على عقب .

كل اولئك يفسر لنا سبب بدء الفلاسفة السابقين على سقراط بدراسة العالم الطبيعي أولاً . ثم لما حصلت اليونان ثروة لا يُستهان بها من المعرفة بالعالم

الطبيعي ، انتقل محور الدراسة بعد ذلك الى الانسان . وهذا ما مهّد له السوفسطائيون وتمّ على يد سقراط ، ثم استخلص كل نتائج افلاطون وأرسطو .

فالفلسفات السابقة على سقراط بعد ان بحثت العالم الخارجي من جوانبه المتعددة وتناولته في مظاهره المختلفة حتى استنفدت كل امكانياته وأحواله ولم يبقَ في جعبتها شيء نقوله فيه ؛ ونتيجة لتغير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت الحياة في أثينا - منذ النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد^(١) - فقد حدثت ازمة في الفكر والحياة أطاحت بكثير من المعايير ، وتعرضت القيم الاخلاقية والقوانين السياسية لمصافة شديدة من النقد اللاذع والمعارضة القوية أهابا بالانسان الى ان يفحص أفكاره من جديد ويعيد النظر في قيمه الاخلاقية والروحية ويراجع الأسس التي تقوم عليها الدولة وقوانين الدولة .

وأعظم من يعبر عن هذه الازمة طائفة السوفسطائيين ، كما ان أعظم من صمد لها معاصريهم سقراط .

فهم يقولون ان العالم مشكل ، والطريق الى فهمه متعسر ، والآراء فيه متضاربة ، والعقول حوله متنازعة ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، فلا بد من بذور بذور الشك فيها جميعاً . فلا حقيقة إلا الانسان وكل ما عداه فإنما هو باطل وسخايع . وهكذا تحول السوفسطائيون عن الفلسفات الطبيعية الى دراسة الانسان لعلمهم يحيدون فيه غنى وكفاية ، وانتقلت مشكلة الفكر اليوناني من عالم الطبيعة الى عالم الانسان . فالعالم الخارجي لا يكفي وحده

١ - انتصار الديمقراطية في أثينا؛ تحول حكومة أثينا الى امبراطورية كبرى بعد انتصاراتها الجيدة على الدرس؛ توسع في التجارة وازدهار في الصناعة؛ انتشار الأمن وكثرة أوقات الفراغ؛ مما أدى الى التخصص العلمي واصطناع مناهج البحث العقلي والاعتماد على الملاحظة والتجربة في كثير من ابواب المعرفة الانسانية .

لدراسة الحقيقة ، وإنما يجب ان ينضم اليه ايضاً عالم الذات الذي له نصيب كبير في تكييف الظواهر . ذلك ان الحواس - وهي سبيلنا الى المعرفة - متغيرة ابداً لا تثبت على حال واحدة . ثم هي تختلف باختلاف الافراد كما تتأثر بالمحسوسات التي هي ايضاً في تغير دائم ، فتجني احكامها على الشيء الواحد متبينة بتباين أحوال الزمان والمكان والبيئة والصحة والمرض والثقافة العقلية والاجتماعية ، بل ربما تعارضت هذه الاحكام وتقابلت . واذا تقرر هذا فنبشأ الوصول الى حقيقة ثابتة .

وأعظم من يمثل هذا الاتجاه الانساني الجديد في الفلسفة اليونانية هو بروتاغوراس (Protagoras) (المتوفى سنة ٤١١ ق.م.) في عبارته المشهورة : « الانسان هو مقياس كل شيء » . فليست الاشياء مقياس ذاتها ، وإنما مقياسها هو الانسان ، بمعنى ان مقياس الاشياء والسلوك ليست مطلقة مستقلة عن الانسان ، وإنما هي نسبة متغيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان وظروف البيئة والتربية والمستوى العقلي والاجتماعي .

ان هذه الخطوة الجديدة التي خطتها الفلسفة اليونانية كانت خطوة كبيرة جداً وهامة جداً . فهي التي نقلت الفلسفة اليونانية من السطحية الى العمق ، ومن البساطة الى التعقيد ، ومن محيط الدائرة الى مركزها . فبهذه الخطوة الجبارة اصبح الانسان في صميم الاشياء بعد ان كان بعيداً عنها . انها الخطوة التي ظلت الفلسفة تترقبها طويلاً حتى خطاها (كمنط) في فلسفته النقدية في العصر الحديث . فأعظيم بها من نقلة قام بها السوفسطائيون قبل المسيح بعدة قرون !

وهكذا فالسوفسطائية رغم كل ما يقال فيها ، فلسفة ايجابية بناءة . انها ثورة على السلبية وطريقة التفلسف الساذج التي تجعل من الانسان مجرد كائن متفرج شبه مجهز للتسجيل لا دخل له فيما يجري خارجه من أحداث ولا مشاركة له في تكييف الظواهر . وما قدر القدماء هذه الحركة حق قدرها لأنهم لم يفهموها ولم يدركوا المعنى العميق الذي ترمز اليه ، بل سارعوا الى

ضربها في المهد قبل ان يستفعل خطرهما . فرأينا عملاقاً كبيراً كسقراط او افلاطون يجعل وكده وغاية جهده مهاجمتها والرد عليها كما هوجم كوبرنيقوس لاشيء إلا لأنه عرف الحق فجهر به ولم يحفل بأراجيف بادي الرأي المشترك ودعاوى الخروج على المألوف . انها دعوة طليعية جريئة حقاً لم تسلم من بعض المخاطر : فكل غصاى له مخاطره . لذلك حق لكثير من مؤرخي الفلسفة المحدثين ان يقرنوا بين عصر السوفسطائيين وحال اوروبا في القرن الثامن عشر عندما تغيرت معالم الحياة فيها بعد الثورة الصناعية الجديدة التي نتج عنها مشاكل ومعضلات ظلت تشغل فلاسفة ذلك العصر المعروفين بفلاسفة التنوير .

وعلى كل حال ان السوفسطائيين هم الذين ايقظوا العقل من سباته العقائدي وانتصروا لاستقلال الفرد واحترام شخصيته وحمايته من تدخل الحكومة والجماعة معاً .

ولئن اثاروا من المشاكل اكثر مما قدموا من الحلول فلأنهم قد مهدوا بذلك السبيل الى ايجاد مثل راسخة في تفكير الانسان ووجدانه وساوكة . وحسبهم فغراً أنهم قد انجبوا سقراط .



ولقد افادت الفلسفة كثيراً من هذه المحاولات جميعاً ، طبيعية كانت او انسانية ، تلك المحاولات التي تحررت من أي تصوف ديني كان من المعقول ان نتوقعه من مفكرين قد استخدم كل اسلافهم عبارات اسطورية للتعبير عن انفسهم ، اللهم إلا اذا استثنينا مدرسة الفيشاغوريين التي يكتنفها غموض شديد . فهي على الرغم من نزعتها الصوفية الواضحة إلا انها تلح على فكرة العدد والتناسق والنظام والوحدة ، وبالتالي على ان القانون والرياضة هما منطق الاشياء ، وان الطريق الى الحق إنما يمر بالعقل لا بالحواس .

وواضح ان هذا الاتجاه الجديد الذي يحدد التفكير اليوناني قبل سقراط في إطار واضح المعالم ظاهراً القسماً إنما يعكس في الواقع أيضاً خصائص الروح

المومرية التي قدمت في الالباذة منذ القرن التاسع قبل الميلاد عالماً من الآلهة
الاولمبية والكائنات المبتافيزيقية التي تتجلى فيها - رغم طابعها الاسطوري -
سمات التناسق والائتلاف وتسيطر عليها روح البساطة والوحدة .

وتوالى الفلاسفة ، فاكسب التفكير دقة وازداد نضجاً وعمقاً وشمولاً .
وكأنما رفع العقل البشري اطراف اقدمه من قاع البحر وجعل يتطلع حوله
ويعوم بثقة مدهشة .

وهكذا اخذ وعي الانسان يتفتح ويتجمع حول موضوعات معينة ،
وبذلك ارتفع صرح الفلسفة وبرز لها كيان مستقل كامل وكان من اعظم
ثمرات هذه الحركة ثلاثة فلاسفة من اعظم فلاسفة العالم القديم والحديث على
الاطلاق هم سقراط وأفلاطون وأرسطو .

فلنتحدث عن كل واحد منهم على حدة .



٤

سقراط

(٤٦٩ ق.م - ٣٩٩ ق.م)

١ - حياته

جاء سقراط في غمرة تأرجح الفكر اليوناني بين الإنسان والطبيعة وعندما كان الصراع على أشده بين الذات والموضوع .

وكان العصر الذي فيه سقراط من أزهى عصور أثينا وأكثر خصباً . فان انتصار اليونان على الفرس في حريين متتاليتين قد بث فيها روحاً جديدة . لقد كان انتصاراً مدهشاً حقاً أنقذها من خطر « البرابرة » ، فانتفضت تلك الانتفاضة الرائعة التي لم تستطع حروب البالوبونيز (Péloponnèse) الطويلة بين اسبرطة وأثينا (من ٤٣١ ق.م - ٤٠٤ ق.م) ان تتألم منها رغم انها انتهت بتدمير أثينا . بل على العكس ان هذه المدينة التي أنقذتها الجراح لم تفقد الأمل فتطلعت الى التوفيق بين طبيعة وضعها وبين أهداف كانت تفوقها . وسرعان ما نهضت من كبوتها تؤكد أصالتها السياسية والفكرية . وافتتح امامها ميدان واسع للسياسة والتجارة ، ميدان التحول الى مملكة بحرية . ودخلت الديموقراطية بواسطة بريكليس (Périclès) (٤٩٩ ق.م - ٤٢٩ ق.م) ودخلت معها عادة تقديس العقل والفن والقانون . فقدت أثينا حاضرة العلم

والفكر والأدب، تمرّكزت فيها الفلسفة وفيها انصبّت عصارة ما تمخضت عنه الحركة العقلية من لدن نشأتها في ايونيا حتى بلغت صقلية وجنوب ايطاليا .

لقد كان في أثينا فتانون برهفون النفوس بفهم ، وكان فيها شعراء يسّون شغاف القلوب بقصصهم وأساطيرهم ، وكان فيها رجال دين يقيمون الشعائر والطقوس ، وكان فيها ساسة يحسنون قيادتها ويسدّدون خطاها ، وكان فيها سوفسطائيون يشككون الناس ويوقظونهم من غاشية التقليد والجمود ويعلمونهم الخطابة وأساليب البيان . لقد كان فيها كل هؤلاء عندما جاء سقراط لينضم الى هذه الجوقة وينسق العمل معها، فيعزف الجميع على قيثارة واحدة سمفونية العبقورية اليونانية ويتغنوا بعظمة أثينا !

وهكذا فكأنما جاء سقراط على موعد مع الأحداث .

٢ - مصادر معرفتنا بسقراط

ان سقراط لم يكتب شيئاً نستبين منه مذهب كما يعرضه هو بنفسه . « فالعلم في الصدور لا في السطور » هذا هو الشعار الذي كان يدين به طوال حياته . فاذا لم يترك اثرأ مكتوباً فما هي مصادرنا عنه ؟

هناك اربعة مصادر تتفاوت في قيمتها : ارسطوفان واكرزيفون وأفلاطون وأرسطو .

الاول شاعر هزلي كتب مسرحية « السحب » (Les Nuées) يسخر فيها من سقراط . فهو يصوّره فيها يقيس قفزات البراعيث ويتمثله جالساً في سلة معلقة في الهواء يناجي السحب والغيوم ويتوجه اليها بالعبادة من دون آلهة المدينة ويحد فيها ملاذه الاخير ، ملاذ اصحاب الخيال . ويعزو اليه القول بأن الهواء مبدأ الاشياء ، كما يتهمه بالكفر وإفساد عقول الشباب . فهو اذن خصم لسقراط لا يمكن الاطمئنان اليه .

وأما الثاني ، اكرزيفون ، فانه رغم دفاعه عن سقراط وتبرئته من اتهام

ارسطوفان له ، فقد كان كاتباً سطحياً تافهاً لم يستطع فهم استاذاه إذ لم تكن له عقلية فلسفية ممتازة ترقى الى مستواه . لا سيما وأنه كان صغير السن حينما كان سقراط شيخاً كبيراً طاعناً في السن . أضف الى ذلك انه غادر اثينا قبل اعدام سقراط بثلاثة اعوام . فلا يمكن اذن قبول مذكراته (Memorabilia) عن سقراط إلا بحذر شديد . فهو مدافع اكثر منه راوياً .

والمعضلة الكبرى هي المصدر الثالث: افلاطون في محاوراته . فالمحاورات التي يجرى فيها افلاطون على لسان سقراط ، عن آراء "من" هي "معتبر" : سقراط ام افلاطون ؟ هل هي آراء سقراط حقيقة ؟ ام هي آراء افلاطون أجراها على لسان استاذاه ؟ فان كانت هي آراء سقراط حقيقة ؟ فماذا أبقينا لأفلاطون ؟ وابن هي شخصيته ؟ وإن كانت آراء افلاطون ؛ فما وجه نسبتها الى سقراط ؟

هنا يتدخل المصدر الرابع والأخير لبيد بعض الظلام الذي يكتنف هذه المسألة . فرواية ارسطو قرينة تساعد كثيراً على تبين آراء كل منها وتمييزها عن آراء الآخر . فإذا انضمت اليها قرائن اخرى فقد حصل الكمال . فكلما اتفقت رواية افلاطون مع رواية ارسطو ثم انضم اليها مصدر ثالث كان ذلك ادعى للثقة وأعوان على استخلاص مذهب سقراط الحقيقي كاملاً .

هذا ويعتقد ارسطو ان الآراء المنسوبة الى سقراط في محاورته (بروتاغوراس) هي آراؤه حقاً . وقد كشفت حديثاً هتامات من كتاب عن ألبينادس (Alcibiade) كتبها اسكينز الاسفتوزي (Aeschines of Sphetos) احد تلاميذ سقراط نفسه ترجح تأييد الصورة التي رسمها له افلاطون في المحاورات الاولى^(١) . غير ان ارسطوطاليس من جهة اخرى يعدّ " الذكريات " (Memorabilia) و " المائدة " (La Banquet) من القصص الموضوعية ، اي الاحاديث الخيالية التي يردد سقراط في اكثرها آراء اكرينوفون نفسه^(٢) .

١ - نقل عن ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثاني من المجلد الثاني ، ص ٢٢٣ .

وعلى كل حال لا بدّ من مقارنة المصادر ومعارضتها بعضها ببعض وقبول ما ينعقد عليه الإجماع - أو شبه الإجماع - فيها . وليس ذلك بالأمر السهل .

٣ - منهج سقراط

ان أهم شيء أتى به سقراط هو المنهج ، حتى ليعتقد البعض ان سقراط لم يكن صاحب مذهب معين وإنما هو صاحب منهج . وربما كان الأصح ان يقال ان مذهبه وليد منهجه . لقد كان منهجه الحوار الاستنباطي القائم على التهم والتوليد وذلك من اجل الوصول الى تحديد الماهيات . ولهذا يعزو اليه ارسطو انه صاحب الحد الكلي ومنهج الاستقراء ، وهو الانتقال من المحسوس الى المعقول ، ومن صغار الاشياء الى كبارها للوصول الى المعنى الكلي او الماهية . هذا هو مذهب سقراط ، او ما يسمى فلسفته التصورية (Conceptualisme) ومعناها انه لا يكفي لمعرفة شيء ما الاقتصار على وجوده المحسوس ، بل لا بدّ من معرفة ماهيته المعقولة والوصول الى حده الكلي . فالمعرفة بالجزئيات إنما هي معرفة ناقصة لا تغني عن الحق شيئاً ، أما الذي يغني حقاً فهو المعنى الكلي والمعرفة الكلية . فالمعنى الكلي هو الأصل وبدونه لا تكون معرفة حقيقية . هذا هو مذهب سقراط في المعرفة وهذه هي فلسفته . فالمعرفة الحقيقية إنما هي معرفة الماهيات ، والعلم يجب ان يقوم على إدراك واضح للماهيات . وهكذا يكون سقراط قد نقل مركز الثقل في المعرفة من معرفة الاشياء والجزئيات الى معرفة الماهيات والكليات . وهذه النقطة لها منهج جديد من شأنه ان ينظر الى الاشياء في ماهياتها وفي نسبة الماهيات بعضها الى بعض . ويسمى المنهج الجديد باسم « الديالكتيك » . فالمنهج الجديد منهج ديالكتيكي بمعنى انه يبحث في صلة الاجناس والانواع بعضها بالنسبة الى بعض من اجل الوصول الى تحديد صحيح لماهيات الاشياء ومعرفة الماهيات الحقيقية التي هي العلم بمعناه الصحيح . فلسفة سقراط إذن منهج ومذهب ، وهذا هو معنى قولنا ان مذهب سقراط وليد منهجه . وسنتكلم على كل منها .

وأهم خطوات هذا المنهج هو التوليد . إذ يعتقد سقراط انه اذا كان الانسان غير مدرك للعلم الصحيح فلأن فيه مع ذلك حقائق كامنة يستطيع الانسان ان يستخلصها من نفوس الآخرين . فهي حقائق لا يدري الانسان بها ولكنها على كل حال كامنة في نفسه ، ووسيلة استخراجها منها إنما هو الحوار .

ونجد امثلة واضحة لاستعمال هذا المنهج في محاورات افلاطون المبكرة او ما يسمى بالمحاورات السقراطية ، مثل محاوره لاثينس وليريس وأوطيفرون الخ . فكان سقراط يبدأ حواراه بتصنع الجهل والتظاهر بالتسليم بأقوال من يحاوره ، بل يزعم انه إنما جاء يتلقى العلم عنه . ثم يطرح عليه سؤالاً كمن يطلب العلم ويتوخى الاستفادة . وما ان يتلقى الجواب حتى ينتقل منه الى نتيجة غريبة لازمة عنه لم تخطر ببال محدثه ، فيقر هذا المسكين بجهله او يروغ ليفلت من الحيرة والإضطراب او الوقوع في التناقض ، لكن سرعان ما يرده سقراط الى موضوع المناقشة حتى يحمله على الإقرار بالجهل ، فتريسد حجته ضعفاً ومنطقه اضطراباً وتناقضاً . وهكذا يفرغ معه سقراط من نتيجة الى نتيجة ويزج به من جهل الى جهل آخذاً بتلابيبه يفحمه بالحق حتى لا يبقى في القوس منزع ... فإذا كان المتحاور 'يحسن بأن مكانته تنهاوى امام الحاضرين، فان هؤلاء كانوا يشعرون — على العكس من ذلك ، وبفضل مقدرة سقراط على توجيه الحوار — أنهم قد ارتفعوا الى مستواه فأدركوا ما كان يفوتهم من قبل واطلعوا على اشياء لم تكن تخطر لهم على بال . فالحوار يفتح الاذهان على حقائق جديدة لم تكن بالحسبان .

ولشد ما كان ادعاء العلم والمعرفة يتميزون غيظاً من هذا الحوار السقراطي الذي كانوا هدفًا سهلاً له . فقد أنزلهم من صياصيمهم ومرغ كبريائهم في التراب وأظهر غرورهم وجهلهم فزادهم خيالاً . وهنا يعدّ سقراط نفسه انه قد نجح في انتزاع الاباطيل من اذهانهم مهما حنقوا عليه ومهما ثارت فائزتهم . هذه هي غايته الانسانية من سخريته اللاذعة التي كان 'يُصلي بها

خصوصه ناراً حامية ، لا عن خبث وضعينة بل ليزيل الغشاوة عن عيونهم ، وليدلهم على مواضع الخطأ في تفكيرهم ، ويحثهم على تحري الحقائق وطلب المعرفة الصحيحة . أجل انه انما يفعل ذلك ابتغاء تعليمهم والوصول بهم الى محبة الهدى وإرشادهم الى سواء السبيل .

فهو يرى ان السخرية هي التي تعرّينا امام انفسنا وتكشف لنا اخطائنا وتزيل عنا غاشية الغرور وتعدّ عقولنا لقبول المعرفة . ولو لم يكن في هذه السخرية البناء إلا إثارة التفكير في الآخرين ، فناهيك بها نفعاً . انها امضى سلاح للقضاء على الأباطيل والأضاليل والأوهام . هذا ما يعرف بالسخرية السقراطية . فاذا نال بغيته بها بدأت المرحلة الثانية من الحوار حيث يلقي الاسئلة تباعاً في ترتيب منطقي مقصود يجعل من الميسور الانتهاء الى الحقائق التي يريد الوصول اليها . فاذا حاورهم فيما اراد أن يعلموا من القيم الجميلة مثلاً قاد الحوار بدقته ونصب لهم الفخاخ في المنطق . وكذلك يفعل في كل ما يريد ان يتعلموا . وبذلك يصلون الى الحقيقة التي اقرروا انها يحلوها ، فاذا بهم ينتهون اليها من حيث لا يشعرون ويحسبون انهم قد اكتشفوها بأنفسهم . هذا هو لبّ 'لباب المنهج السقراطي' وهو ما يسميه بالتوليد ، اي مساعدة الناس على ان يستخرجوا الحقائق بأنفسهم .

وكان في منهجه هذا يحرص اشد الحرص على تحديد الالفاظ والمعاني التي تحتويها ، خلافاً لأدعياء العلم الذين كان عدم التحديد يتيح لهم الفرصة للانحراف في المغالطة والتشكيك في الحقائق .

كان الحوار يبدأ بالسؤال عن اشياء تبدو تافهة يعرفها الجميع . فهو يسأل مثلاً عن معنى الخير او الشر ، او الصدق او الكذب ، او العدل او الظلم ، او الشجاعة او الجبن ، او التقوى او الإلحاد ... الخ . ورغم انه يرهق محدثه بالأسئلة ويبلغ به غاية المطاف في تحديد الالفاظ والمعاني

وتحليلها الى اقصى ما يسهل التحليل ، إلا انه كان لا يتعدى حدود هذا التحليل . ولذلك فان الحوار كان لا ينتهي الى نتيجة معينة . فحسبه انه نبّه الأذهان الى ضرورة التزام الدقة في اختيار الالفاظ والى ان المعاني موجودة في النفس فلا سبيل الى استخراجها منها وتوليدها إلا بالحوار ، اي باحتكاك العقول والأذهان . فالعلم انما يثبت بين اثنين ، كما يقول القدماء .

لذلك فقد شنع عليه أعداؤه وقال شائثوه انه يهدم ولا يبني ، ويرفض ولا يحيي بشيء من عنده ، بل يكتفي بطرح الأسئلة تبعاً والاعتراض على الأجوبة التي توضع لها دون ان يدلي بتعريف سليم من الاعتراض او يصل الى نتيجة معينة يقطع بها دابر الشك .

والحق ان سقراط كان مثالا للمواطن الصالح الذي يريد ان يرقى بأمنه الى حيث يرجو لها من خير ومعرفة . فهو انسان صادق كان يسير بين مواطنيه سيرة نقيّة صالحة ، فارتفع عن الصغائر وتزوّج عن الشر ، لم يؤذ احدًا بل لقد أحسن الى الناس جميعاً بما قدّم اليهم من نصيح وبما أورثهم من هدى . وهو فضلاً عن ذلك فيلسوف عميق بعيد النظر . انه من اولئك الأفذاذ الذين يفاخر بهم الفكر العالمي على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت حظوظ هذه الاجيال من الحضارة ورفق الشعور . فالتخريب ليس من طبعه ، والتشكيك الهدام لا يستقيم مع سمو نفسه ومعدن الخير الذي قدّست منه روحه .

ان رجلاً كهذا لا يمكن ان يكون ممّ إفحام الخصم والنجاح في قراع الالفاظ ومعرفة الكلام . فنفسه الرفيعة لا تشفّ عن شيء من هذا ولم يؤثر عنه انه أراد بأحد سوءاً . ولئن كان لا ينتهي في حوارهِ الى نتيجة ما ، فما ذلك إلا لأنه ظلّ طوال حياته يقرّ على نفسه بالجهل ويعترف امام القاصي والداني انه لا يدري شيئاً ، فحسبه صدق المحاولة وبذل الجهد لتحديد الالفاظ وإزالة ما بها من غموض ، حتى لا يطمع

الذي في قلبه مرض ويسدر في غيّه كل من يتجر بأشتراك الالفاظ او ايهام المعاني . وعندما سأل سائل كاهنة معبد دلفي عن عسى ان يكون اكثر رجال أثينا علماً وحكمة ، قالت انه ليس هناك من هو اكثر حكمة من سقراط . وقد فسر سقراط هذه النبوءة بأنه امرؤ لا يعرف شيئاً ويجهل في ذلك على رؤوس الاشهاد ، وان الفرق بينه وبين أدهياء العلم ان هؤلاء إنما يعرفون بما لا يعرفون ، اما هو فان ميزته عنهم انه لا يعرف ويعرف انه لا يعرف . وانه لفرق لو تعلمون عظيم !

٤ - الحدّ الكلي

وهكذا أغرى سقراط تلاميذه باختبار الافكار الشعبية بمنطق العقل وحضهم على عدم الاستجابة لرأي الكثرة وإملاء السلطة عند اصدار الاحكام وتقويم الامور . فالرأي العام لا يصلح ان يكون محكاً للحقيقة ، والعرف الشائع لا ينبغي ان يتخذ دليلاً على حجة رأي او بطلان فكرة . فبالعقل — وبالعقل وحده — إنما تُتمحص الآراء والافكار وتُحلّل العقائد . وبذلك يعبر سقراط عن الروح اليونانية أصدق تعبير . فالروح اليونانية روح استطاعت ان تكتشف الحقيقة اكتشافاً عقلياً ، او على الأقل تحاول الوصول اليها بواسطة العقل وتفرض كل وسيلة اخرى غير عقلية للوصول اليها ، على اساس ان الفلسفة ليست مذاهب تُنتحلل او أقوالاً تُردّد ، وإنما هي طريقة يستطيع بها الانسان ان يستخدم عقله على الوجه الصحيح .

ومعنى هذا ان العقل هو سبيل المعرفة لا الحس ، فإن الحواس تختلف باختلاف الافراد بل باختلاف الحالات في الفرد الواحد . وأما العقل — وبتميز أدق ، معاييرهِ الثابتة — فهو عام في الناس جميعاً . فلا يكفي — كما قلنا مراراً ولا نخلّ ان نقول — لمعرفة شيء ما ان تقتصر على وجوده الجزئي المحسوس المتغير ، بل يجب ان نصل الى معرفة وجوده

العقلي الثابت ، اي الى ماهيته في ذاتها ، او الى حدّه الكلي . ذلك ان العقل ينتزع من أوصاف الجزئيات وعوارضها المحسوسة - بالاستقراء والتحليل والمقابلة والمقارنة والديالكتيك - الاعتبارات او المعاني الكلية الثابتة فيها ، كالمبادئ والنواميس وصور الانواع وحدود الاشياء وماهيات الفضائل . ولما كان هذا الاعتبار العقلي العام جامعاً للخصائص الثابتة في كل نوع من الموجودات او في كل فرد من أفراد ذلك النوع ، صَحَّ ان يكون تعريفاً لها وغداً - بالتالي - مقياساً دقيقاً لحقيقتها . وبعبارة اخرى ، ان الماهية ثابتة في الموجودات ومن الممكن التوصل اليها بالحد (او التعريف) الذي هو مجموع الخصائص الذاتية للشيء المعرف . واذا كانت ماهية الشيء هي لا تتغير ، فحقائق الاشياء ثابتة والعلم بها متحقق . وبذلك يكون سقراط بحق هو واضع فلسفة المعاني او الكليات ، والمؤسس الحقيقي للعلم . لأنه كما يقول ارسطو - الذي يبدو انه أخذ هذا التعبير عن افلاطون - اول من طلب الحد الكلي طلباً مطرداً بطريق الاستقراء^(١) . فلاعلم إلا للكلي ، اي لاعلم إلا اذا كان موضوعه تحديد المعاني وإقامة التصورات والوصول الى الطبائع العامة او الماهية الكلية المشتركة بين جزئيات كثيرة .

وأما السوفسطائيون فإنهم - بحسب سقراط - لم يرتفعوا الى مستوى الحقائق الكلية المطلقة ، بل لقد ظلوا في مستوى الجزئي المحسوس . وحق عندما قالوا بأن الانسان مقياس الاشياء جميعاً فانهم لا يعنون بالانسان هنا ، الانسان الكلي المطلق ، بل انهم يعنون هذا الانسان او ذاك ، أي لم ينظروا الى الانسان كمعنى كلي ، بل كفرد محدد مخصوص بزمان معين ومكان معين . وهم في نظريتهم في المعرفة لم يقولوا مطلقاً ان

١ - كما يمكن القول ايضاً انه هو المؤسس الاول للنطق ، لأنه في رده على السوفسطائيين اول من قال ببداً الهوية او الذاتية ، اي ان الشيء هو هو ، اذ لا تتفصل فكرة الحد عن فكرة الهوية .

الوجود الذهني هو الوجود الحقيقي الجدير بالبحث والنظر كما يقول سقراط ،
وانما الوجود الحقيقي عندهم هو الوجود العيني المتغير المحسوس .

ان سقراط بتوجيهه الفلسفة هذا التوجيه الجديد انما تطرق لأشد
قضايا الفلسفة تعقيداً وأكثرها خصوصية وإتساجاً ، كسألة الحقيقة المطلقة
ومسألة الروابط الذهنية العامة التي هي - لا الجزئيات المحسوسة -
موضوع المعرفة وللب' لبابه . وسيكون هذا الاكتشاف اساساً لنظرية
« المثل » الافلاطونية وعنصراً هاماً في المنطق الارسططاليسي الذي ظل
معيار الحقيقة زهاء عشرين قرناً .

وعلى كل حال ان اكتشاف المعنى الكلي انما يدين لسقراط . فهو اول
من ادرك ادراكاً واضحاً ما يجب ان يكون عليه العلم ، لكنه لم يحسن
الاستفادة من كشفه الجديد ولم يستطع ان يخلص فيه الى غاياته البعيدة .
فلم يدرك أبعاده كلها ولم يستخلص منه كل ما ينطوي عليه من نتائج
واحتمالات . فاذا كان قد حدد موضوع العلم تحديداً تاماً ، فقد قعدت به
مهمته عن تحديد مضمونه . وقد ادرك من نفسه هذا العجز في مواقف
كثيرة منها اعترضه السابق على رؤوس الاشهاد بأنه اذا كان له من ميزة
على مواطنيه فهي انه يعرف انه لا يعرف شيئاً . ومنها ما رأينا من انه
كان في حواراته انما يكتفي بطرح الاسئلة دون ان يلتقي الى نتيجة
ايجابية . فهو غير كفؤ لتوليد اي معرفة جديدة وان كان كفؤاً لإثارة
الاعتراضات والشكوك التي من شأنها تلييه الازدهان وإلقاء بعض الضوء على
معالم الطريق ...

واذا كان سقراط لم يتقدم كثيراً في البحث في المدرجات الكلية ، فانه
قد اعطى القوة الدافعة الكبرى لهذا التيار الجديد . انه يظل اول من
ادرك ما يجب ان يكون عليه العلم ، ووضع اللبنة الاولى في الصرح
العظيم الذي سيكله افلاطون وأرسطو من بعده .

٥ - الاخلاق

لكن هل هذا كل ما فعله سقراط ؟ كلا . فلئن قعدت به المهمة عن المضي في اكتشافه الجديد الى غاية مداه ، فما ذلك إلا لأن كل مه كان موجهاً نحو الانسان ، وبصورة خاصة الجانب الاخلاقي منه . نحن لا ننكر اننا نجد لدى الشعراء والفلاسفة السابقين على سقراط شذرات لا تخلو من الحكيم الاخلاقية قد استمدوها عن تجاربهم في الحياة اليومية ، إلا ان هذه الشذرات لا تصل ابدأ الى مرتبة الفلسفة الخلقية . ففحن لا نجد عندهم مذهباً كاملاً في الاخلاق يتكوّن منه كل متناسق متلاحم تتسلسل اجزاؤه بعضها من بعض ويرتبط بعضها ببعض ، بحيث تسيطر عليه فكرة واحدة وينبث فيه روح واحد .

وهذا ما سيجاوله سقراط . فان مذهب يُعدّ بحق اول محاولة للاخلاق العقلية الحرة في تاريخ الفلسفة . لأن الاحكام الاخلاقية عنده لا تتوالى كفيها اتفق ، بل هي تتتابع دائماً حسب نظام عقلي ثابت يأخذ بمضه برقاب بعض وتتلاقى حلقاته ثم تؤلف تسلسلاً في المراتب يكتشفه العقل وحده كما سترى .

فهو اذ يردّ على السوفسطائيين وجسد نفسه مسوقاً الى البحث عن مبادئ ثابتة تكون نواة للعلم ، فطلب الحدّ الكلي وانتقل منه الى الماهيات المشتركة او الطبائع العامة للأشياء . لكننا رأينا انه لم يتقدم كثيراً في هذا السبيل ، اذ تهمة ناحية واحدة من العلم لا العلم بإطلاق ، فمن هذا التصور الجديد للعلم أنتقل الى التخصيص ، فوضع الاساس الاول لعلم الاخلاق . فقد اهتم بدراسة الانسان اكثر من اهتمامه بدراسة الطبيعة .

وهو في تأسيسه لعلومه الجديد نراه كمادته يبحث عن مبادئ ثابتة . اذ العلم لا يكون - كما مرّ معنا - إلا بتحديد المعاني وإقامة التصورات بطريق الاستقرار والانتقال من الجزئي الى الكلي . وكذا به دائماً يناقش

بعض التعاريف عساه يحيد فيها بضالته المنشودة . وهنا ايضاً نراه لا يخرج بنتيجة . فاذا ناقش بعض التعاريف فسرعان ما يرفضها جميعاً ويترك كل المسائل التي يعرض لها معلقة بدون حل . فحسبه - كما ذكرنا مراراً - ان يثير التفكير وأن يلفت الانظار الى اهمية الحد الكلي والماهية المشتركة وأن يثبت في الفلسفة تياراً جديداً يجعل الموجودات الذهنية هي الموجودات الحقيقية .

لكن هل معنى هذا ان سقراط لم يأت يجدد في ميدان الاخلاق ولم يكن له من مذهب سوى توكيد اهمية الحد الكلي والماهية المشتركة ؟

حسبه هذا الاكتشاف العظيم الذي لا يدرك غوره ولا ينضب معينه والذي له من الأبعاد والآفاق ما يعظم عن الوصف ولا يحيط به القول . اجل حسبه اكتشاف الكلي ليكون اول من مذهب الاخلاق ووضع لها نظاماً موحداً متناسك الاجزاء واضح المعالم راسخ البنيان يظل هو اصدق تعبير عن الروح اليونانية ، وسيكون له من الآثار والانعكاسات في المعرفة والسلوك ما لا تزال نجتني ثمراته يانعة .

فاذا كانت الموجودات الذهنية هي الموجودات الحقيقية ، واذا كان الوجود العقلي اسمى من الوجود الحسي ، فالحياة الحقيقية انما هي الحياة التي تستضيء بنور العقل وتهتدي بهداه ، وبالتالي فالسلوك الخلقى انما هو ذلك السلوك الذي يعتمد على المعرفة والتفكير . وهكذا فالفضيلة تتضمن معنى العلم والملم ينطوي على الفضيلة .

ومعنى هذا ان الاخلاق عند سقراط من حيز العقل لا من حيز الدين او التقاليد . فلكي نتحقق بالأخلاق الفاضلة يجب ان نتحقق بالعلم والمعرفة . ولا بد لمن كان دأبه العلم والمعرفة ان يكون ذا اخلاق فاضلة . فهناك اذن وحدة بين العلم والفضيلة . هذا هو 'لب الاخلاق السقراطية' .

اما كيف يكون العلم هو الفضيلة عند سقراط ، فواضح من ان العلم هو الذي يحدد قيمة كل شيء ويبين ان يكون الخير وكيف السبيل الى تحقيقه . ومتى حصل هذا العلم لم يبق مجال لتمييز العلم من الفضيلة ، لأن الذي يعلم علماً حقيقياً ان هذا العمل خير يعلم في نفس الوقت ان من صالحه ان يقوم به . وإذن فليس من الممكن ألا يريد القيام به ، لأن الارادة لا تشير بضد ما يشير به العقل . وليس عثارها او خطؤها إلا ضلال العقل نفسه . إذن متى علمنا أن هذا خير اردناه ، ومتى اردناه فعلناه ، إذ كل منا انما يطلب الخير لنفسه ، والخير انما يكون بتوافق الارادة والعقل ، وبعبارة اخرى انه انما يتحقق بالعمل وفق العلم والمعرفة . ولذلك لا يقدم الانسان على الشر باختياره ولا يسهه ان يرغب فيه حين يعلم علماً يقينياً واضحاً ما هو الخير . فاذا جنح للشر فهو انما ينجح له لجهله به . فكل الشرور اذن ناشئة عن الجهل ، وجميع الخيرات مبعثها العلم . وعلى ذلك فالفضائل عند سقراط قابلة للتعليم . فالانسان يمكنه ان يتعلم الصدق والعدل والشجاعة وما اليها ، ومن الممكن تعويده على الخير بإطلاعه على نتائج الاعمال الحسنة ، ولا علاج اجدى للشرير من تعليمه نتائج افعاله السيئة التي تصدر عنه . والخلاصة لا فضيلة إلا بالعلم .

وبعبارة اخرى ، ان الانسان بحسب سقراط يبحث عن السعادة . فاذا عرف بمحض العقل ان الفضيلة هي الطريق الوحيد الى السعادة فانه لا يخطئ طريقها . إذ لا يمكن ان يقدم الانسان على عمل من شأنه ان يؤدي الى شقائه وهو عالم بذلك يختار له . والأشهر في نظر سقراط لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم او بالوسائل التي تؤدي الى الغايات الطيبة . وعلاجهم انما يكون بتصحيح معلوماتهم لا بتقويم نواياهم ، لأنهم لا ينوون إلا خير انفسهم ، لكنهم يحلون حقيقة هذا الخير ولا يعرفون وسائله . وإذن فان سقراط يفترض النية الطيبة في الانسان ويقول بالطبيعة الخيرة ويأن هذه الطبيعة لا تحيد عن الخير إلا بسبب الجهل .

وهكذا تكون المعرفة عند سقراط وسيلة لتحقيق الفضيلة وطريقة فعالة لتطهير النفس والنمو بالروح ، وهكذا يكون لعلم الأخلاق عنده أساس يتميز به عن المعتقدات والتقاليد الاورفية وطوقوسها ولا يقوم على العادات والفرائض .



ومعنى هذا ان العلم هو العلم بالنفس من اجل تقويمها . وهنا يكن المعنى البعيد للحكمة المنقوشة على معبد دلفي : « اعرف نفسك بنفسك » . فقد تبني سقراط هذه الحكمة وجعلها شعاراً له . فلكي يصلح الانسان نفسه يجب ان يعرفها اولاً ، فيحلل العقائد التي يمجّ بها ذهنه ويكتشف بنفسه الحقيقة التي في داخل نفسه . فالمعرفة الحقيقية إنما هي معرفة الذات لذاتها واستخراج ما فيها من عناصر الحق والخير والفضيلة والجمال للوصول الى معرفة عظيمة الانسان ومجده وشأنه كفرد ثم كجماعة . وبهذه المعرفة يستنير العقل ويذكو في قلوب الناس حب الجمال الذي يجمع كل القيم الانسانية فيتوصلون بواسطة الشعر والموسيقى التابعين من مصدر الجمال - وهو النفس - الى منزلة سامية تؤهلهم لبناء مدينة فاضلة يحسد أفرادها الحب في كل شيء .

وبهذا تكون معرفة النفس في فلسفة سقراط مناط الفكر والسلوك والاساس الاول لكل حق وخير وجمال وفضيلة .



ومن النتائج المنطقية الهامة لاكتشاف الكلي عند سقراط ولزعته العقلية الصريحة في الاخلاق ما يمكنه من احترام وتقديس لفكرة القانون . فليس ثمة من فكرة فلسفية كان لها من التأثير في حياة سقراط بقدر ما كان لفكرة القانون . فقد كان السوفسطائيون يمتقدون ان القانون من

اختراع الانسان ، انه تعاقد وضعي مصطنع يتعارض وقوانين الطبيعة ويرمي الى حماية الضعفاء من سلطان الاقوياء . فلا بأس من الخروج عليه ما دام غير ذي قواعد راسخة في طبائع الأشياء ، وإنما البأس كل البأس ان تخضع له وأن نضحي بحرية الفرد في سبيل اوهام او عادات متوارثة لا حقيقة لها . لكن سقراط الذي يؤمن بنظام الخير في الانسان وفي الاشياء والذي يحمل العقل رائده في كل شيء لم يقبل ان تترك الحياة الانسانية للزوات والأهواء ، بل لا بد ان تكون هناك قواعد ثابتة للعمل ، كلية عامة مطلقة ، كما ان هناك قواعد ثابتة للفكر ، كلية عامة مطلقة . وهذه القوانين يجب على العقل ان يكتشفها كما يجب على الإرادة ان تطيعها وتخضع لها . فالقوانين إذن ليست اصطناعية ، وإنما هي تقوم على اصل ثابت وجدير راسخة في بناء الفرد والمجتمع والطبيعة ونظام الاشياء .

ومن هنا ما نرى عند سقراط من نزعة غائية واضحة اورثها افلاطون وأرسطو وامتدت بامتداد الفلسفة من بعده سواء في القرون الوسطى او في العصر الحديث . وهذه الغائية هي كل ما تبقى من تفكير سقراط في الطبيعة وما بعد الطبيعة . والحق انه من الصعب ان نغيز في تفكير سقراط وفي هذه الفترة المبكرة التي يعيش فيها ، بين الاخلاق في الفرد والاخلاق في المجتمع (او السياسة) وبينها وبين الطبيعة وما بعد الطبيعة ، لا سيما وان هذه الغائية متجهة نحو الانسان كما ان الاخلاق متجهة نحو الانسان ايضاً ، وهو (اي سقراط) لم يفكر فيها إلا من زاوية تفكيره في الانسان وفي اخلاق الانسان . لذلك رأينا ان نجعلها جزءاً متمماً لمبحث الاخلاق عنده .

فإذا كان القانون حقيقة ثابتة مطلقة تجب طاعته ، فهو إذن شيء مقدس له اصل إلهي ، إذ لا بد ان يكون صادراً عن قوة حكيمه عادلة شاملة تقوم بالحق وتحرك الكون بأصول أزلية أبدية ثابتة ليست عرضة للتغير والتبديل ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان . والدليل على

وجود هذه القوة إنما هو وجود الانسان وعقل الانسان الذي ينعكس فيه العقل الإلهي والحكمة الإلهية . فللكون صانع حكيم وعقل مدبر لا يفعل جزافاً ولا يحكم بالهوى ، بل كل شيء عنده بمقدار . لذلك كان سقراط يعارض كل آلية في تفسير الاشياء ، ويؤكد ان الكون خاضع في وجوده وفي سيره لتدبير عقل إلهي في ظل قانون العناية الإلهية . وهو موجه الى غاية مرسومة تسير وفق خطة معقولة وكل ما فيه مرتب ترتيباً من شأنه ان يحقق العدل والخير والجمال ويخدم غايات الانسان العليا .

واذا كانت التجربة الحسية عاجزة عن الوغول في هذا العالم الإلهي فان العقل قادر على التقدم فيه أشواطاً بعيدة ، بقدر حفظه من العلم والفضيلة وخضوعه لنظام الخير والعدل . ان التجربة الحسية ناقصة ضعيفة تقضى بفناء البدن وتتأثر بحركة الزمن وتخضع لقوانين العالم المحسوس الذي 'قدت' منه ، وأما العقل (او النفس) فليس من معدن هذا العالم . انه شيء خالد أسمى من الزمن الذي يمرّ وأمنع على التغير من كل منبع عهده . كيف لا وهو نبتة من العالم المعقول وصورة شبه كاملة للقوة الشاملة التي تنظم العالم وتضبط سيره . وما علينا لمعرفة حكمة الوجود ووجه العظمة فيه إلا ان نقابل بينه وبين النفس الانسانية ونقارنه بما نجد فيها من القوة الفذة العارفة . وينقل لنا اكرينيوفون حواراً دار بين سقراط وأرسطوديم حول النعم التي أنعم الله بها على الانسان ، فيروي ان سقراط قال لحدثه ان النفس الناطقة هي أعظم هذه النعم ، وان العناية التي أوجدها على هذه الصورة إنما هي عناية فائقة حقاً . فليس عجباً إذن ان يكون لها وجود مستقل سابق على البدن وحياة شريفة سامية حصلت فيها على الحقائق الإلهية . ولن ينالها الموت عند موت البدن ، بل ستبقى لتنال جزاء ما قدمت يداها في الحياة الدنيا ، إن خيراً فخير أو شراً فشر . هذا هو قانون العدالة الإلهية الذي لا يتخلف ، فلا معقّب لحكمه ولا رادّ لأمره !

ولعلنا نلح هنا سقراط يبشر بتعاليم افلاطون قبل افلاطون نفسه ،
ولولا ان النصوص تنقصنا لأمكننا ان نقطع في هذه المسألة برأي حاسم .
ويمكن القول بشيء من الاطمئنان ان سقراط قد استبق كثيراً من النتائج
التي عرف افلاطون ان يحلوها حتى لكأنها من بنات أفكاره هو . ولا عجب
نقدماً قبل ان التفيّذ سرّاً استاذهُ !

٦ - مأساة سقراط

ان أحسن تعاليم سقراط كانت حياته ، وأعظم منها موته في سبيل
الحق والفضيلة . لقد كانت حياته مجهوداً متصلاً لفهم الانسان ونضالاً قوياً
للأخطاء والأوهام الشائنة في عصره وكفاحاً لا يهدأ لتحطيم القلق او
الاضطراب اللذين غرق فيها أبناء أثينا لاستحكام الأطماع فيهم ، ونتيجة
للاعتقاد بوجود عدد عظيم من الآلهة المتنافرين فيما بينهم المتناحرين بالأهواء
والشبهات ، بدلاً من ان يكونوا مثلاً 'يحتذى وقودة صالحة يسير الناس
على منهاجها .

لقد علّم سقراط شبان أثينا ان العقل أثنى شيء في الوجود وان
اللذة التي يجتنبها من المعرفة أشهى ثمرة يحلم بها انسان وأطيبها على الإطلاق .
لقد ألهم مشاعرهم شغفاً بالمعرفة وأوقد أفتنتهم حباً للحكمة . فتعلقوا به
اكثّر من تعلقهم بأبائهم والتفتوا حوله بصيخون اليه السمع ويتدبرون
أقواله .

كان سقراط لا يخشى في الحق لومة لائم لا يحفل في سبيله بأهواء
الأثينيين ؛ وكَم قال من كبريائهم وشموخ أنفهم . فهو إنما يريد ان يجاهد
كما ينقلبوا أخياراً صالحين وأن يواسيهم كما يواسي الطبيب مرضاه ، ولا
يُنزل نفسه منازل الساسة المحترفين الذين يتملقون عواطف الجماهير ويخاطبونهم
بما يرضيهم وهم لا يؤمنون بحق ولا بعدل .

ويسمعه العتاة والطفاة والعادون وأرباب السلطان ، الذين يريدون الهدى
عنوة ويسعون اليه على أشلاء المرضى والشكلى وقسوق جثث الأبرياء
والمظلومين . وعلى قدر ما كانت كلماته بلسماً لهؤلاء فقد كانت نذيراً
لأولئك اشد فتكاً من اقوى الأسلحة وأمضاها . ويتهامون في امر هذا
الرجل القريب الذي لا يطلب مجداً ، ولا مطمع له من مال او رياسة ،
او عرض من الدنيا قليل . انه لا يخاطب الناس مرضاة لأهوائهم او
استدراكاً لمشاعرهم . إن يريد إلا الإصلاح !

وتألب عليه جميع الذين في قلوبهم مرض والذين استكبروا في أنفسهم
وعتوا عتواً كبيراً . ولا بدع في ذلك ، فان ام ما يصبو اليه الظالمون
والطفاة وأعداء الإنسانية انما هو قادة الرأي وأصحاب القرائح الذين
يغلون في قول الحق ويفضحون سوءات الظالمين !

وتقدم الى القضاء ثلاثة من خصومه يتهمونه بإنكار آلهة المدينة
والاستهزاء بهم وإفساد عقول الشباب . والثلاثة هم انيتوس احد زعماء
الديموقراطية ومن اثرياء المدينة ، وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده
انه اقصد عليه ابنه ، ومليتيوس شاعر خامل ، وليقون احد الخطباء .
ويعود الاتهام الى اسباب شخصية وبواعث سياسية : إذ كان سقراط قد
حاور بعضهم فيمن حاور وعرضهم للإحراج والسخرية كدأبه في حوار
دائماً . فضلاً عن انتقاد سقراط للديموقراطية والاستناد الى مبدأ القرعة
لا للكفاءة والأهلية في الانتخاب . وكانت الحكمة مؤلفة من محلفين قد
اختيروا بالقرعة يزيد عددهم على الخمسة ، وكانوا حشداً جاهلاً لا تجانس
فيه ولا انسجام يتأثر بمصالح الساسة وأهواء الجماهير . ويدافع سقراط
عن نفسه بقوة واعتداد ، ويستنكف ان يستعطف القضاة . وأخيراً يصدر
عليه الحكم بالاعدام .

وفي السجن ، وقبل تنفيذ الحكم ، كان تلاميذه يختلفون اليه كل يوم

ليتحدثوا معه ويستمعوا الى أقواله . وقد مهدوا له اسباب الفرار لكنه
رفض بإباء وشمم ، لأن عليه ان يخضع لقوانين المدينة التي عاش فيها
وأخلص لها طوال حياته . ولم يمسه رفق من خشية الموت ، بل ظل
يحدث تلاميذه في خلود النفس ، كأن ليس في الأمر ما يدعو الى الابتئاس
والحزن وكان صفحة حياته ان تنطوي بعد قليل ، حتى جاء اليوم
المشؤوم من سنة ٣٩٩ ق . م . فتجرع السم - قرير العين مطمئن القلب
راضياً بحكم ربه ، داعياً إياه ان يوفقه في رحلته الى عالم الخلود .

وهكذا تنتهي حياة رجل عظيم بصفحة من اشد صفحات التاريخ
البشري فتامة ومن اكثرها إساءة الى الكرامة والإنسانية .

وهكذا يُقتال العقل في مهبط العقل وينكشف النور في بلد النور !



افراطون

(٤٢٧ ق.م - ٣٤٧ ق.م)

٥

١ - حياته

هو ارسطوقليس (Aristocles) بن ارسطون (Ariston) وافريقيون (Périctione) . وقد أطلق عليه من قبيل السخرية لقب افلاطون (Platon) أي العريض ، لامتلاء جسمه وعظم منكبيه وقوة بنيته . ولد بأثينا وعاش فيها معظم سني حياته التي تاهزت الثمانين .

وهو من أسرة ارسوقراطية غنية عريقة في المجد والشرف . نظم شعراً تمثيلاً وبرع في الغزل وكتابة المسرحيات ونسج في الموسيقى والرياضيات والبلاغة ، ومارس الألعاب الرياضية ، واشتهر بالسياسة بحكم قرابته وعلاقة نسبه . وعندما كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يدري أيها يختار طريقاً له في الحياة ، إذ افتتن وهو في سن العشرين بالفيلسوف سقراط . فما كان منه إلا ان أحرق قصائده وترك النساء وتبع الفيلسوف الشيخ الذي استولى على جميع مشاعره .

انقضت حياته الاولى في الاضطرابات السياسية والازمات الاجتماعية . حارب في ثلاث معارك ونال جائزة في الشجاعة . ولما انتهت حروب

البلونين سنة ٤٠٤ ق. م. وانكسرت أثينا وعظم اسطولها العظيم ، سقطت حكومة اقريطياس (Critias) رئيس الطقاة وعم افلاطون ، فاستلم زمام الحكم من بعده جماعة الديموقراطيين الذين قتلوا سقراط . فصدّم افلاطون لقتله صدمة عنيفة وكان في السابعة والعشرين من عمره . وقد خلف لنا صورا غير تاريخية - ولكنها رائعة - لدفاع سقراط وسجنه وإعدامه ، وذلك في محاوراته « الدفاع » و« اقريطون » و« فيدون » .

وبوت سقراط تفرق تلاميذه وغادر معظمهم أثينا الى حين . فذهب افلاطون الى ميغاري حيث صديقه اقليدس ثم الى قورينا (Cyrène)^(١) . ويظهر انه سافر منها الى مصر دارسا مستقصيا ، فاطلع على علومها وأدبائها وتقاليدها ، وبقي فيها الى ان وقعت الحرب بين أثينا واسبرطة ، فارتحل منها الى جنوب ايطاليا حيث استهواه مذهب فيثاغورس واتصل بكبار مثليه ، ثم انتقل بعد ذلك الى صقلية تلبية لدعوة تلقاها من طاغيتها ديونسوس الاول (Denys) وارتبط فيها برابط الصداقة مع صهر هذا الاخير ديون (Dion) الذي اصبح فيما بعد أشد تلاميذ افلاطون اخلاصا في الاكاديمية . ولسنا ندري لأي سبب أراد هذا الطاغية المتترف ان يدعو فيلسوفا الى بلاطه . لكن سرعان ما دب الخلاف والشقاق بين الفيلسوف والطاغية ، فنفاه على متن إحدى السفن الى جزيرة ايحينا (Egine) حليفة اسبرطة ، وكان لابد ان يصبح افلاطون - وهو أثيني - أسيرا فيها . وظل كذلك حتى اقتداه احد القورينائيين وهو انيقرمس (Anniceris) ثم عاد سالما الى أثينا .

وفي مدينته ومسقط رأسه نراه ينصرف بكلية الى تأدية الرسالة الحقيقية التي نذر نفسه لها ، وهي تثقيف الشباب الأثيني وحسن توجيهه

١ - وهي الآن قرية صغيرة تدعى قرنة في برقة بشمال افريقيا .

وقيادته . فأسس في إحدى ضواحي أثينا - بالقرب من حدائق البطل
اكاديموس - ما قد أصبح يطلق عليه فيما بعد اسم « الاكاديمية » وما
يمكن بشيء من التجوز المفيد ان يسمى بأول جامعة . وهناك ألقى افلاطون
دروسه وألف كتبه ، وكان لا يسمح بالدخول اليها إلا لمن كان مهندساً ،
فقد نقش على بابها هذه العبارة : « من لم يكن مهندساً فلا يدخل هيكلا
الفلسفة » . وانتقلت الاكاديمية من بعده الى وسط المدينة في مكان معروف
باسم موضع بطليموس وظلت مزدهرة فيها حتى أمر يوستينيان بإقفالها
نهائياً عام ٥٢٩ م .

وانقطع افلاطون الى الدرس والتعليم في الاكاديمية زهاء اربعين سنة
تخلتها رحلتان قصيرتان الى صقلية بعد موت ديونيسوس الاول وانتقال
الحكم الى ابنه الأكبر ديونيسوس الثاني ، وذلك في محاولة لإقامة مدينة
قاضية ونظام مثالي في الحكم والعدالة ، فكان الفشل حليفه . فلم يكن
امامه إذن إلا ان يستمر في مهمته الاصلية وهي التدريس ، فأقام على
ذلك حتى توفي عن عمر يناهز الثمانين .

— — —

٢ - محاورات افلاطون

ان افلاطون مؤلف مكثار . ترك لنا عدداً كبيراً من الكتب وصلت
اليها كاملة لحسن الحظ . فهو من بين الفلاسفة القدماء اول فيلسوف تظل
جميع كتبه محفوظة دون ان تسطو عليها يد الضياع . ولعل من اسباب
ذلك الصورة الفنية الرائعة التي كتبت بها . وليست المشكلة بالنسبة الى
افلاطون مشكلة كتب مفقودة بقدر ما هي مشكلة كتب قطع النقد
الحديث بأنها منحولة .

وقد صاغ افلاطون جميع كتبه في اسلوب الحوار ، ما عدا مقالة
« الحدود » ومقالة « الخير » التي يذكرها ارسطو ، ثم الرسائل الثلاث عشرة ،
فقد كتبها بطريقة الكلام المرسل لا بطريقة الحوار .

وقد اتخذ افلاطون من سقراط بطلا لمحاوراته إلا محاورة «النواميس» فإنها تخلو من اسم سقراط، إذ يسمي بطلها باسم «الغريب الأثيني» ويغلب على الظن انه هو سقراط نفسه أيضاً، لأن مسرح هذه المحاورة جزيرة كريت، وسقراط ليس من سكان هذه الجزيرة، بل هو غريب عن اثينا.

وقد اختار افلاطون اسلوب الحوار لأسباب أهمها في رأينا ان الحوار جزء من تصوره للفلسفة، بمعنى ان الحوار عنده - كما كان عند استاذة - هو الطريقة المثلى لاكتشاف الحقيقة الحقيقية كما أنها في النفس كمن النار في الحجر، معروفة لها منذ أن كانت في عالم المثل، ثم غشيتها الغواشي، ولا سبيل الى إظهارها إلا باحتكاك الآراء والأفكار وإخضاعها لنقد الآخرين واختبارها بما تنطوي عليه من نتائج تلزم عنها. وقد تكون لأفلاطون بواعث أخرى لكن هذا الباعث هو في رأينا أهمها.

وجدير بالذكر منذ البداية ان هذه المحاورات قطعة فنية أكثر مما هي سجل تاريخي. فأفلاطون لا ينقل لنا فيها الأحاديث التي كانت تدور بين المتحاورين نقلاً أميناً، كما انه لا يتم بتنسيقها وربط الأفكار فيها ربطاً محكماً يجعل منها وحدة منطقية متماسكة. فقلما نجد فيها انسجاماً في الأفكار او تسلسلاً في الرأي، وكثيراً ما ننتقل من موضوع الى آخر انتقالاً قد يدخل السأم في نفس القارئ. وهي لا تخلو ايضاً من الإشارات التي يناقض بعضها بعضاً. بل هناك أخطاء تاريخية في كثير من المحاورات. ففي افلاطون يلتقي الفيلسوف والشاعر والكاتب القصصي المسرحي والكوميدي في حيز واحد. انه يمزج الشعر بالفلسفة بالعلم بالفن بالأسطورة مزجاً يُسكر، فية عذوبة ولذة. فالفن يسيطر عنده على المنطق، والحياة متقدمة على المنهج. والخلاصة ان افلاطون يقدم لنا في هذه المحاورات صورة من الحياة ومن الحركة الجدلية بكل ما فيها من تفكك وتناقض وغرابة أكثر مما يقدم لنا منهجاً في التفكير واضح المعالم سليم الخطو

خالياً من العيوب المنطقية والمقتضيات المنهجية . ماذا اقول ؟ حتى الاسطورة تشغل مكاناً هاماً في المحاورات ، فهي ممة بارزة من سمات تفكير افلاطون . فهو لا يُعنى ببسط المذهب بقدر عنايته ببعث الشعور بالحياة وبخلق جو ملائم يسمو فيه الخيال الشعري والم عاطفة الخصبة والوجدان الفياض . ولن نفهم فلسفة افلاطون إلا على هذا الاساس .

وعدد المحاورات التي بين ايدينا ستة وثلاثون^(١) ، ثمان وعشرون منها صحيحة النسبة اليه على ارجح الاقوال ، وست منحولة ، واثنان مشكوك فيها . بل قد يُبالغ البعض فيحذف معظم المحاورات . فقد ذهب شيرشميدت (Schearchmidt) مثلاً الى حذف سبع وعشرين محاوراً عدّها مدخولة او من وضع احد كتّاب الاكاديمية .

وهذه أهم المحاورات التي ثبتت صحة نسبتها الى افلاطون :

هيباس الصغرى	(في الحق والباطل)
خرميدس	(في العفة)
لاخس	(في الشجاعة)
اوثيريديوس	(في الحياة الفلسفية)
غورجياس	(في الأخلاق والسياسة)
مينون	(في ان العلم تذكّر)
الدفاع	(دفاع سقراط)
اقريطون	(في الخضوع لقوانين الدولة)
فيدون	(في خلود النفس)
المأدبة	(في الحب)

١ — با فيها « الرسائل » التي تمّ محاورة تحتّم بها مؤلفاته .

(في السوفسطائيين)	بروتاغوراس
(في المدينة الفاضلة)	الجمهورية
(في نظرية المعرفة)	ثيتاتوس
(في المنطق)	برمنيدس
(في التعريفات)	السوفسطائي
(في اللذة والخير)	فيلايوس
(في وظيفة السياسي)	السيامي
(في اصل العالم)	طلياروس
(في تنظيم المدينة وهي استدراك لما	النواميس
ورد في الجمهورية) .	

٣ - فلسفة افلاطون

ان افلاطون هو الفلسفة اليونانية كلها ، إذ تلتقي فيه عناصرها الأساسية والثانوية التي ورث بعضها او كلها عن سابقيه ، فعددتها تحديداً كاملاً . فنحن نجد لديه العنصر العقلي والعنصر العلمي والرياضي ، وعنصر الجدل والمناقشة ، والعنصر الديني الإلهي ، والعنصر الشعري والفني ، وأخيراً العنصر الأسطوري . وقد زواج افلاطون بين هذه العناصر جميعاً وجدها تجديداً عظيماً رائعاً ، وأضفى عليها من اصالته وعبقريته السامقة ما جعل منها فلسفة تطاول الزمن وتنازع الخلود .

ان مزاجاً كهذا المزاج المقتن يصعب تحليله والوصول الى اغواره السحيقة . لذلك لم يكن من السهل التعرف الى حقيقة فلسفة افلاطون وإدراك معانيها . فهو لم يترك لنا اي فلسفة منظمة في أي باب من ابوابها ، وإنما ترك لنا مجموعة من المحاورات تتشابه فيها الموضوعات ويكثر فيها الاستطراد من مسألة الى اخرى حتى ليتعذر في كثير من الأحيان الاتفاق

على اسم واحد لكل محاوره من المحاورات ، كما يتعذر في هذه المحاورات
 ايضاً - ولا سيما تلك التي ترجع الى عهد مبكر - الفصل بدقة بين آراء
 افلاطون وآراء استاذة سقراط . وفضلاً عن ذلك فان هذه المحاورات انما
 وضعت لجمهور يحب اللهو ويطلب المتعة ، فكانت المحاورات بالنسبة اليه
 غنى من حاجة كبيرة . وأما الفلسفة الحقيقية ، الفلسفة التي تعبر عن فكر
 افلاطون وتنبض بروحه وقلبه ، فلم يُدونها . فيلسوف الاكاديمية قط ،
 ولم يشغل نفسه بكتابتها ، وإنما وصلت البناء عن طريق بعض تلاميذه في
 الاكاديمية ولا سيما ارسطو . ومع ذلك فلا غنى لنا عن الرجوع الى
 المحاورات لأنه مهما قيل فيها فانها تظل أجرة الباقي ، اراد هو او لم يرد ،
 وسواء شئنا نحن ام أبينا .

وعلى كل حال يرى افلاطون ان الفلسفة لا تدور ولكن تنبثق من
 النفس وتتطير كما يتطير الشر من الحجر ، فهي تجربة نفسية اكثر منها
 حقيقة منطقية . انها حال اكثر منها مقالاً ، لذلك فهي تستصي على التعبير
 ولا يمكن للألفاظ ان تفصح عنها ولا للأمثلة ان توضحها ، ولا للتعاريف
 او الحدود ان تحيط بها ، إذ الألفاظ والأمثلة والحدود كلها وسائل ناقصة
 لا بد ان تؤدي الى الخطأ . والسبيل الى بلوغها انما يكون بالحوار بين
 الطالب والمرشد ، او النجوى بين ذوي النفوس القذة التي تجتمع بالإلفة
 وترتبط بالهبة . هنالك تنفتح البصيرة وتري زناد العقل ورئياً تثال فيه
 المعاني وتتكشف الحقيقة كما هي فتتهجم على القلب وتُدرك بالعيان المباشر .
 اجل انها لا تعرف بنظم الكلام وترتيب الحجج والأدلة المحررة بل بالنفث
 في الروع والقذف في الصدر ... ومع ان افلاطون لا ينكر أهمية المنطق
 والاستدلال والحجاج ، فقد ظل يستمد على الحدس والبصيرة في كل تكبير
 يصدر عنه او معرفة يقول بها او حكمة يصل اليها ، او قل هو يجمع بين
 الوجدان من ناحية والمنطق من ناحية اخرى في مزاج ساحر أخاذ ، وكل

هذا من أفر النظرة الشعرية في فلسفته . فالفلسفة انما 'تعاش' اكثر مما 'تقرأ'
وتقتصر بالذوق والكشف اكثر منها بالبحث والنظر ... وكل من ذاق عرف .

فالفلسفة اذن هي البصر بالحير والحق والجمال وتأملها وانتقاش القلب
والسر بها . إنها ضرب من التصفية المستمرة للنفس وتقرينها من شواغل
المادة والعالم المحسوس والقيام على مجاهدتها وتطويعها وأخذها بالعلم والعرفان
والنفكير والنظر ، والدأب على ذلك حتى تنفجر بالحكمة وتدر عليها اللذات
العلی . وبعبارة اخرى ، ان الفلسفة هي التشبه بالله بقدر الطاقة الانسانية ،
فيصبح المرء قدسياً وعادلاً وحكيماً ، كما يقول في « الجمهورية » ،
و « تيتاتوس » ، ولا يكون الإنسان فيلسوفاً إلا اذا انبثقت الافكار من
نفسه وكانت معبرة عنه هو ، لا صدی لأفكار الآخرين .

هذا هو معنى الفلسفة . وأما وظيفتها فهي من لوازم معناها ، أي انها
تنحصر في إحياء النفوس وصلها والأخذ بيدها حتى تنقدح لها الحقائق
وتلتهم فيها ، لا ان تتلقاها من افواه الآخرين او من صفحات الكتب
وتردها افكاراً ميتة لا حياة فيها . فالفلسفة إنما تحيا بأصحابها وتموت
بانفصالها عنهم ؛ فلا نكون طلاب موت ، بل لنكن طلاب حياة .

وقد عدد افلاطون في « الجمهورية » مزايا الفيلسوف الحقيقي . فالفيلسوف
الحقيقي في نظره يجب ان يكون عباً للحقيقة وذا رغبة وقادة في ما
جميع الموجودات ، مبغضاً للكنب ، محباً للصدق ، ميالاً الى احتقار الا
الجسدية ، غير مكثرت بالمال ، شديد القناعة زاهداً في الحياة فأبداً للشقاء
شجاعاً امام الموت ، بعيداً عن العناد والمعرفة والكبرياء . ويجب ان
يكون ايضاً سامي المدارك حر الفكر قوي الحدس عادلاً دمث الطباع
سريع الخاطر والذاكرة والحافظة ، محباً للجمال ، ذا فطرة موسيقية متسقة .
ومن لم تتوافر فيه هذه الصفات فلا سبيل الى بلوغه الفلسفة .

٤ - اقسام فلسفته

لقد كان افلاطون شاعراً مفعماً الوجدان فياض الخاطر خصب القريحة الى حد يتمتع من ان يقيّد افكاره او ان يحدّها بحدود . فقد آثر كما مرّ معنا ان يقدم هذه الأفكار في صورة من الحياة والدفء والحركة اكثر من تقديمها بطريقة تعليمية اكاڤمية او في صورة مذهب نهائي كامل . فهو لم يتبع خطة منظمة ونسقاً متاسكاً يأخذ بمعضه يرقاب بعض . لذلك يجد الباحث صعوبة في عرض افكاره في صورة منسقة او تقسيمها وتبويبها ، لأن ذلك من شأنه تجميمها في قوالب متحجرة وحرمانها من سياقها الجنيّاش الحي المتدفق . ولكننا مضطرون لأن نفعل ذلك لأنه وسيلتنا الوحيدة لاستشفاف فلسفته . وشأننا هنا كشأن علماء الحياة ، فهم لا يستطيعون دراسة المادة الحية إلا بتحليلها الى عناصرها الأولية ومعالجتها بمختلف الاحماض والمواد الكيماوية والطرق الكهربائية ، أي بإماتها او على الأقل بتشويها . وكذلك الحال في تقسيم فلسفة افلاطون . فهذه التقسيمات من شأنها تشويه فكر افلاطون وإماته . ولكن ما العمل اذا لم تكن لنا وسيلة اخرى ، كما لا تفهم الحياة إلا بتشويها والقضاء عليها ؟ فإذا كان هو لم يفكر في إطار من المنطق ولم يلتزم خطوطاً صارمة فسنفكر نحن عنه في إطار كفرّ به وسنلتزم عنه خطوطاً لم يعترف بها ، على ما في ذلك من المزالق . وفي نطاق هذا الفهم الحي لفلسفة افلاطون يمكننا تقسيمها ستة اقسام هي : (١) نظرية المعرفة ، (٢) عالم المثل ، (٣) الطبيعة ، (٤) النفس ، (٥) الاخلاق ، (٦) السياسة . وسنبحت كل قسم من هذه الاقسام على حدة .

٥ - نظرية المعرفة

لعل السوفسطائيين اليونان هم اول من وضع مشكلة المعرفة في الفلسفة وضعاً جديداً . فقد كانت بحوث الفلسفة قبلهم مركزها الكون بأسره ،

فأصبح مركزها عند السوفسطائيين هو الإنسان نفسه . ونادى السوفسطائيون بنظرية في المعرفة « انسانية » فقالوا لا شيء موجود في ذاته ولذاته ، وكل ما هو موجود قائما وجوده بالنسبة الى الانسان . وهذا معنى قول بروتاغوراس : « الانسان مقياس كل شيء » . والحقيقة إنما تُدرك بالإحساس المباشر نفسه ، أي ان الإحساس هو معيار الحقيقة . فالحقيقة هي ما تراه وتسمعه وتلمسه وتدوقه وتشمه . وإذن فان معرفة الحقيقة ميسورة للناس جميعاً .

ثم جاء سقراط فقال ان العقل هو سبيل المعرفة لا الحس . إذ ان الحس يختلف باختلاف الأفراد بل باختلاف الحالات في الشخص الواحد ، وأما العقل فهو عام في الناس جميعاً . فهو وحده مستقر الحقيقة ومعياريها الصادق الأمين ، لأنه هو وحده الذي يستخلص الحقائق الكلية الثابتة لا الحواس . فكلته هي القول الفصل وما عداه باطل .

وأخيراً يأتي افلاطون فيذهب في نظرية المعرفة مذهب استاذه ويرى فيها رأيه ، لكنه يكله ويمضي مثله في تفنيد أقوال السوفسطائيين .

وجدير بالذكر ان افلاطون اذا كان قد عني بكيفية تكوين المعاني والتصورات عن طريق حس من الحواس ، إلا انه لم يبين الشروط العامة التي يكون بها المدرك صحيحاً ، أي انه لم يبحث في نظرية المعرفة بحثاً حقيقياً يتجه أولاً وبالذات الى بيان الشروط التي بها إنما تكون المعرفة صحيحة .

وهذا ينطبق أيضاً على ارسطو . وجميع الفلاسفة اليونان . فمثل هذه المسائل لم توجد إلا في العصر الحديث ابتداء من لوك وهيوم ، وهي التي توسع فيها كانط من بعد ورضعها في أعلى صورة بلغت . ولقصور الفلاسفة اليونان عن الوصول الى شروط المعرفة الصحيحة فقد انساها كثيراً في الاستنتاجات السريعة دون ان يكون في سير البرهان ما يسمح بهذا

الاستنتاج . وعلى اسامس ما يستنتجون يضعون من المذاهب ما يشاؤون . فتجارهم في هذا الباب ناقصة إذن ومعرفتهم لم تكن معرفة قائمة على الاستدلال الحقيقي الذي يتسم بالدقة ؛ وبهذا يمتاز الفلاسفة المحدثون عن أسلافهم اليونان . لهذا توصف الفلسفة الحديثة بأن روحها النقد وطابعها التفرقة بين الذات التي تدرك والأشياء التي هي موضوع الإدراك .

هذه ملاحظة عابرة أحببنا تسجيلها منذ الآن لنكون على علم وبصيرة بخصائص نظرية المعرفة عند اليونان واليونان الشاسع بينها وبين نظيرتها في الفلسفة الحديثة .



وعلى كل حال ، فان افلاطون في نظرية المعرفة يضع لها درجات فيفرق بين (أ) الحس (ب) والظن (ج) والاستدلال (د) والتعقل .

أ - فأما الحس فلا يصلح ان يكون سبيلا الى المعرفة الحقيقية ، كما ان المحسوسات لا تصلح ان تكون موضوعاً لها . فلو كانت الحقيقة هي ما يأتي به الحس لم تكن هناك حقيقة ، وإلا لكان ما يقوله اي انسان عن العالم مساوياً في قيمته لما يقوله اي انسان آخر ، بل وأي فرد ا فمن ذا يفصل بين ما يقوله هؤلاء جميعاً ؟ وأي حقيقة موضوعية مطلقة يمكن الرجوع اليها لحسم الخلاف ؟

كلا ، ليس الحق هو ما يأتي به الحس ، لأن الحس إنما ينقل لنا الصيرورة الدائمة والتغير المستمر ؛ انه إنما يقدم لنا فيضاً من التغيرات الفردية المؤقتة . انه إنما يدرك عوارض الاجسام وأشباحها ولا يصل ابدأ الى إدراك حقيقتها . انه اول مراحل المعرفة ولكنه ليس كلها . فالنظر اليه على انه كل المعرفة ، فيه إنكار للعقل من حيث هو ملكة خاصة مستقلة عن الحس قائمة بذاتها . فلو لم تكن لنا إلا احساسات لما كانت لدينا قط

معلومات او حقائق . فالمعلومات والحقائق ليست هي ما يأتي به الحس ، وإن كان الحس شرطاً في حصولها . انها انما تأتي عن طريق الأفكار وعن طريق الصور المعتمة والمعاني الكلية والمدرجات العامة . فالعقل يتلقى أيضاً من الإحساسات ثم هو يصوغها أفكاراً وصوراً ومعاني ومدرجات ، وهنا تكون حقيقته . ولو كنا لا ندرك إلا الجزئيات المحسوسة لكانت هذه العمليات مستحيلة ولكان التفكير متعذراً . أجل ان العقل يدرك موضوعات الحواس على اختلافها فيركبها معاً ويصنفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ثم يعبر عن الصنف بأجمعه باسمه العام . فكلمة « انسان » مثلا ينطوي تحتها جميع الناس . وكذلك كلمة « حيوان » و « نبات » و « كتاب » و « ورقة » الخ . هذا هو الحد الكلي الذي تحدث عنه سقراط والذي لا يُدرك بالحس ، وإنما يُدرك بالعقل ، والعقل وحده ، وأهم خصائصه انه يبقى ولا يتغير ولو انعدمت جميع الجزئيات المقابلة له . فالتاس يولدون ويموتون ، ولكن « الانسان » يبقى . وكذلك « الحيوان » و « النبات » و « الحمار » . وكذلك ايضاً المعاني الرياضية والأشكال الهندسية وجميع الصور العقلية ، فهي كلها افكار سرمدية كاملة ، وإن كانت مقابلاتها الحسية زائلة فانية .

ثم ان الحس لا يقدم لنا إلا « بعض » الصور ، فاذا بالعقل يستحضر « سائرهما » كالحس البصر : فنعلم مثلا ان هذه التفاحة الحمراء غاذية طيبة المذاق مع اننا لا نرى غير لونها ، وندرك أن في الفرة انساناً مع اننا لا نرى غير طرف يده في الشباك ، ونعلم أن البيت مأهول بالسكان مع اننا لا نسمع غير وقع اقدامهم ، ونفهم اللغة مع اننا لا نسمع غير ألفاظها .

فالعقل هو الذي يجمع الإحساسات ويضمها بعضها الى بعض ويعارضها بعضها ببعض ويدرك العلاقات القائمة بينها ويصدر عليها احكاماً مقاربة للحس . فالجمع والمعارضة (او المقارنة) وإدراك العلاقات وإصدار الاحكام

ليست من افعال الحس وإنما هي جزء لا يتجزأ من مفهوم العقل . ان الإحساس إنما ينشأ بالعقل ويقدم له المادة الخام . انه أداة العقل ولكنه ليس هو العقل . وإذن فليست المعرفة هي الإحساس وإنما هي حكم العقل على الاحساس .

ب - وكما لا يصلح الحس وسيلة للمعرفة الحقيقية فكذلك الظن (او الرأي) ، وذلك لأن موضوعه المحسوسات المتغيرة لا الحقائق الثابتة . فهو وإن كان ارقى من الحس إلا انه يظل معرفة ناقصة غير معللة . فهو يحكم على الاشياء لا كما هي في ذاتها بل بحسب ما تبدو للشخص الذي يحكم عليها . ان المعرفة الحقيقية هي المعرفة المعللة ، اي معرفة الامور بعلمها وأسبابها . ولهذا كان الظن غير ثابت ، بل هو يتغير بتغير موضوعه في عوارضه وعلاقاته وبتغير ظروف الشخص الحاكم وأحواله . ان الظن قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً ، بخلاف المعرفة المعللة (او العلم) فهي معرفة صادقة ضرورة لأنها قائمة على البرهان ولأن موضوعها الحقيقة الكلية والماهية الثابتة .

ج - والاستدلال ارقى من الظن وأقل من العلم (او التعقل) فهو ارقى من الظن لأن موضوعه غير حسي ، وهو اقل من العلم لأنه يستعين بالمحسوسات للوصول الى موضوعه ، وذلك كالأشكال الهندسية والنظريات الرياضية ، فكلها معقولات غير حسية وإن كانت تأخذ من الحس بطرف . فالفكر فيها يستخدم الصور المحسوسة لتنبيه الصور المعقولة ثم لا يلبث ان يستغني عن كل صورة حسية ليستبقي المعاني الكلية ويتأملها .

د - والتعقل (او العلم) هو اسمى درجات المعرفة وأرقاها جميعاً . فهو موضوعه التصورات الفلسفية المجردة او المثل العقلية ، كالعادلة والجمال والخير . فهو يطلب العلم الكامل والمعاني الكلية والماهيات الثابتة والصور المفارقة ، والحقيقة العليا ، حقيقة الحقائق ، دون الاستمانة بالحواس والرجوع

اليها . هذا هو العلم الكلي والعلم الاعلى الذي إنما يطلب لذاته ، وكل ما عداه فإنما يطلب له . وهو إنما يُدرك بالعقل والمجاهدة الفكرية والدأب على حياة التأمل والنظر . فهو الغاية القصوى والمطلب الاسمى .

والطريق اليه هو المنهج الديالكتيكي . والديالكتيك نوعان : صاعد وهابط . ويكون بالاستقراء والقسمة . فالاستقراء هو انتقال الذهن من الجزئيات الى الكلي الذي يشملها . ففيه يلاحظ الانسان كل الجزئيات ثم يرتفع من هذه الجزئيات الى الصفات الجوهرية التي تربط هذه الجزئيات بعضها ببعض ، أي الى الماهية العامة او النوع ، ثم يرتفع من الانواع شيئاً فشيئاً حتى يصل الى ما هو مشترك بين عدة انواع وهو الجنس ، ثم يرتفع من الاجناس وهي ماهيات اعم من الانواع ، الى ما هو مشترك بينها ايضاً . هذا هو الاستقراء ، وأما القسمة فهي بيان اعم الاجناس التي يندرج فيها الشيء ثم تمييز هذا الجنس بذكر الفصل . ومن مجموع الجنس والفصل نحصل على تعريف الشيء الذي يعبر عن ماهيته . فتعريف الانسان إنما يتم بذكر الجنس (حيوان) والفصل (ناطق) .

والخلاصة ، ان المنهج الديالكتيكي إنما يقوم على الارتفاع من الافراد الى الانواع فالى الاجناس عن طريق تبين الصفات الجوهرية وإسقاط العوارض الثانوية والارتفاع من هذه الصفات شيئاً فشيئاً حتى نصل الى صفة واحدة تعم الصفات الاخرى جميعاً . فنحن هنا إذن بإزاء حركة صعود من الاشياء الدنيا وهي الافراد ، الى اجناس الاجناس او الاجناس السامية . لذلك يسمى هذا النوع من الديالكتيك بالديالكتيك الصاعد ، في مقابلة الديالكتيك الهابط ، وهو عملية عكسية يهبط فيها الانسان من الاجناس العالية وأجناس الاجناس الى الافراد .

هذا ولا يخلو المنهج الديالكتيكي بنوعيه من اشارات تتفاوت في الوضوح الى بعض المبادئ المنطقية العامة لا ينبغي ان يقلل من اهميتها - كما جرت

عادة اكثر الذين أرتخوا لأفلاطون - ان ابحاثه فيها ذات طابع ميتافيزيقي لا منطقي . فهو قد بحث في القواعد المنطقية الرئيسية من استقراء وتحليل ، وكانت له ملاحظات مفيدة في المنطق كقوله ان القضية تتألف من موضوع ومحمول وأن طرفي النقيض لا يُحملان على موضوع واحد . كذلك عالج افلاطون فكرة المقولات وجعلها خمساً وهي « الوجود » و « السكون » و « الحركة » و « الهوية » و « الفيرية » ^(١) كما سنرى في نظرية المثل بعد قليل . ومع ان نظرة افلاطون الى المقولات ليست منطقية خالصة وإنما هي ميتافيزيقية في جوهرها ، اي هي حقائق فعلية لا مجرد تصورات ذهنية (او منطقية) بحتة ، ومع ان بحثه للاستقراء والتحليل لم يكن كاملاً إذ لم يبين جميع الشروط التي يجب توفرها لكي يكون الاستقراء صحيحاً والتحليل دقيقاً ، فان من الممكن ان يستخلص المرء من كل هذا اتجاهاً منطقياً ما عند افلاطون سيتخذ شكله الكامل عند تلميذه ارسطو . فأفلاطون يظل - في هذه المسائل كما كان في غيرها - المنارة التي سضيء الطريق لتلميذه ارسطو من بعده .

وعلى كل حال ان التعقل هو أسمى درجات المعرفة كما قلنا ، كما ان الرياضيات هي المقدمة الضرورية للوصول اليه ، لأنها تبعد العقل عن الاشياء الحسية الفجة وتهيب به الى التأمل في الاشياء التي صلتها بالحقيقة اكبر . ولأهمية الرياضيات كمدخل الى الفلسفة فقد كتب افلاطون على باب الاكاديمية : « من لم يعرف الهندسة فلا يدخل علينا » .

٦ - عالم المثل

اذا كان سقراط قد قال ان معرفة الماهيات هي المعرفة الحقيقية فانه لم يقل مع ذلك ، او لم يصل بعد الى القول ، بأن وجود الماهيات هو

١ - الدكتور علي سامي النشار : المنطق الصوري ، الطبعة الاولى سنة ١٩٥٥ ص ١٥٧ .

الوجود الحقيقي . وإنما هو اقتصر فقط على اعلان هذا المبدأ : ألا وهو ان المعرفة الحقيقية هي معرفة الماهيات . وعندما جاء افلاطون وتساءل عن مصدر المعرفة ، رفع هذه الماهيات الى مقام الوجود الحقيقي ، وسلب كل شيء دونها اي "حق في الوجود . وقد فعل ذلك في نظرية المثل .

ما مصدر المعرفة ؟ كيف يدرك العقل الافكار الكلية والمعاني المجردة والصور المفارقة وسائر الماهيات المعقولة دون الاستعانة بالحس ؟

لا يصح ان تكون مدركة بالحس ، لأن الحس متغير ، وهي سرمدية ثابتة لا يعرفها تغير ولا ينالها فساد .

ثم انها مركوزة في النفس ، على حين ان الحسيات عابرة 'تكتسب اكتساباً .

وكذلك هي مطلقة ، بينما الحسيات نسبية تختلف باختلاف الاشخاص والظروف والأحوال .

وهي ايضاً متسقة فيما بينها ، فيها انسجام وتناغم ونظام ، وأما الحسيات فهي متنازعة فيما بينها متعارضة يكثر فيها التشويش والاضطراب .

وأخيراً انها كلية ، بينما لا تقدم لنا الحواس إلا شتاتاً من المعلومات الجزئية المبعثرة .

فمن اين جاء هذا الفرق الكبير بين معطيات الحس ومعطيات العقل ؟ واذا لم يكن الحس المصدر الاساسي للمعرفة بهذه الماهيات فماذا عسى ان يكون مصدرها يا 'فري ؟

يجيب افلاطون جازماً بأن مصدرها المثل .

والمثل (او الصور) حقائق كلية ثابتة موجودة بالفعل وجوداً خارجياً مفارقاً مستقلاً عن الانسان ، هي في وقت واحد مصدر للمعرفة وعلة لها ، كما هي مصدر لوجود الاشياء في العالم المحسوس وعلة له . فلو قلنا مثلاً

إن علة الجمال في الزهرة هو شكلها او لونها او رائحتها لكننا كمن يفسر الجمال بعلة ليست دائماً سبباً للجمال . فهذا الشكل او اللون او الأريج قد يكون سبب قبح ايضاً في اشياء اخرى غير الزهرة . وكذلك لو قلنا ان سبب الطول في هذا النبات مثلاً هو مقياس قدّم ، فهذه القدم ذاتها قد تكون سبباً للقصر ايضاً . فكيف تكون القدم علة للطول وللقصر في آن واحد ؟ انما علة الطول في الاشياء هو مثال الطول او ماهيته ، وكذلك علة القصر وعلة الجمال . فهناك مثال للطول ومثال للقصر ومثال للجمال في عالم غير هذا العالم المحسوس هو السبب في طول الاشياء وقصرها وهو علة ما نرى فيها من جمال وامتناع .

وهناك دليل آخر على وجود المثل ، وهو ان المدرّكات الكلية لا تدرك بالحس كما هو معلوم . فالجمال مثلاً مدرّك كلي تستنبطه بعد النظر في شق الاشياء الجميلة ، فلو ان في اذهاننا فكرة سابقة عن الجمال لما عرفنا ان هذه الاشياء بالذات تشترك في الجمال . وهذه الفكرة السابقة إما ألا يكون لها وجود في الخارج فتكون حينئذ من اختراع العقل ، وبذلك تكون شيئاً نسبياً مقياساً بمقياس شخصي محض ، وبالتالي يصبح الانسان مقياس كل شيء كما يقول السوفسطائيون ، وإما أن يكون لهذه الفكرة السابقة وجود خارجي مستقل عنا . ولما كانت اقوال السوفسطائيين باطلة بحسب افلاطون وسقراط من قبله ، لم يبق إلا ان نسلم بأن فكرة الجمال الموجودة في العقل انما تطابق شيئاً في الخارج تمام المطابقة هو مثال الجمال . ففي العالم الخارجي ، عالم المثل ، جمال في ذاته مستقل عن عقل الانسان ، ولو لم تكن نفوسنا حاصلة على هذا المثال لما استطاعت ان تدرك الشيء الجميل . ذلك ان نفوسنا قبل حلولها في الأجسام كانت - فيما يقول افلاطون - تعيش في عالم غير هذا العالم ، عالم سام شريف هو عالم المثل ، ثم أهبطت الى العالم الأسفل لجرّية اقترقتها . فاذا رأت شيئاً جميلاً على هذه الارض تذكرت مثال الجمال في عالم المثل . وهكذا فالعلم انما هو تذكر ، والجهل

نسيان . فكما اننا نتذكر صديقاً عند رؤيته صورته ، كذلك نتذكر النفس مثال الجمال عند رؤية الاشياء الجميلة . وما يصدق على الجمال يصدق على العلم والحق والخير وسائر المقولات الكلية .

وللحيوانات والنباتات والمعادن مثل ايضاً ، فللحصان مثاله ، وللتنحاح مثاله ، وللماء مثاله وللنار مثاله . وما الحصان المحسوس إلا شيء شبيه بالحصان المثالي ؛ وما الماء المحسوس إلا شيء شبيه بالماء المثالي . وهلمّ جراً .

وكذلك للصفات مثلها : فللبياض مثاله وللأسود مثاله . وكذلك للأفعال مثلها : فالصدق مثاله وللحب مثاله وللشجاعة مثاله . وللنسب ايضاً مثلها : فالأطول والأقصر والأكبر والأصغر والمساوي كلها نسب لها مثلها المقابلة لها . وهكذا لكل شيء مثاله ، حتى الاشياء الدنيئة والقدرة لها مثلها .

وهذه المثل منضدة بعضها فوق بعض على نحو تصاعدي يشمل كل منها جميع ما دونه ، إلى ان ينتهي هذا النظام الهرمي إلى مثال الخير ، وهو المثال الأعلى وحقيقة الحقائق وجوهر الوجود ، وجميع المثل تتجه إليه لأنها كلها تلشد الخير وتسمى إليه .

وهذه المثل ليست مادية وإنما هي معاني مجردة خالدة والاشياء المادية إنما تتشبه بها لأنها ناقصة تفتي عاجلاً أو آجلاً . فالاعمال الفاضلة الفردية قصيرة الأجل ، ولكن الفضيلة هي حقيقة خالدة سرمدية .

ومعنى ذلك ان كل موجود فإنما يتعين نوع وجوده وصفه بمشاركته في مثال من هذه المثل وتشبه به . وهذه المشاركة وهذا التشبه عنصران يتفاوتان في الاشياء قوة وضعفاً ولكنها لن يبلغا الكمال ، فإنما الكمال للمثل ، ولثال المثل خاصة ، وهو مثال الخير .

وهكذا فالمثل هي مابيرنا الدائمة وهي النتائج الحقيقية للوجود ؛

وبحصول صورها في أذهاننا يحصل لنا العلم . فهي الموضوع الحقيقي للعلم ، ومعرفتها هي المعرفة اليقينية ، واليها ينبغي ان تتجه الابحاث الفلسفية .

والمثل هي الأسس الاولى للوجود ولا أساس لها ، وهي جوهر الاشياء ولا جوهر فوقها ، ولا يحدّها زمان ولا مكان . فهي أزلية أبدية لا تكون ولا تفسد .

وهي جواهر كلية بسيطة لا تتركب من شيء ولا تنحل الى شيء . فمثال الانسان ليس هذا الانسان الخاص الجزئي الناقص ، بل هو الحقيقة الكلية العامة الكاملة لكل انسان . وكل مثال وحدة قائمة بذاتها لا تعدّد فيها ولا تكثر . ولا يدركها إلا العقل الخالص ، عقل الفيلسوف الذي خصّته الطبيعة بمواهب لا تتوفر لكل انسان ، وكان قد حظي في الزمان الغابر بالرؤية الصحيحة .

وهي مصدر المعرفة ومصدر الوجود وعلة لها جميعاً ، بل هي علة للاخلاق والسلوك . فلأن تعتقد في المثل وتؤمن بها معناه ان تسمى اليها وتتشبه بها وأن تفوض على أسرارها فتقف على كنه الوجود والكائنات . وبذلك تكون فيلسوفاً على الحقيقة ، حكيماً ملهماً مسدّد الخطى في القول والفكر والعمل . هذا هو حدّ الفلسفة عند افلاطون وهذا هو معناها العميق .

وقد تميزت نظرية المثل - الافلاطونية في عهدها الاخير بطابع لم يكن واضحاً في عهدها الاول ، وهو قابلية المثل لأن يشارك بعضها بعضاً ويتفاعل بعضها ببعض . لذلك نجد افلاطون يقول في محاوره « السوفسطائي » وهي من المحاورات المتأخرة ، بوجود خمسة أجناس عليا تقوم بهمة التأليف والربط بين المثل وهي : الحركة والسكون والوجود والهوية والغيرية . فمثال الحركة هو غير مثال السكون ، وهو يتصف بالوجود والذاتية لأن الحركة هي ذاتها ولأنها موجودة ولكنها غير سائر الاجناس الاخرى .

فكل شيء من حيث هو هو يشارك في الوجود ومن حيث هو غير الأشياء
الآخرى يشارك في الغيرية أو اللاوجود .

٧ - الطبيعة

إذا كان عالم المثل هو عالم الحقيقة والكمال فإن عالمنا هو عالم الخداع
والنقص . ان عالم المثل عالم حقيقي حتى ولو لم توجد الكائنات المحسوسة .
بل ان الكائنات المحسوسة لا تنشأ إلا عن مشاركة جزء من المادة في
مثال من المثل ، فيتشبه به ويحصل على بعض كاله ، ولكنه ليس هو إياه .
إذ لا يمكن ان تكون المحسوسات هي المثل لأنها متصلة بمادة والمثل
معقولة . ان عالم المثل هو عالم الافكار والمعاني ، وهذا مبرر شرفه وكاله ،
وأما عالم المادة فهو عالم الأشباح والظلال ، وهذا مبرر خسسته ودناءته .
ولأفلاطون اسطورة رمزية تسمى اسطورة الكهف يصور لنا فيها مقام
عالمنا ، عالم الأشباح والظلال في مقابل عالم الحقيقة :

تخيّل طائفة من الناس يعيشون في كهف مظلم تحت الارض منذ نعومة
اظفارهم والسلاسل في أعناقهم وأرجلهم لا يستطيعون حراكا ولا يمكنهم
الالتفات الى وراء . وتصور قيساً من نار ملتبهة ينبعث من خلفهم فيلقي
على الجدار الذي امامهم ظلالاً متحركة لأن اناساً يمشون ، بعضهم يتكلم
وبعضهم صامت . ان اصحاب الكهف يحسبون هذه الظلال حقائق ويظنون
انها تتكلم . هب ان احدهم قد "حل" وثاقه وأطلق سراحه فتمكن من
الالتفات الى وراء . ان الضوء المفاجيء قد يبهير بصره ، ولربما بدت له
الحقائق التي يراها الآن اقل صحة من الظلال التي تعود رؤيتها من قبل ،
لكنه سيألف اشياء العالم وسيراهما على حقيقتها بل سيتمكن اخيراً من
رؤية الشمس ذاتها واهية الحياة والضوء . انه لن يخشى النور بعد ذلك
بل سيعشقه ولن تبدو له بعد الآن حياة الكهف حياة سوية .

ترى ، ماذا سيحدث له لو عاد الى اصحابه في الكهف وأخبرهم بما رأى ؟ سيسخرون منه بالطبع ! وهكذا حال الفيلسوف في عالمنا المحسوس ، عالم الأشباح والظلال . قلن يدرك النور من تمرغ في الظلام ، ولن يفهم الحقيقة من عاش في الاشباح . فلا يعرف الحق إلا ذووه ، فلحق رجالا

فالوجود الحقيقي انما هو وجود عالم المثل ، وأما عالمنا فهو عالم الظلال والأشباح . ومن اجل ذلك فهو عالم مقارن للعمدم . فالتسليم بوجوده الموهوم تخاذل يريأ الفيلسوف بنفسه عنه . واذا كان فيه صُبابَة من حقيقة فانما هي حقيقة مستمارة تأتي اليه من عالم المثل .

ويرتب على ذلك ان المادة التي صُنع منها عالمنا ليست حقيقية لأنها ليست وجوداً ، وانما هي سلب للوجود . انها عدم محض وخلاء مطلق لا صورة لها ولا قوام ، ولكنها تقبل كل صورة تحل فيها لتتقوم بها مؤقتاً وتكون جسماً . فهي رخوة غير متماسكة وتتحرك بلا نظام حركات مضطربة آلية لا غاية لها ولا تدبير في سيرها . وهذه المادة هي اصل العالم ومصدر الكثرة فيه وسبب ما نرى فيه من نقص وخسّة .

وهذه المادة أزلية قديمة لا أول لها . وقد ذكر افلاطون في محاوره « طيماوس » التي خصصها لتفسير التكوين الطبيعي للعالم ان الصانع قد أحدث العالم محتدياً المثل ، اي انه ركب الصور للأخوذة عن المثل في المادة الخام . ومن هنا ظن البعض أن افلاطون يقول بحدوث العالم ، والواقع ان الصانع الذي يشكل موجودات العالم محتدياً المثل انما يضع الصور في المادة المضطربة القديمة التي كانت موجودة قبل تشكيل الصانع لها . ان الصانع مصدر الخير ، والخير لا ينتج إلا عن الخير ، فكيف يمكن اذن ان يخلق المادة وهي شر ومصدر للشر ؟ ثم انه لا معنى للقول بالقبلية او البعدية قبل ان يخلق الزمان . فقد كان زمان الموجودات الارضية من عمل الصانع ، إذ انه قد وُلد بيلاد العالم المحسوس ، فهو الصورة المتحركة

للأبدية التي يتصف بها العالم المعقول . ان الصانع قد ركب الزمان في العالم أسوة بصورة الإله كرونوس (Chronos) وهذا الإله يشير أيضاً الى الزمان الأزلي ، فكأن الصانع بذلك قد منح العالم صورة الأزلية . وقد غاب عن الذين يفسرون موقف افلاطون في « طيماوس » على خلاف ما ذكرنا ان افلاطون يستخدم الأسلوب الرمزي في كلامه على تكوين العالم الطبيعي ، مما أدى بهم الى عدم فهم موقفه الحقيقي بصدد مشكلة قدم العالم وحدوثه ، فذهبوا في تفسيره كل مذهب .

هذا وإن المادة كانت تتحرك حركة عشوائية غير منتظمة الى ان تدخل الصانع لكي ينظم الكون تنظيمًا يظهر فيه أثر العقل والروية والغائية . فتكوّنت جزئيات من المادة وتميزت في اشكال مختلفة حتى نشأت العناصر الاربعة ^(١) . ومن هذه العناصر خلق الصانع جسم العالم وجعله على شكل الكرة احسن الأشكال ، كما صنع الاشياء فيه على نماذج المثل . لكن جميع الاشياء في العالم تظل تقليدًا ناقصًا لعالم المثل او نقلًا مبتورًا عنه . وهذا النقص لم يكن لعجز في الصانع بل لضعف في طبيعة المصنوع . فإذا لم يكن العالم كاملاً فهو قريب من الكمال على كل حال ، او قل هو تقليد للكمال ، فليس في الإمكان أبدع مما كان .

وهذا العالم متحرك ومحسوس ، لذلك فقد خلق الصانع الزمان وجعله صورة متحركة للأبدية . واختار مقاييس للزمان حركات الكواكب ، وقد انشأ لها الصانع اجساماً نارية كروية خالدة وجعل لها نفوساً خالدة تقوم بتحريكها حركات منتظمة خالدة ، ولذلك تسمى بالأحياء الخالدة .

والعالم واحد له افلاك بعضها في جوف بعض . والأرض تقوم في مركز العالم بأغوارها وقنواتها العميقة . وهي مقر الجنس البشري وموطن الحيوان

والنبات ، وهذان الجنسان إنما جعلنا لغذاء الإنسان ومنفعته . والارض كروية الشكل ثابتة في مكانها لا تتحرك . والأفلاك تسعة كل واحد منها في جوف الآخر على الترتيب التالي : الثوابت وزحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، ويقع خارجها جميعاً الفلك المحيط ، وكلها تدور حول الارض ولكل منها نفس تحركه .

ويختلفون هذا العالم في الشرف والرتبة . فكلما اقترب من فلك الثوابت ازداد سمواً ورفعة ، وكلما اقترب من الارض ازداد خسة وقل نصيبه من الطهر . وبهذا الوضع كان العالم تام النظام .

وقد اختار افلاطون لهذا العالم : الشكل الكروي والحركة الدائرية عملاً مبدءاً « الأفضل » الذي ينادي به : « افضلية الحركة الدائرية والصورة الدائرية على غيرها من الحركات والصور ؛ افضلية الشكل الكروي على غيره من الاشكال والحجوم ؛ افضلية ما هو فوق على ما هو تحت ؛ ما هو على اليمين على ما هو على اليسار ؛ ما هو أمام على ما هو خلف ، ا

٨ - النفس

وإذا كان العالم متحركاً كما تقدم فلا بد له من علة تحركه . وهذه العلة هي نفس العالم او النفس الكلية . ويعرفها في « النواميس » بأنها الحركة التي تحرك ذاتها بذاتها لا بعلة اخرى زائدة عليها . لأن كل ما هو متحرك فإنه يفترض علة لحركته ، وهذه العلة معلولة لعلة اخرى . وهكذا دواليك حتى ينتهي الأمر الى حركة لا علة لها .

فالعالم إذن كائن حي له نفس تحركه مركزها في وسط العالم وتمتد من خلاله حتى تحيط به من جميع اطرافه ، بل انها لتتجاوزه وتذهب بعيداً حتى يكون لكل كوكب من الكواكب الثابتة والسيارة نفس تخصه . وهذه الأجرام جميعاً هي كما قلنا احياء خالدة لأن اجسامها

ونفوسها خالدة ولأنها من صنع ذلك الإله الخبير الذي يأبى لإفساد ما أبدعه أحسن إبداع . وخالودها هو السبب في خلود اجسام الكواكب التي تتحرك بها حركة دائرية منتظمة خالدة .

وأدنى انواع الكائنات هي الاحياء الفانية من الحيوانات والنبات ، اجسامها ونفوسها على حد سواء .

لكن بين نفوس الكواكب الخالدة ونفوس الاحياء الفانية من نبات وحيوان توجد النفس الإنسانية إذ يجتمع فيها الخلود والنناء على السواء . ولقد اتاهم الخلود هبة من الإله الصانع الذي خلقها من بقايا نفس العالم . ففي النفس الإنسانية إذن قيس من نفس الكل ، نفس العالم . فهي خالدة بخلودها . هذه هي النفس الناطقة ، كما فيها أيضاً شوائب غير عاقلة امتدت إليها من الكواكب ، فكان منها الجزء الغضبي والجزء الشهواني ، وهما الجزآن الفانيان من النفس الانسانية .

ففي الإنسان إذن ثلاث نفوس :

أ - النفس الناطقة . وهي جوهر روحي نجعل حقيقته . وهي خالدة كما اسلفنا وتتولى إدارة الجسم وقيادته الى الرفعة بالتفكير ، ومقرها الرأس لشرفها وعلو منزلتها . ووجودها في الرأس هو السبب في أن الإنسان يسير منتصب القامة - لا منحنيًا كسائر الحيوانات - وذلك لأن العنصر السامي الخاص به يجذب بقية جسمه الى أعلى . وليس لهذه النفس من هم سوى البحث عن وسيلة الى الخلاص من سجن البدن والرجوع الى عالمها الإلهي الشريف .

ب - النفس الغضبية . وهي مادية فانية ومقرها الصدر ، وهي متصلة بالنفس الناطقة بواسطة العنق ، وهذا الاتصال هو العلة في خضوعها للعقل في بعض الاحيان وإذعانها لأوامره ونواهيه .

ج - النفس الغاذية الشهوانية . وهي كسابقتها مادية فانية ، ومقرها البطن ، وهي مرتبطة بالأكل والشرب والإشتهاء والإلتذاذ والتألم . وهذه النفس هي مصدر الانتاج في الكائنات الحية . وهي ادنى من النفس الغضبية لأنها محرومة من كل تفكير ، لكنها مستعدة لقبول انعكاس تعقلات النفس الناطقة وأوامرها ، وإلى هذا الانعكاس يرجع الفضل في كبح جماح هذه النفس أحياناً عن الانغماس في الشهوات .

وهناك صراع دائم بين الجانب العاقل الخالد والجانب المادي الغائي من الإنسان . ويحاول العقل السيطرة على الشهوة مستعيناً بال عاطفة ، فان تقلب العقل صعدت النفس الى حيث تعيش النفوس الخالدة لتتعم بصحبة الآلهة والنفوس الخيرة . اما اذا تقلب الجزء غير العاقل فيها فمصيها التناسخ في ابدان تتدرج من الأعلى الى الأدنى بحسب نصيبها من العقل . ففي « طيلوس » يفترض افلاطون ان النفوس جميعاً كانت في الاصل ذكوراً ، لكنها تتدهور خلال التناسخ حسب الحياة التي تحياها على هذه الارض . فان ابتعدت عن التمسك بالعقل ولدت في جسم امرأة ، ثم في جسم حيوان ، ولا تزال تنتقل من حيوان الى آخر حتى تطهر من ادناسها وتعود الى الكوكب الذي صدرت عنه .

والنفس الإنسانية هي مقر المثل ومصدر المعرفة . فهي عندما كانت في عالم المثل اطلعت على كل شيء . لكنها عند حلولها في البدن نسيت معارفها ، وبشيء من الانتباه يمكنها ان تتذكر ما كانت قد اطلعت عليه . ولإثبات ذلك فقد استدعى سقراط خادم مينون وأخذ يلقي عليه بعض الأسئلة الهندسية . ولم يكن للخادم معرفة سابقة بالهندسة ، ومع ذلك فقد تمكن - بطريقة سقراط في الحوار وقدرته على توجيه الأسئلة - ان يتوصل الى هذه المعرفة . وهكذا انقذت المعرفة في نفس من كان يبدو انه معدوم منها ، مما يدل على انه كان على علم سابق بها . وبما ان النفس قد

اطلمت على كل شيء في عالم المثل فهي تحيط علماً بكل شيء ، لكنها نسيت عند اتصالها بالبدن . وهكذا فالمعرفة تنبع من باطن النفس لا من خارجها . وبعبارة أخرى ان المعرفة تذكّر والجهل نسيان .

خلود النفس . - والنفس خالدة كما قلنا . وقد وقف افلاطون محاوراً « فيدون » لإثبات خلودها . ففي هذه المحاوره يسوق عدة أدلة أهمها :

ان النفس إلهية ، والخلود صفة من صفات الآلهة . وقد كان اليونان يعمنون بما هو إلهي وخالد انه لا يكون ولا يفسد . فلذا كانت النفس إلهية خالدة فليس لها أصل نشأت عنه ولا هي تخضع للفساد .

ثم انها تدرك المثل العقلية الخالدة . ومن ثم فهي تشابه طبيعة المثل من حيث بساطة تكوينها فلا تتعرض للفساد او للانحلال الذي يصيب الاجسام المركبة .

ومن هذه الأدلة ايضاً ان النفس تشارك في مثال الحياة ، وما يشارك في مثال الحياة فلا يقبل ضدها وبالتالي لا يدركه الموت .

ويتحدث في محاوره « الجمهورية » عن الثواب والعقاب الذين ينتظران النفوس . فبعد الموت تحاكم النفوس وتترك لاختيار مصيرها ، ويساعد النفس في هذا الاختيار مقدار ما حصلت عليه من التعقل والتفكير الفلسفي في الحياة العاجلة ويسوق افلاطون تأييداً لرأيه اسطورة إر بن ارمينيوس البامفيلي (Erle Pamphylien) الذي عاد الى الحياة بعد ان أدركه الموت قروى ما شاهده من ثواب عادل للأخيار ومن عقاب قاسٍ ينتظر الظالمين والافرار .

وهناك دليل آخر يدعم به افلاطون براهينه السابقة ينحصر في بيان ما يترتب على إنكار الخلود من هدم للمعايير الخلقية : اذ لو كانت النفس فانية لسقطت الحقوق والواجبات جميعاً ولما كان هنالك من مبرر لاحتمال

الفقر والمرض والحرمان من اجل الفضيلة والعدل . ولو صح انه الانسان ينفى حقاً لكأن الاثمرار أسعد الناس حين يدركهم الموت ، اذ سوف يتخلصون عندئذ من أجسامهم ونفوسهم وآثامهم ، وهذا غاية القبح .

٩ - الاخلاق

تحتل المشكلة الاخلاقية مكانة رئيسية في تفكير افلاطون ، حتى لقد تداخلت وجملة ببحوثه في الجوانب الأخرى من فلسفته . وقد جاء اهتمامه بالاخلاق في وقت مبكر جداً نتيجة لاتصاله بأستاذه سقراط الذي كانت الاخلاق شغله الشاغل وال محور الذي تدور حوله مجمل افكاره وآرائه .

لقد كانت الاخلاق قبل سقراط مجموعة من الحكيم والنصائح تجري على ألسنة الشراء والحكام او أقوالاً مأثورة في بعض نواحي الاخلاق لا تبلغ من الإحاطة والتأسك ما يجعلها علماً قائماً بذاته له منهجه وأسس .

لكننا كلما اقتربنا من سقراط تحدثت المشكلة الاخلاقية واتضح معالمها وتباورت مباحثها . حتى اذا ما وصلنا الى السوفسطائيين وسقراط برز عنصر جديد في الاخلاق وهو المقابلة بين أخلاقية المنفعة وأخلاقية المبدأ ، أخلاقية الغريزة والطبيعة وأخلاقية العقل والقانون ، بين نسبية المعاني الخلقية وتغيرها بتغير الزمان والمكان والشخص والحالة وبين إطلاقها وثباتها وسرمديتها .

وعندما جاء افلاطون كان الخلاف حاداً بين هاتين المدرستين المتعارضتين: مدرسة السوفسطائيين من جهة ومدرسة سقراط من جهة أخرى . ولم يكن له خيار في الأمر . فهو تلميذ سقراط وصديقه ، بأرائه تغذى وفي مدرسته تخرج . لذلك كان أكبر مه ان ينضم اليه في حملته على السوفسطائيين وينبهي للرد عليهم . فكتب محاوراته دفاعاً عن مبدأ العقل والقانون وتفضيله على مبدأ اللذة والمنفعة والغريزة .

ولقد بدأ افلاطون فلسفته الاخلاقية من حيث انتهى سقراط . ولذلك فقد غلبت على محاوراته الاخلاقية المبكرة روح استاذة التي تميل الى تقديس الواجبات والقوانين المتوارثة باعتبارها حقائق إلهية أزلية ثابتة مطلقة لا تتغير ولا تتبدل .

فنحن نجد في « برتاغوراس » مثلاً ان القانون ليس كما يظن السوفسطائيون مجرد تعاقد او اتفاق بين طرفين متساويين ، وإنما هو رابطة عضوية وثيقة العرى بين الفرد والدولة ، كرابطة الإبن بأبيه او رابطة العضو بالجسد . كما نجد في « غورجياس » ان غاية الحياة الاولى ليست في إرضاء الشهوات وإشباع اللذائذ ، وإنما هي في عمل الخير والتمسك بأهداب الفضيلة . فحياة اللذة مدعاة للشقاء لأنها لا تقف عند حد معقول ، بل تظل تطلب المزيد على الدوام كقربة مثقوبة لا يمكن ملؤها او كالصاباب بالجرب لا يزيده الحك إلا طلباً للحك واستحساناً عليه . ويفرق افلاطون في هذه المحاوره ايضاً بين لذائذ مفيدة ينجم عنها تحقيق الخير والفضيلة ، وأخرى ضارة لا تأتي بخير . والحياة المثلى في رأيه إنما تتوقف على حظ صاحبها من الفلسفة ومدى تقديره لقيم الاشياء . فكلما انتصر فيه نداء العقل والفلسفة على منطق القوة واللذة ، علامقامه وسما قدره حتى يبلغ السعادة القصوى والبهجة العظمى . ويكرر افلاطون هذه المفاضلة بين حياة اللذة والبطش وحياة التفلسف والعقل في كثير من المحاورات ، ولا سيما في « الجمهورية » و « فيدون » .

ولا يسبقن الى وهم احد ان افلاطون يلغي الحياة الحسية ، كلا إنما هو يقول بإخضاعها للعقل ويرى في ذلك نوعاً من النظام الذي يذعن فيه الأدنى للأعلى . ففي محاوره « فيلايوس » (Philèb) وحين يمرض لمبحث الخير ، يقول ان الحياة السعيدة هي الحياة التي تجمع بين العقل واللذة بنسبة معينة وبحيث يكون العقل هو العنصر الذي تكون له الغلبة . بل اننا لا نجد في هذه المحاوره المتأخرة تلك النظرة المزمته التي نجدها في

محاوره « فيدون » المبكرة والتي كانت تصف الخير بأنه انما يكون في الخلاص من الجسد واستئصال الشهوات والقضاء على الحياة الحسية ، وإنما نجد فيها استطراداً لما ذكره افلاطون في « الجمهورية » من ان الخير لا سبيل الى تحقيقه إلا بتنظيم العلاقة بين قوى النفس المختلفة في حياة متوازنة تتلقى من اللذات أفضلها . .



وهكذا ، فكما ان افلاطون يهاجم السوفسطائيين في نظرية المعرفة نراه يهاجم أيضاً في مذهبه في الأخلاق ، وذلك لارتباط الأخلاق بالمعرفة ولأنها يلعبان دائماً من نظرة واحدة ويصدران عن مبدأ واحد . فالسوفسطائيون ينكرون القانون الخلقي ويؤكدون ان الفضيلة هي اللذة وان للإنسان الحق في ان يعمل ما يراه لذيذاً . فيردّ افلاطون بأن هذا القول يجعل الحق نسبياً والفضيلة شخصية والأخلاق بلا قانون . وهذا غاية الجبل . ومن شأن هذا القول أيضاً ألا يفرق بين الخير والشر ، وبالتالي لن يكون لكل منها حقيقة ذاتية ثابتة . وهذا ما يؤدي الى هدم الأخلاق والمجتمع ويقضي على الانسان . لذلك عمد - كأستاذ سقراط - الى تحديد الفضيلة وقال بوجود ماهية خاصة لها ، ونادى بأن هذه الماهية انما يكتشفها العقل ، والعقل حظ عام مشترك بين الناس جميعاً .

فالفضيلة في نظر افلاطون هي العمل الحق على ان يكون صادراً عن معرفة صحيحة بقيمة الحق . هذه هي الفضيلة الفلسفية التي تقوم على الروية والتفكير وعلى فهم المبدأ الذي ينبثق عنه السلوك . وأما عمل الحق دون فهم لقيمه او إدراك لعنايه ، بل بدافع من التقليد او بحكم المرف والمادة او طلباً للزلفى والسلطان ، فكل اولئك ليس من الفضيلة في شيء ، او قل هو الفضيلة العامة التي ليس لها من الفضيلة إلا اسمها ولا من شاعرها إلا رسمها . فبشئت من فضيلة ...

ويقسم افلاطون الفضائل بنحسب انواع النفس الثلاث :
فالنفس الناطقة انما فضيلتها الحكمة .
والنفس الغضبية فضيلتها الشجاعة .
والنفس الفاذية الشهوانية فضيلتها العفة .

ومن تتناسق هذه الفضائل وتعاونها وسيورها بانسجام ووثام تنشأ فضيلة
رابعة هي العدالة ، لأن العدالة معناها إعطاء كل ذي حق حقه .

وبهذا التناسق في قوى النفس وهذا التوازن الذي فيه خيرها الطبيعي
تتحقق سعادتها ، اذ السمادة معنى يقبح من باطن النفس ولا يرد عليها
من خارج . فالعادل سعيد مهما اشتدت عليه ظروف الحياة او أخنت
عليه بكلها ، ومهما أصابه من عنت الحكام او نكير الطعام . فالنقى انما
هو غنى النفس البرينة من الشر ، المتطلعة الى الخير ، المثقفة بالعلوم والمعارف ،
المتشوقة الى الجمال المطلق ، تنزو الى مشاهدته نقياً خالصاً من كل زيف ،
بعيداً عن شوائب الحس والزمان . اذ الجمال على انواع . وكذلك الحب .
ان الحب هو طلب الجمال ، وله درجات ثلاث :

اولاها حب الجمال الجسيمي ، وهو غير جدير بالفيلسوف .

والثانية حب الجمال الروحي والمعنوي ، وهو حب شريف .

لكن أسمى انواع الحب هو حب الجمال المطلق ، الجمال الخالد ، مصدر
كل جمال وبهاء . هذا هو « الحب الافلاطوني » ، الحب الذي يثير في النفس
ذكريات المثل والفردوس المفقود ويشيع فيها الطمأنينة والامن واليقين ...

١٠ - السياسة

ان المشكلة الفلسفية الحقيقية بالنسبة الى افلاطون انما هي في الواقع
مشكلة سياسية . انها مشكلة المدينة التي لا يجد الفيلسوف فيها مكاناً
لنفسه . فجميع المدن في عصره - بل وفي كل عصر - مضادات للمدينة

الفاضة غير جديرة بالفيلسوف . فكيف السبل الى المدينة الفاضلة على هذه الارض الفاسدة ؟ وكيف يمكن للفيلسوف ألا يكون غريباً في وطنه ؟ هذه هي المشكلة بالنسبة الى افلاطون .

فليس عجباً اذن ان يذهب الى ان المدينة الفاضلة انما هي المدينة التي تتألف من اولئك الذين يعرفون . فالمعرفة هي الاساس الصحيح للأوحد للمدينة ؛ فلا مدينة إلا بالعلم ، ولا حكومة إلا حكومة العقل والفلسفة .

ولكي نفهم التفكير السياسي عند افلاطون يجب ان نعلم أولاً ان هذا التفكير متضمن في تفكيره الاخلاقي . فليست السياسة عنده سوى امتداد للأخلاق ، بل ان غاية الاخلاق عنده هي . المدينة - او الدولة - لا الفرد . فالفرد صورة مصغرة من الدولة ، او قل ان الدولة انما هي انسان كبير . هذا هو الطابع العام للسياسة عند افلاطون وأرسطو والفلاسفة اليونان جميعاً . ومن هنا لم تكن عندهم تفرقة واضحة بين السياسة والاخلاق .

وكما حمل افلاطون على السوفسطائيين إنكارهم قوانين الاخلاق فكذلك حمل عليهم إنكارهم قوانين الدولة وقولهم انها من اختراع الضعفاء لحماية انفسهم من بطش الاقوياء . فعلى الاقوياء ان ينفذوا القوانين كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً وأن يستأثروا بالسلطة لأن الحق للأقوى . فيعلن افلاطون ان السلطة لا يجوز إسنادها الى القوة الوحشية الطامعة وإنما يجب إسنادها الى القوة المصحوبة بالتمقل والعلم بالسياسة والمهارة التي تمكن صاحبها من تحقيق المدينة الفاضلة .

ولما كانت الدولة عند افلاطون صورة مكبرة للفرد ، وكانت القوة الناطقة في الفرد سيدة القوى جميعاً ، فيجب ان تكون الفلسفة - وتقابل القوة الناطقة - هي القوة الموجهة للدولة وأن تكون عقلها المفكر . وعلى ذلك فان رئيس الدولة يجب ان يكون فيلسوفاً .

وقد دون افلاطون آراءه السياسية في ثلاث محاورات وخطاب مقطوع بصحة نسبته اليه : محاوره « الجمهورية » و « النواميس » والخطاب السابع . والمحاورتان الأوليان تتشابهان نوعاً ، وأما الخطاب السابع فيختلف عنها اختلافاً بيناً . وليس من شك في ان اهمها جميعاً « الجمهورية » ثم « النواميس » . ففي « الجمهورية » 'يعنى افلاطون بالعدالة من جهة المعرفة الخالصة ، وفي « النواميس » 'يعنى بها عملاً وتطبيقاً . فالناحية الواقعية فيها تنطى على التفكير النظري لأنها استدراك لأحلام الفيلسوف التي لم تتحقق . فقد عدل فيها - او كاد - عن العقل الذي يبصر الحقيقة الى القانون الذي يحقق النظام وفيها تفضيل للشرائع التي يجب على الحاكم اتباعها بعد ان كان الامر متروكاً لحكمة الفيلسوف .

يقرر افلاطون اولاً ان الاجتماع ظاهرة طبيعية في حياة الناس ، فهو وليد شعور الفرد بالحاجة الى الآخرين لتأمين ما يحتاج اليه من غذاء وكساء ومسكن . فالمجتمع قائم على التكافل والتضامن بين الافراد ، لا على الخوف والقهر . فالتعاون قديم قدم الانسان . وقد أدى تطور التعاون بين الناس الى قيام التبادل التجاري والتوسع فيه ، فنشأت التجارة الخارجية واستعمل النقود . وأعقب ذلك الحاجة الى الكاليات والانغماس في الترف واستجادة الصنائع لتلبية رغبات الحضارة . فاشتدت التنافس بين الناس واثارت الأحقاد ونشأت المنازعات واشتعلت الفتن . لقد اختلف النظام وضاعت المبادئ وفسدت مقاييس العدالة . وبما « جمهورية » افلاطون سوى محاولة ترمي الى إقرار النظام وبعث العدالة الصحيحة في مدينة مثالية فاضلة تكون مقاليد الحكم فيها بأيدي الفلاسفة وتحدد طبقاتها تبعاً لأنواع النفس الانسانية الثلاث : النفس الناطقة والنفس الغضبية والنفس الغاذية الشهوانية . فالنفس الناطقة تقابلها طبقة الفلاسفة ، والنفس الغضبية تقابلها طبقة الخند ، والنفس الغاذية الشهوانية تقابلها طبقة الصنائع والمخترفين وأصحاب المهن . وهذه الطبقات في نظره هي بدرجات المادان

أشبه : معدن الذهب يمثل طبقة الفلاسفة ، ومعدن الفضة يمثل طبقة الجنود ، ومعدن السحاس يمثل سائر أفراد الناس .

حكومة الفلاسفة . - لقد كانت فكرة العدالة محور فلسفة افلاطون الاخلاقية ، فليس عجيبي أن تكون كذلك محور فلسفته السياسية ما دامت السياسة امتداداً للأخلاق عنده . فإذا كانت العدالة في الفرد لا تتم ما لم يسيطر العقل ويحكم ، فكذلك العدالة في الدولة لا تتم ما لم يسيطر الفلاسفة وما لم تلتق مقاليد الحكم اليهم . فلا يمكن القضاء على شقاء النوع الانساني وتصحيح اوضاعه إلا بحكومة الفلاسفة ، لأن الفلاسفة وحدهم يعرفون الفضيلة في القول والفكر والعمل ويمكنهم سن الأنظمة والقوانين التي ترشد اليها وتساعد على تحقيقها ، وتبهيء افضل السبل لإقامة جمهورية مثالية رائدها الحق والخير والجمال .

ونجد في كتاب « الجمهورية » الطريقة التي يتم بها اختيار طبقة الفلاسفة واستصفاؤهم من سائر اصناف المواطنين على اساس الكفاية والتجربة التربوية . فلا علاج للمجتمع إلا بحكومة الفلاسفة ، ولا سبيل الى حكومة الفلاسفة إلا بنظام من التربية يبدأ من الصغر ويرشد الناس الى ما يجب عليهم عمله أي الى فن الحياة وفن السلوك وفن الحكم . وقد توسع افلاطون في الكلام على نظام التربية ومناهج التعليم حتى لقد ذهب الكثيرون الى ان « الجمهورية » ليست كتاباً في السياسة بقدر ما هي كتاب في التربية والتعليم .

يرى افلاطون ان تربية الاحداث - ذكوراً كانوا او اناثاً - هي التي تكشف عن عبقرياتهم وتساعد على استخلاص الصالح منهم . فيجب ان تتولاهم منذ نعومة اظفارهم بالتربية والرعاية في جو نقي طاهر وتدريبهم على الرياضة البدنية ونهذب نفوسهم بالآداب والفنون - ولا سيما الموسيقى - حتى يشبوا على درجة كاملة من القوة الجسمية والعقلية والروحية والإحساس بالجمال . ويُستعان على هذه التربية بتعليمهم اصول الدين والايمان بالله وخلود

النفس ، وفروى لهم القصص التي تحت على الخير والفضيلة ومكارم الاخلاق والمعادات ، ونمّع عنهم اساطير هوميروس وهزيرود التي تولد الخوّار وتشبط الغزائم بما ترسم من احوال الحروب وقطاعة الموت ، وتشوّه اسماء الالهة بما تنسب اليهم من خصومات ونقض عهود وخداع وأفعال قبيحة . كذلك يستبعد الشعر المسرحي الذي تفرض طبيعته على الشاعر التلون بألوان مختلفة من الشخصيات والطباع .

فإذا ما بلغوا سن الثامنة عشرة انقطعوا عن الدراسة وانصرفوا الى التمرينات العسكرية والرياضة البدنية طوال سنتين . حتى اذا بلغوا العشرين وقد أزهقت اذواقهم بالموسيقى والفنون الجميلة وقويت اجسامهم بالتربية الرياضية اصبحوا اهلاً لتلقي العلوم والمعارف . فتجري لهم الدولة - ذكوراً وأنثاء - امتحاناً لانتقاء القادرين على تحصيل العلوم العقلية . فالمتخلفون في هذا الامتحان تسند اليهم الاعمال اليدوية ويضّمون الى طبقة العمال . وأما الناجحون فيتابعون دراساتهم ويتلقون العلوم الرياضية والفلسفية لمدة عشر سنوات اخرى . فإذا انقضت ، اجرت لهم الدولة امتحاناً عسيراً لا يفوز فيه إلا اقلية من الاكفاء . فالمتخلفون يولون مناصب في الجيش وشؤون الدفاع . وأما النخبة الممتازة فيدرسون الفلسفة خمس سنوات اخرى توكل اليهم بعدما القيادة الحربية والحكم في الدولة ، ويتمرسون بتجارب الحياة العملية خمس عشر سنة هي الحكم الاخير لقدراتهم . فإذا بلغوا الخمسين - وقد هذبهم السن والخبرة وصفت مشاعرهم وامتألت نفوسهم بالعلم والحكمة - اصبحوا جديرين بأن يتسلموا زمام الحكم بأيديهم . هؤلاء هم الفلاسفة الرؤساء والرؤساء الفلاسفة . انهم غايقتنا المنشودة ومثلنا الأعلى في رياسة المدينة الفاضلة ، فيتناوبون الحكم افراداً ومجالس .

واجبات الحكماء . - ويجب على الحكماء ان يتحرروا من حب المال والجاه والاسرة ، وأن يندردوا انفسهم لخدمة البلاد فقط . فلا يجوز ان يكون

لهم مال او عقار او مخزن ، ويلبغى أن يتفاضوا اجرهم بحيث لا يحتاجون الى مزيد ولا يستفضلون . وليربأوا بأنفسهم عن الحرص والطمع بالذهب والفضة ، وليعلموا أن نفوسهم تذخر بركاز سماوي دائم يُغني عن الركاز الترابي الفاني .

ولا يخص اجدم نفسه بامرأة معينة ، بل يجب ان تكون جميع النساء حقاً مشاعاً للحكام لا يستأثرون بامرأة دون اخرى استثنائاً يجعل منهم أرباب أسر لا رجال حكم . ويجب ألا يعرف والد ولا مولود والده حتى لا يبذل جهد في غير مصالح الدولة ولا تتكون عواطف وميول خارج مصالح الدولة . فالدولة هي المطلب الاول والاخير ، فيجب ان تستقطب كل جهود الحاكم وأن تستغرق جميع عواطفه وميوله . وهذا النظام الصارم من الحياة على المشاع والحرمان من الملكية وتكوين الاسرة خاص بطبقة الحكام والمسؤولين حتى لا يستهتروا بأمور الدولة او يفرطوا بمصالحها . وأما عامة الناس ممن يعملون في الزراعة والصناعة والتجارة فلا يحفل بهم افلاطون اطلاقاً ولا يعنى بأمر تربيتهم ، وإنما هو يكتفي بأن يقول ان عليهم ان يتبعوا الاخلاق الشعبية والأوضاع التقليدية . ولذلك فلا تسري عليهم احكام هذا النظام الدقيق القاسي . فكما علا مقام المرء كثرته واجباته وقل مناعه . فأقدار الرجال إنما تقاس بما يفرضون على انفسهم من اعباء وواجبات .

مضادات المدينة الفاضلة . — هذا وان النموذج الذي قدمه افلاطون للمدينة الفاضلة نموذج مثالي لا سبيل الى تحقيقه ، بل انه حتى ولو تحقق فليس ثمة ما يكفل استمرار بقائه . هناك تتقلب المدينة الفاضلة الى مضاداتها حيث تطفئ بعض الفئات على بعض وتتحكم الشهوات وتسوء الأخلاق ، ويضعف الدين وينشأ عن ذلك حكومات لا يقرها افلاطون . وهذه الحكومات هي :

أ - مدينة التغلب (Timocratie) وهي حكومة تسيطر فيها الحماسة والقوة القضائية على العقل والمنطق وتتم بالمجد الحربي والشرف العسكري . فيضعف شأن الفلاسفة ويتحول الحكم الى طلاب منفعة يسعون الى اللزاء ويتعاونون على استغلال الشعب . فتلسود الشهوات ويكثر اللصوص ويفسد الحكم ، فينتقل عندئذ الى الاقلية الغنية وهي حكومة اليسار .

ب - مدينة اليسار ويسمى افلاطون حكومة القلة (Oligarchie) وهي حكومة الاغنياء ورجال المال الذين ينفردون بالسلطة ويسيطرون على مرافق الحياة جميعاً ويستأثرون بخيراتها من دون سائر المواطنين . وفيها تطفئ شهوة المال والتسلط على حب العقل والشجاعة ويوسد الأمر لغير اهله . ومن الطبيعي ان يؤدي انقسام الدولة الى فئة قليلة تتركز في ايديها الثروة وأكثرية فقيرة ليس لها من الامر شيء - الى صراع ينتهي بانتصار الاغلبية الفقيرة واستيلائها على الحكم ، فتشهد بذلك لقيام المدينة الجماعية .

ج - المدينة الجماعية (Démocratie) وهي حكومة الكثرة التي قصد اهلها أن يكونوا احراراً متساوين ، يعمل كل واحد ما شاء لا يمنع هواه في شيء أصلاً . ولذلك تسود فيها الفوضى ويطلق العنان لجميع الشهوات . وتهتك الحرمات ، ويزداد عدد الفقراء ، ويشد التنابذ وتزول الوحدة والنحابة ويأبى الجميع الخضوع لأي نظام او قانون . وهذا التدهور يؤذن بقيام المستبد الحاكم بأمره .

د - مدينة الحاكم بأمره (Dictature) وهي حكومة الفرد يذل الاجرار ويفتك بالمصلحين ويبث عيونه في كل مكان ، ويتخذ بطانة من الاشرار والجرمين والسفلة . وفي عهده يكثر النفي والتشريد وإزهاق الارواح وابتزاز الاموال بالقوة للإتفاق على الحاشية وبطانة السوء .

ومن الواضح ان أسوأ انواع الحكومات عند افلاطون إنما هي الحكومة

الجماعية التي يخلط فيها بين الديوقراطية والفضوية بحسب الاصطلاح الحديث . كما ان خير هذه الحكومات عنده هي المدينة الفاضلة التي يكون رئيسها فيلسوفاً . فشتان بين سعادة الحاكم الفيلسوف وأهل مدينته وبين شقاء المدن المضادة للمدينة الفاضلة وأهلها . فالحاكم الفيلسوف هو خير الحكام ، وأهل مدينته أسعد أهل ورعية .



والخلاصة ان بناء الدولة عند افلاطون كما عرضه في « الجمهورية » بناء هرمي الشكل في قمته الحاكم الفيلسوف يماونه طبقة من الحكام . وفي وسطه طبقة الجند تدافع عن الديار وتحمي الدمار . وفي قاعدته طبقة العمال والصناع والتجار . هذه هي المدينة الفاضلة . انها جماعة متسقة اتساقاً موسيقياً لأن كل عنصر فيها يجب ان يكون في مكانه الطبيعي يقوم بعمله كما يقوم الموسيقي بعمله في الجوقة . فاذا اختل هذا النظام وخرج كل انسان من مكانه الخاص به ، فاطيح الحاكم الفيلسوف وأصبح الجندي حاكماً والعامل جندياً و... لم تلبث المدينة الفاضلة ان تهلك وتقلب الى مضاداتها .

هذه هي المبادئ العامة لسياسة افلاطون كما جاءت في « الجمهورية » . وقد اهتم فيها بتوضيح منزلة الطبقات الثلاث الموازية للأنفس الثلاث ، ووجوب ان يكون العقل هو الحاكم . والمدينة الفاضلة التي ينادي بها افلاطون في « الجمهورية » هي حكومة عهد الشباب الإبداعي . لكنه في أواخر سني حياته جعل يتوق الى ان يكون مشترعاً واقعياً فوضع كتاب « النواميس » وهو أقدم المراجع الاوروبية المعروفة في التشريع . وفيه يلج افلاطون على حكم القانون . فبينما كان في « الجمهورية » يتجاهل القانون ويقول بعدم ضرورته ، اذ الحكم من مهام رجال اختيارهم وتدريبهم ، فتطلق أيديهم من كل قيد ويحكمون طبقاً لأرائهم وأفكارهم التي هي فوق كل قانون لأنها معصومة عن الخطأ — أقول بينما كان افلاطون في « الجمهورية »

على هذا النحو من الزاوية بالقانون وأهله ، اذا به في « النواميس » يشيد بالقانون ويرى انه الوسيلة الوحيدة التي تميز الانسان عن الحيوان ، بل هو يطلب الى الناس ألا يخضعوا لفرد من البشر بل ان يخضعوا للقانون .

لكن افلاطون مع هذا لم يستطع ان يتخلى نهائياً عن نظريته السابقة ويقطع كل صلة لها . ومن هذه الناحية يمكن النظر الى « النواميس » على انها تنتم لأفكاره الاولى في السياسة واستدراك لبعض ما جاء فيها من الشطط اكثر منها نقضاً لها . وهكذا ، فهو مع دعوته الى التمسك بالقانون فإنه يؤكد ان ظهور حاكم كفؤ من شأنه ان يقلل من الحاجة الى حكم القوانين ، كيف لا والمعرفة اعظم شأنًا من أي شرعة او قانون . فلاحية للقانون إلا اذا كان مصحوباً بالحكمة والمعرفة والبصر في الامور .

ويؤكد افلاطون في « النواميس » ايضاً على حكم العقل الإلهي الذي يسمى الناموس المشترك للمدينة . فالله هو مشرع القوانين والحاكم ظله على الارض ، فيجب ان يكون قدوة في طاعة القوانين والحفاظ عليها وعدم التجديد فيها . وهو لم يعد فيلسوفاً بل لقد اصبح رجلاً تكفي فيه الحكمة العملية وبعد النظر . والفضيلة الاساسية فيه هي البصر في الامور وضبط النفس ويصل اليه بالتشبه بالله . فإذا جرى الشارع على فضيلة ضبط النفس والإعتدال وبثها في أرجاء المدينة حقق اغراضاً ثلاثة : ان تصبح المدينة التي يشرع لها حرة وأن تتوحد اطرافها بالتناسب وأن تظفر بالسداد .

وفي دولة « النواميس » هذه يصرف افلاطون النظر عن شيوعية الملك والنساء والاولاد . فيطالب بتوزيع الثروة على جميع الافراد على السواء وبتقييد الزواج بتقييداً تاماً ، بحيث لا يُترك الحرية للفرد ، بمعنى ألا يستم الزواج إلا بالرجوع الى الدولة . بل هو يفرض عقوبات قاسية على من يبلغ سن الخامسة والثلاثين دون ان يتزوج . ولن تكون في هذه الدولة طبقة خاصة بالجنس ، بل يجب ان يفرض التجنيد على الجميع . ولم يعد هناك نظام

للطبقات ، بل يجب ان تختلط الطبقات بعضها ببعض حتى لا يكاد الانسان يفرق بينها . فلكل مواطن حر - مها كانت طبقته - الحق في التجارة والصناعة والزراعة ، على ألا يباشرها بيده بل يكل امرها الى العبيد والأجانب . فعلى هؤلاء وحدهم ان يعملوا لمن ينتسبون اليهم من المواطنين الاحرار ، على ان يكون العمل السياسي من مهمة المواطنين وحدهم .

وهكذا سيج افلاطون احلام « الجمهورية » وودّع الأمل العريضة التي عقدها عليها ، ورجا في « النواميس » ان تكون منطلقاً لبناء جديد اكثر واقعية ...

فهل كانت دولة « النواميس » واقعية حقاً ؟ اننا نشك في ذلك . فكلما المدينتين ، مدينة « الجمهورية » ومدينة « النواميس » ظلت - رغم ما بينها من اختلاف - مدينة إلهية سماوية تعمق بأنفاس الفلسفة وتستروح في قفارها وتجد المتعة في متاهاتها . فالفيلسوف يظلّ فيلسوفاً في كل ما يكتب ويفكر ويقول ، ولا يزيده القرب من الواقع إلا بُعداً وقصواً ، ولا سيما اذا كان من معدن افلاطون !

ارسطو

(٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م)

٦

١ - حياته

ولد ارسطو في اسطاجيرا (Stagire) وكانت مستعمرة يونانية على بحر إيجه . وهو من أسرة عريقة في الطب . فقد كان والده نيقوماخوس طبيباً للملك امينتاس الثاني (Amyntas II) ملك مقدونيا وجد الاسكندر الأكبر ، ولا يكاد التاريخ يعرف عن طفولته شيئاً اللهم إلا انه فقد والده وهو صغير وأسرف في مال أبيه ، وتعلم مع فيليبوس ابي الاسكندر ، مما جعله على صلة متينة بالبلاط المقدوني . ولما بلغ الثامنة عشرة قدم الى أثينا ليستكمل تعليمه ، فالتحق بأكاديمية افلاطون . ومما لبث ان امتاز بين أقرانه وظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء ، فأعجب به استاذه وتبين فيه ملامح العبقرية فسماه القراء (لسعة اطلاعه) والعقل (اي عقل الاكاديمية المفكر) لذكائه الخارق . ثم أقامه معلماً للخطابة فيما يقال . ولزم استاذه عشرين سنة حتى وافته منيته بعد ان أوصى لابن أخيه اسبوسيبوس (Spensippus) برئاسة الاكاديمية .

وفي تلك الأثناء اشتدت الحملة على البلاط المقدوني وأنصاره وكل من يلوذ بهم ومنهم أسرة ارسطو المعروفة بعلاقتها الوثيقة بالمقدونيين فاختار ارسطو الرحيل عن أثينا . ولا عبرة لما جرت به الأقاويل من انه إنما ترك الاكاديمية لأنه كان يرى نفسه أحق برئاستها من ابن اخي افلاطون . فوجد على اسوس (Assos) بآسيا الصغرى تلبية لدعوة أميرها هرمياس (Hermeias) الذي كان زميلاً له منذ عهد الدراسة في الاكاديمية . وقضى ارسطو ثلاثة أعوام بأسوس تزوج في أثناءها بيثياس (Pythias) ابنة هرمياس . وأوشك ارسطو ان يستقر في اسوس لولا ان الفرس اغتالوا هرمياس فانتقل الى مدينة ميتيلين (Mytilène) ثم ماتت بيثياس بعد ان رزق منها بنتاً . وبعد وفاتها تزوج الغانية هيربيليس (Herpyllis) او عاشرها معاشرة الأزواج واتخذها خليفة فأعجب منها نيقوماخوس وإليه أهدى كتابه في الاخلاق .

وفيا هو هناك استقدمه فيليبوس ليتولى تعليم ابنه الاسكندر الذي لم يكن ليتجاوز سن الثالثة عشرة . وأكبر الظن ان فيليبوس هذا كان قد عرف ارسطو أيام شبابه في بلاط امينتاس كما كانا قد تعلموا معاً . وروى انه قال له : « لم افرح بشيء كفرحي بولادة الاسكندر في زمانك » . واستمر ارسطو على العناية بولي العهد اربع سنوات لقي في أثناءها من البلاط المقدوني كل حفاوة وتكريم .

ولما اغتيل فيليبوس بعدما اخضع أثينا لسلطانه تولى الملك بعده ابنه الاسكندر ، فوهنت العلاقات بين التلميذ واستاذه وفرقت بينها الايام . فعاد ارسطو الى اثينا ولم يكن قد رآها منذ وفاة افلاطون . وكانت الاكاديمية مزدهرة ، وبدلاً من ان ينضوي تحت لوائها ويعمل مع اسبوسيبوس فقد قرر ان ينشئ هو ايضاً مدرسة اخرى وذلك بمعونة الاسكندر نفسه على ما يقول البعض . واختار مكاناً لها حديقة جميلة خاصة بأبولون

لوقيوس (Apollo Lyceus) (إله الرعاة) فعرفت منذ ذلك الحين بالوقيون .
وسجلها ارسطو باسم احد تلاميذه ثيوفراسطس لأنه كان هو اجنبياً لا
يحق له التملك . وكان من عادته ان يلقي دروسه وهو يمشي في رواق
ومعه تلاميذه ، فعرف هو وأتباعه باسم (المشائين) Péripatéticiens . وفي
هذه الفترة كتب اشهر مؤلفاته وأهمها . وظل كذلك ثلاث عشرة سنة
اضطر بعدها على اثر وفاة الاسكندر الى مغادرة أثينا التي سقطت في
ايدي اعداء المقدونيين واشتداد الحجة فيها عليهم من جديد . ففر الى مدينة
خلقيس (Chalcis) . فمات فيها بعد سنة وهو في الثالثة والستين من عمره .

٢ - آثاره

يعد ارسطو مؤلفاً مكثراً كاستاذة افلاطون لم يترك فناً إلا طرقة ،
ولا مذهباً من مذاهب الفلسفة والاخلاق إلا عاجله ، ولا نظاماً اجتماعياً
إلا تناوله بالدرس والتقد . فله مؤلفات في الطبيعة وما بعد الطبيعة والنفس
والاخلاق والسياسة والخطابة والحيوان .

وتتقسم مؤلفات ارسطو الى قسمين : مؤلفات الشباب ومؤلفات الكهولة .

فأما مؤلفات الشباب فقد ضاعت جميعاً ولم يصلنا منها إلا اسمائها
وبعض شذرات او مقتطفات منها . وهي تقس في نحو سبع وعشرين
محاورة يرى شيشرون وكوتيليان انها تضارع محاورات افلاطون . وهذه
المحاورات هي التي قامت عليها شهرة ارسطو في الزمن القديم لحسن
اسلوبها وبساطة معانيها وقربها من اذهان الجماهير .

وأما مؤلفات الكهولة فقد بقي معظمها . وهي مؤلفات تعليمية ليس
للحوار فيها نصيب . فهي كتب فنية جافة دقيقة ممعة في التجريد وتخلو
من المتعة والجمال . وقلما كان العلماء الاقدمون يشيرون اليها لصعوبتها ؛
ولعله قد كتبها في السنوات الخمس عشرة الاخيرة من حياته . ولم تكن

هذه النخيرة العلمية الغنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها اندرونيقوس (Andronicos) الروديسي الزعيم الحادي عشر على اللوقيون بعد ارسطو في منتصف القرن الاول قبل الميلاد . وهذه الكتب تنقسم خمسة اقسام :

أ - الكتب المنطقية ، وتسمى ايضا الاورغانون (Organon) أي الآلة

(الفكرية) . وتشتمل على :

المقولات (قاطيقورياس)

العبارة (باري ارمينياس)

التحليلات الاولى او القياس (اناطوطيقا الاولى)

التحليلات الثانية او البرهان (اناطوطيقا الثانية)

الجدل او المواضع الجدلية (طوبيقا)

الاغاليط (سوفسطيقا)

ب - الكتب الطبيعية ، وتشتمل على :

السماع الطبيعي او سمع الكيان

كتاب السماء

الآثار العلوية

الكون والفساد

في النفس

في الحس والمحسوس

في الذكر والتذكر

في النوم واليقظة

في الاسلام

في تعبير الرؤيا

في طول العمر وقصره

في الحياة والموت

في التنفس

في علم الحيوان
في أجزاء الحيوان
في حركة الحيوان
في توالد الحيوان

ج - الكتب الميتافيزيقية او العلم الإلهي او كتاب الحروف ، وهي
اربع عشرة مقالة مسماة بأسماء الحروف اليونانية .

د - الكتب الاخلاقية والسياسية ، وتشتمل على :

الاخلاق الى نيقوماخوس

الاخلاق الى يوديموس

الأخلاق الكبرى

كتاب السياسة

نظام الاثينيين

هـ - الكتب الفنية

في الشعر

في الخطابة

هذا وتذكر لأرسطو ايضاً كتب اخرى قد أثبت النقد الحديث انها
منحولة ، ومع ذلك فقد كان لها أثر كبير في تطور فلسفة ارسطو في
القرون الوسطى كلها . منها :

اثولوجيا ارسطوطاليس (او كتاب الربوبية)

كتاب العلل

كتاب العالم

كتاب المناظر

كتاب الخطوط

كتاب التفاحة

وصلت الفلسفة اليونانية الى اعظم درجة استطاعت ان تبلغها عند افلاطون وأرسطو . فذهبا يثلان قمة الشعور بالذات ، وفيها نجد الطابع الاساسي للروح اليونانية وقد تجلى بأجلى مظاهره . وعلى الرغم من انها عبقران فذان يصدران عن روح واحدة ويعبران عن اعلى صورة يمكن لتفكير ناضج مستقل بذاته ان يصل اليها ، إلا أن ذلك لا يمنع - وهذه طبيعة كل تفكير مستقل ناضج - ان تظل بينها فروق اساسية لا يستهان بها . فبينما كان افلاطون 'يخلق' في عالم سام من الرؤى والأحلام ويتخذ من المثل اساساً للوجود الحق ، اذا بأرسطو يشتت بدنيا الواقع والحس فينكر عالم المثل وينظر الى الطبيعة نظرة علمية مدققة يسير فيها بمنطق تدريجي متسلسل لا قفزة فيه ولا طفرة . فإلى ارسطو انما يعود الفضل في تنظيم الفلسفة اليونانية وتفریع العلوم منها وإيجاد المنطق مرتباً منظماً له أسسه وقوانينه ، حتى لقّب من اجل ذلك كله بالمعلم الاول .

لقد كانت فلسفة افلاطون فلسفة غضة حاملة ثير الحب والإلهام وتحرك المشاعر الفياضة والوجد العاشق العميق . انها فلسفة محبة الى النفوس ولكنها تجافي العقول . فهي فلسفة نشوى عطرة يروح اريجها وينتشر شذاها فتطيب بها النفوس وتبتهج بها القلوب . ولكنها تكاد تصدم الأذهان كأن العقل منها في 'عقال' .

وليست كذلك فلسفة ارسطو . فهي فلسفة منطقية طويلة النفس ، كل شيء فيها يجري في دقة باردة ويدور على منوال التجريد ، فيستقصي الفكرة من الفكرة ويتبعها في مدتها وجزرها ويسير وراءها في دوراتها الضيقة ومنعطفاتها المتعرجة .

وهي ايضاً فلسفة واقعية تقبض على الوجود المحسوس بكلتا يديها

وتنشب فيه اظفارها ، وتنفذ في اغواره ومساربه بأقصى ما تستطيع من التحليل والعمق والأصالة ، في نظام محكم من التصورات التي يأخذ بعضها برقاب بعض .

وهي أخيراً طلب دائم للمعقول الذي هو شغلها الشاغل ، لتقيم صرحاً شامخاً لا يفارق الأرض ، قواعد أوليات العقل وبدهيته ، ولبناته الوقائع المحسوسة ، وملاطه البرهان والاستدلال ، وعليته كل ما يمكن استخلاصه من ذلك من نتائج وأوضاع قوامها التجريد . فالتجريد هنا له معنى غير معناه عند افلاطون . فهو عند افلاطون المبدأ والنهاية . انه عالم حقيقي واقعي ، بل هو الحقيقة القصوى التي لا حقيقة غيرها والتي يستمد منها كل وجود مبرر وجوده ، وما العالم المحسوس سوى ظل له وشبح من اشباحه . وأما عند ارسطو فإن التجريد العقلي تابع للوجود الحسي ونتيجة من نتائجه لا وجود له إلا بوجود العقل . انه ظل للعالم المحسوس وشبح من اشباحه . انه الاريح الذي لم يكن ليفوح لولا الزهرة على الأرض . فما ان تذبل الزهرة وتجف حتى يتبدد الاريح وتذروه الرياح . وهذه المثابة فإن الاريح معلول للزهرة وأثر من آثارها عند ارسطو ، لكنه هو علة لها ومبرر وجودها عند افلاطون . وبعبارة أخرى ، ان المعقول شرط للمحسوس عند افلاطون ، ولكنه مشروط به عند ارسطو . فشتان بين مشرق ومغرب .

ورغم ذلك فان ارسطو لم يتخلص من سيطرة افلاطون بل ومن روح الفكر اليوناني الذي يقدم المعقول على المحسوس . فقد ظلّ المنطقيّ عنده أولى من العيني ، وفهم الأشياء بطريق التفكير أجدى منه بطريق الحس . وهذا هو السبب فيما نرى في فلسفته هو - رغم الفارق الكبير بينها وبين فلسفة افلاطون - من جود وُبعد عن الواقع كأنه الضريبة التي كان لا بد له ولأستاذه من قبله ولسقراط من قبلها ايضاً ان يدفعوها ثمناً لمشق العقل والإيمان بالعقل وعبادة العقل ، مما أورث القرون الوسطى

اللاتينية عمقا في التفكير وتعلقا بالأشكال والصيغ الفارغة واهتماما بالجدل والنقاشات الجوفاء .

وعلى كل حال ان العلم إنما يدين لأرسطو لا لأفلاطون . ولو انه لم يورثه إلا المنهج فتاهيك به فضلا . فهو إرث لو تعلمون عظيم ! فمنهج ارسطو في البحث واستخلاص الحقائق وتحصيلها منهج ثمر خصب خالده ، قادر على الخلق والإنتاج والعطاء اذا أحسن استغلاله ^(١) ، وإلا أورث جدلاً عقيماً . ان الحقائق التي انتهى إليها قد فقدت قيمتها العلمية ، ولكن المنهج الذي التزمه في الوصول إليها يظل خالداً لا تبلى جدته ولا تضعف حلوته . فهو مصدر إلهام دائم لكل ذي عقل مبدع وذهن منتج وفكر خلاق .

والخلاصة ان ارسطو جاء ليحدث من غلواء النزعة المثالية عند افلاطون ويضع اصول المنهج المادي الذي لا تزال نستلهمه في البحث وغزو الطبيعة . وبذلك كان ارسطو على رأس تيار عظيم الأهمية في تاريخ الفكر الانساني عامة والفلسفة اليونانية خاصة . لقد كانت فلسفة ارسطو غنى من حاجة كبيرة أيام كان الفكر يجمع شتات نفسه ويبحث عن أداة تساعد على الانطلاق والتطور . ولكن هذه الأداة أصبحت بعد ارسطو — وعلى درجات متفاوتة تختلف باختلاف الزمان والمكان — عقبة كأداء تعوق كل تطور وانطلاق . لقد نسي الناس روح فلسفة ارسطو وتزعته المادية ومنهجه العلمي الدقيق وتعلقوا بقوالب جامدة وصيغ فارغة جثمت على الصدور واستنزفت قوى الفكر وطاقاته في جدل عقيم لا يفني من الحق شيئاً .

١ — لقد احسن العرب والمسلمون — كما سنرى — استغلال هذا المنهج وذهبوا في ذلك الى غاية المدى ، فمظمت الحركة العقلية بينهم واتسع نطاقها ، حتى انه لم يأت بعد هذه الحركة العلمية من مثيل لها في التاريخ إلا حركة النهضة العلمية في اوروبا . وبهذا المعنى فان كلمة (قرون وسطى) لا تنطبق على العرب ابداً بقدر انطباقها على اللاتين .

ولولا الثورة على هذه القوالب والاتقاض على تلك الصيغ للبثنا ندور في
فلكها الى يوم يُبعثون !

٤ - تصنيف العلوم عند ارسطو

يُعزى الى ارسطو تقسيم العلوم الى نظرية وعملية . ولكن كثيراً من
الشرّاح معتمدين على اشارات وردت في « الطوبىقا » ، وفي « الاخلاق الى
نيقوماخوس » ، انما يقسمونها الى ثلاثة اقسام رئيسية هي : العلوم النظرية
والعلوم العملية والعلوم الفنية او الشعرية . اما نحن فسنختار هنا التقسيم
الاخير لأنه أوعب وأكثر دلالة على مفهوم العلم عنده .

اولاً ، العلوم النظرية ، وهي العلوم التي انما تكون غايتها طلب
المعرفة للمعرفة . وهي تتناول الوجود من ثلاث جهات :

١ - من حيث هو وجود بإطلاق ، وهو ما لا يحتاج موضوعه في
وجوده المنطقي ولا في وجوده الخارجي الى المادة ، وذلك كالحرك الاول .
وهذا هو علم ما بعد الطبيعة او العلم الاعلى او العلم الإلهي او الفلسفة الاولى .

ب - ومن حيث هو مقدار وعدد ، وهو ما احتاج موضوعه في وجوده
الخارجي - دون المنطقي - الى المادة ، كالمربع والمثلث النظريين مثلاً .
وهذا هو العلم الرياضي ، ويقال له ايضاً العلم الاوسط . وقد اشتهر من
فروعه منذ القدم ولا سيما منذ العصر الاسكندراني : الحساب والهندسة
والفلك والموسيقى .

ج - ومن حيث هو متحرك ومحسوس ، وهو ما احتاج موضوعه في
حدوده ووجوده الى المادة ، أو ما اقتقر موضوعه في كلا وجوديه : المنطقي
والخارجي الى المادة ، كالجسم مثلاً . وهذا هو العلم الطبيعي او العلم الادنى
او العلم الاسفل . وهو يشمل علم الطبيعة والآثار العلوية والكون والفساد
وعلمي النبات والحيوان وعلم النفس . وقد يلحق به علم الطب ايضاً .

امّا علم الكيمياء فلم تكن لليونان عناية به بحسب الموروث عن الفلسفة الارسطوطاليسية ، وكانت له نشأة اخرى مختلفة .

ثانياً ، العلوم العملية ، وغايتها تدبير افعال الانسان بما هو انسان . وهي تشمل اولاً ما يكون موضوعه افعال الانسان الفرد ثم ما يكون موضوعه افعال الانسان في الجماعة . وتبعاً لذلك تنقسم العلوم العملية ثلاثة اقسام :

ا - الاخلاق وموضوعها افعال الانسان كفرد .

ب - تدبير المنزل وموضوعه افعال الانسان في الاسرة .

ج - السياسة وموضوعها افعال الانسان في داخل الجماعة .

ثالثاً - العلوم الشعرية ، وغايتها تدبير اقوال الانسان وهي تتناول هذه الاقوال من حيث ايقاعها في النفس او من حيث قوة تأثيرها في الخيال او من حيث اقناع العقل بها . وتبعاً لذلك تنقسم العلوم الشعرية ثلاثة اقسام :

ا - الشعر ، وموضوعه اقوال الانسان المنظومة .

ب - الخطابة ، وموضوعها اقوال الانسان التي تثير الخيال .

ج - الجدل ، وموضوعه اقوال الانسان مرتبة بحيث تحقق اقتناعه . والجدل هو بداية المنطق عند ارسطو .

وأشرف هذه العلوم جميعاً انما هي العلوم النظرية لأنها كمال العقل ، والمعدل أسمي قوى الانسان . وأشرف العلوم النظرية هو علم ما بعد الطبيعة لسمو موضوعه وبعده عن التغيّر . وهذا هو سبب تسميته بالعلم الاعلى . والفلسفة عند ارسطو تتناول هذه العلوم الثلاث جميعاً وتدخلها في إطارها .

ونحن في كلامنا على فلسفة ارسطو لن نعرض لجميع هذه العلوم ، بل سنجتزئ ببعضها فقط . وفي عرضنا لهذا البعض لن نسير وفق الترتيب السابق لأنه يسير من المقدم الى البسيط ، بينما الأسلم ان نتبع طريقاً اكثر تدرجاً مع طبيعة الفكر ، فنسير من البسيط الى المقدم فالأكثر تعقيداً . وهذا ما سنفعله الآن . وسنضطر الى البدء بموضوع جديد لم يرد في التصنيف لأنه مدخل الى سائر الموضوعات الأخرى وللتشابهة معها جميعاً ألا وهو نظرية المعرفة . ولذلك سنسير وفق الترتيب التالي :

(١) نظرية المعرفة (٢) المنطق (٣) الطبيعة (٤) النفس (٥) ما بعد الطبيعة (٦) الأخلاق (٧) السياسة .

٥ - نظرية المعرفة

يفرق ارسطو في نظرية المعرفة - كأستاذه افلاطون قبل - بين الظن واليقين . فالمعرفة التي يجيء بها الحس انما هي « ظن » فحسب ، وأما المعرفة الحقيقية فهي تلك المعرفة التي تصل الى مرتبة اليقين . ولكن كيف يتحقق اليقين المنشود عند ارسطو ؟ انه يتحقق اذا كانت المعرفة التي تصل اليها تازم لزوماً ضرورياً عن مقدمات سبقتها تكون هي ايضاً قد وصلت الى مرتبة اليقين . وهي لا تصل الى هذه المرتبة إلا اذا كانت بدورها تازم لزوماً ضرورياً عن مقدمات سبقتها . وهكذا دواليك حتى تصل في نهاية السلسلة من بناء المعرفة الى ما يطلق عليه اسم « المبادئ الاولى » وهي مبادئ واضحة بيّنة بذاتها تُعرف بالحدس او الإدراك المباشر . وما لم تكن الحقيقة الاولى حدسية ، وما لم يكن يتلج عنها يلزم لزوماً ضرورياً ، فلا يقين .

هذا وإن مبدأ المعرفة وأصلها عند ارسطو انما هو الإحساس المباشر

بشيء حاصر في الحال يوصف بأنه جزئي ، أي ان المعرفة عنده تبدأ دائماً من التجربة الحسية المباشرة . فهذه التجربة هي مصدر كل معرفة .

ويجدر بالذكر ان ارسطو لا يقول بأفكار سابقة بالمعنى الشائع لهذه الكلمة اليوم ، بل انه لينكر حتى الافكار الفطرية التي سيقول بها ديكارت فيما بعد . وبذلك كان ارسطو مؤسساً للمذهب المعروف باسم « المذهب الحسي » ، ومع ذلك فهو مضطر الى القول بنوع من المبادئ الضرورية ، او المبادئ الاولى ، وإلا لتسلسلت المعرفة الى غير نهاية . فالذهن ليس صفحة بيضاء بكل معنى الكلمة ، ففيه استعداد ما للمعرفة يرتبط بطبيعة الذهن ذاتها ، ويظهر هذا الاستعداد فيه في صورة البديهيات الاولى .

واذا كان للحس عند ارسطو كل هذه الأهمية ، فما وظيفة العقل اذن ؟ ان ارسطو رغم انه زعيم المذهب الحسي فقد كان عقلياً جداً اكثر مما يتبادر الى الأذهان . كما ان افلاطون رغم مثاليته المتطرفة لم ينكر دور الحس . فالحس عند كليهما لا غنى عنه ، لأنه يعطينا المادة الخام للمعرفة ، لكنه انما يعطينا إياها معلومات مفككة لا صلة بينها ، فلا بد من تدخل العقل لتنظيم هذه المعلومات وربطها بعضها ببعض ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها ، باتباع قواعد معينة لا بد من معرفتها ولا يمكن الوقوف عليها إلا بدراسة المنطق .

٦ - المنطق

مرّ معنا ان ارسطو كان في مؤلفاته الاولى يستخدم طريقة الحوار ، كما كان يفعل سقراط وأفلاطون بل وكما كان متبعاً منذ عهد الايليين . هذه هي طريقة الحوار او الجدال المبني على اساس مُسلم من الخصم . لكن سرعان ما تبين ارسطو ان هذه الطريقة لا تؤدي الى اليقين ، وذلك لأنها لا تؤسس على مقدمات واضحة بينة بذاتها ، وإنما هي تؤسس على آراء

الناس المشهورة وأقوالهم الذاتية ومؤثراتهم المتوارثة التي لا تصل الى مرتبة اليقين . لكن هذه الطريقة - على ما بها من نقص - يمكن تقويمها وإيجاد القواعد العلمية التي تجعل منها أداة صالحة للوصول الى اليقين . هذه هي بداية المنطق عند ارسطو .

كثيراً ما يقال ان ارسطو هو اول من اهتم الى القوانين التي يسير عليها الفكر حين الاستدلال والاستنباط ، وإنه بالتالي هو الذي وضع علم المنطق وحدد قواعده ورتب اجزائه .

وهذا القول لا يمكن قبوله على اطلاقه ، لأن الاكتشافات الحديثة قد اثبتت ان شعوب الشرق ، ولا سيما الصينيين والهنود ، قد عرفوا المنطق في كثير من تفاصيله وسبقوا اليه ارسطو بزمان بعيد . فإذا أضفنا الى هذا ان سقراط هو اول من اكتشف - من بين اليونان - الحد الكلي والبحث في تكوين التصورات ، وان افلاطون قد عني الى جانب ذلك بالبحث في الاستقراء والقسم المنطقية ، تبين لنا من كل ذلك ان ارسطو إنما هو منظم المنطق ومكمله ، ولا يصح عده واضعاً له ومؤسساً إلا بشيء من التجاوز والتعريض .

وسواء كان ارسطو واضع المنطق او جامعه فقد كان مهتماً به وبمنظرية المعرفة للرد على السوفسطائيين ولتنظيم الفكر الانساني . فالمعلومات الحسية والمعلومات العقلية الاولى والثانوية التي تُكتسب بمراعاة الاصول المنطقية هي حقائق قاطعة . ولهذا اجاز في البرهان - الدليل القاطع في مصطلح المنطقة - استعمال المحسوسات والمقولات معاً .



هذا ويقدم لنا المنطق الآلة التي تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ وترشده الى الصواب . ومن هنا فقواعد المنطق عند ارسطو مقدمة للمعلوم او آلة لها

ولذلك كان يسمى « اورغانون » (Organon) أي الآلة . ولم يطلق ارسطو اسم المنطق على هذه الابحاث وإنما هو استخدم كلمة « التحليلات » (Analytiques) أي تحليل الفكر الى استدلالات ، والاستدلال الى اقيسة والقياس الى عبارات وحدود . أما كلمة « منطق » فقد وردت في عصر شيشرون بمعنى « الجدل » الى ان استعمالها الإسكندر الافروديسي بمعنى المنطق .

وقد انطلق ارسطو في معالجته لهذا العلم كما قلنا من الجدل الذي كان شائعاً بين اليونان القدماء ولا سيما بين السوفسطائيين والذي جعل منه سقراط وأفلاطون اساساً للبحث الفلسفي . فمن خلال مناقشته لأساليب اللغة ودلالاتها وضع كتابه المعروف باسم « الطوبيقا » (Topiques) او « المواضع الجدلية » وفيه يلاحظ بمنتهى سداد الرأي ان هذا الجدل لا يؤدي الى نتيجة مرضية ولا يفضي الى اليقين . وما ذلك إلا لأنه يستخدم قضايا ظنية شائعة كما تقدم معنا ، لا حقائق يقينية ثابتة : وفيما هو يبحث هذا الموضوع - وفي ذهنه على ما يبدو بعض عناصره الاولى التي اورثه اياها سقراط وأفلاطون وتراث عقلي قديم انتقل اليه من الهنود والصينيين - اتقدست له اصول البرهان اليقيني ووضع يده على قواعده وشروطه .



قلنا ان المنطق هو علم القواعد التي تجنب الانسان الخطأ في التفكير وترشده الى الصواب . فموضوعه أفعال العقل من حيث الصحة والفساد .

وأفعال العقل ثلاثة :

- أ - التصور الساذج ، وهو أبسطها ، ويدخل في مبحث المقولات .
- ب - التصور المركب او الحكم ، وهو مبحث القضايا .
- ج - التصور اللازم ، وهو مبحث الاستدلال .

أ - فأما المقولات فهي أعم أنحاء الوجود او هي الأجناس القصوى للوجود : وقد جعلها ارسطو عشراً وهي :

الجوهر (مثل انسان) والكم (مثل خمسة كتب) والكيف (مثل أبيض) والإضافة (مثل نصف) والمكان (مثل البيت) والزمان (مثل أمس) والوضع (مثل جالس) والمالك (ذي مال) والفعل (مثل قطع) والانفعال (مثل انقطع) .

هذه هي المقولات بحسب ترتيب ارسطو لها . فهي كما نرى كل ما يمكن ان يقال عن الوجود او الجوهر ؛ فالجوهر هو القابل لجميع المقولات الاخرى ، والمقولات امور مضافة اليه او مستندة او مقولة ، اي انها محمولات ، وبتعبير أدق المقولة هي معنى كلي يمكن ان يدخل محمولا في قضية ..

ب - وأما القضية فهي العبارة او الجملة التي اذا سمعناها قلنا لصاحبها انه صادق او كاذب . وعناصرها الموضوع والمحمول ولفظة دالة على نسبة بينها تسمى الرابطة . وقد تطوى هذه الرابطة فتسمى القضية ثنائية كقولنا « سقراط فان » ، وقد تُعلن فتسمى القضية ثلاثية كقولنا « سقراط هو فان » .

وقد اتخذت القضية عنده صورة واحدة هي القضية التي تنسب صفة^١ ما او فعلا ما الى موصوف او فاعل معين ، وتلك هي القضية الحلية . اما أنواع القضايا الاخرى المعروفة في المنطق كالقضية الشرطية والقضية الانفصالية ، فلا يكاد ارسطو يذكر عنها شيئا ، وكل ما أورده في ذلك إنما هي اشارات غامضة لا غناء فيها . وإذن فالموضوع الاصلي في بحثه هو القضايا الحلية . وقد بحث فيها من جهة الكم^(١) ومن جهة الكيف^(٢) فانتهى الى وجود اربعة أنواع من القضايا :

١ - اي من حيث عدد الافراد الذين تنطبق عليهم .

٢ - اي من حيث السلب والإيجاب .

الكلية ^(١) الموجبة مثل كل س هو ص .

الكلية السالبة مثل لا س ص .

الجزئية ^(٢) الموجبة مثل بعض س ص .

الجزئية السالبة مثل بعض س ليست ص .

وقد رمز الاوروبيون لهذه القضايا بالحروف (a, e, i, o) وهي عناصر الاستدلال .

ج - وأما الاستدلال فهو الانتقال من الأشياء المعلومة المسلم بصحتها إلى أشياء أخرى داخلة تحت هذه الأشياء المعلومة . والاستدلال هو الجزء الرئيسي من منطق ارسطو ، سواء ما تعلق منه بالقياس او البرهان .

فأما القياس فهو قول مؤلف من قضيتين ^(٣) اذا سلمنا بها لزم عنها لذاتها قول ثالث بالضرورة يسمى نتيجة . مثل :

كل انسان فانٍ (مقدمة كبرى) .

سقراط انسان (مقدمة صغرى) .

سقراط فانٍ (نتيجة) .

وينبغي ان نلاحظ هنا ان القياس الارسططاليسي لا يفيد إلا في بيان ارتباط قضية بأخرى ولكنه لا يفيد في اكتشاف حقيقة جديدة ، وذلك لأن النتيجة التي يصل اليها متضمنة في المقدمة الكبرى . فقولنا مثلا « سقراط فانٍ » هو نتيجة مندرجة في قياس مقدمته الكبرى كل انسان فانٍ . فالقياس الارسططاليسي اذن لا يأتي مجديدا . وهذا أهم نقد

١ - الكلي هو ما يدل على كثرة كقولنا : مدينة . والكليات خمس : الجنس ، والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والمعرض العام .

٢ - الجزئي هو ما يطلق على شيء واحد معين كقولنا : طرابلس .

٣ - تسميان مقدمتين احدهما كبرى والثانية صغرى .

وجه لمنطق ارسطو . فهو منطق صوري اما يهتم فقط بانسجام الفكر مع نفسه دون مراعاة لتطبيقاته في الخارج .

هذا هو القياس ، وأما البرهان فهو استدلال مبني على مبادئ ضرورية وأوليات عقلية ، او هو قياسٌ مقدماته صادقة أولية سابقة في العلم على النتيجة وأبين منها وعلّة لزومها . ومعنى قولنا «صادقة أولية يقينية» ، انها تنكشف للذهن انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . فهي لا تكون مستمدة من استدلال سابق بل تُعرف بالحدس العقلي المباشر . والفرق بين القياس والبرهان ان القياس مجرد آلة لإقامة البرهان وليس برهاناً بالفعل .

والأوليات اليقينية او المبادئ الضرورية البينة بذاتها هي كقولنا ان الشئين المتساويين لشيء ثالث متساويان فيما بينهما . ومنها ايضاً العلوم المتعارفة وهي قوانين الفكر العامة التي تدخل في اي تفكير سليم كبدأ الذاتية او الهوية (أ هي أ) ومبدأ عدم التناقض (أ ليست لا أ) ومبدأ الثالث المرفوع (س اما ان تكون أ او لا أ) فهي لا تستنبط من نتائج اخرى غير ذاتها ولكنها أوليات في العقل ضرورية لا بد منها لكي يكون التفكير متسقاً مع ذاته . ومن هذه المقدمات اليقينية ايضاً التعريفات الاولية للرياضة وغيرها من العلوم . فقد افترض ارسطو ان لكل علم من العلوم مبادئه وأوليائه الخاصة به ، ولا يمكن قيام العلم إلا بها ، كالمصادر والتعريفات والاصول الموضوعية في هندسة اقليدس مثلاً .

من هذه الأوليات اليقينية على اختلاف انواعها يمكن للمرء ان يسير بطريق البرهان او القياس البرهاني فيصل الى نتائج برهانية يقينية لا ريب فيها ، ما دام ملتزماً بقواعد الإستدلال الصحيح .

هذا النوع من الإستدلال البرهاني يفيد العلم اليقيني لأنه صادر عن مبادئ كلية يقينية . ولكن اليقين الكامل لا يتوفر في المقدمات دائماً .

ففي اكثر الأحيان يعتمد الناس في تفكيرهم على استدلال مبني على مقدمات طنية وآراء محتملة ، ويطلق ارسطو على هذا النوع من الاستدلال اسم الجدل او الديالكتيك .

وهناك اخيراً نوع من الاستدلال المبني على مقدمات كاذبة او اغاليط تحدث من سوء استعمال اللغة او التلاعب بالألفاظ او التعميه في الأقيسة . وهذا هو الاستدلال السوفسطائي ، ويقال له ايضاً السفطة او المغالطة .

٧ - الطبيعة

يختلف ارسطو عن افلاطون في انه - كما قلنا مراراً - فيلسوف واقعي ، اي ان الوجود المادي مقدم عنده على الوجود العقلي وأن الوجود العقلي مشتق من الوجود المادي . بينما يذهب افلاطون الى ان الوجود العقلي او عالم المثل مقدم على الوجود المادي وإلى ان الوجود المادي مشتق من عالم المثل . فها اذن يقفان في الفلسفة على طرفي نقيض .

هذا ولا يمكننا ان نتناول هنا جميع اجزاء الفلسفة الطبيعية عند ارسطو فحسبنا منها المباحث الخمس الرئيسية التالية :

(أ) مبحث الحركة (ب) مبحث العلة (ج) مبحث المكان (د) مبحث الزمان (هـ) مبحث الكون .

(أ) الحركة . - فالوجود الحقيقي عند ارسطو إنما هو الوجود الطبيعي ، اي الوجود المادي المتحرك حركة محسوسة . فالحركة هي أهم شرائط هذا الوجود . اما المذاهب التي تلغي الحركة - كالذهب الابلي مثلاً - فكلها في رأي ارسطو مذاهب ضد الطبيعة . اذ لا وجود للطبيعيات ولا لأي علم آخر إلا بافتراض الحركة ، وإلا كان العلم ممتنعاً . فالذين يقولون بالثبات الدائم إنما هم في الحقيقة يعملون العلم ممتنعاً ، لذلك فهم يهرفون بما لا يعرفون .

فالحركة شيء ثابت ضروري لقيام العلم ، فضلاً عن انها أمر واضح في التجربة الحسية لا سبيل الى فكراته او المكابرة فيه ، بل لا جدوى في البرهنة عليها لأن توضيح الواضح من المشكلات . فلا شيء أوضح من الحركة . واذا أردنا البرهنة عليها كان لا بد لنا من اللجوء الى ما هو أقل وضوحاً منها ، اي لا بد من البرهنة على ما هو واضح بما هو غامض .

هذا وتقع الحركة عند ارسطو في اربع مقولات : مقولة الجوهر والكيف والمكان .

فالحركة من حيث مقولة الجوهر هي حركة التغير او حركة ^(١) الكون والفساد . ومن حيث مقولة الكيف هي حركة الزيادة والنقصان . وهي من حيث الكيف حركة الاستحالة . اما من حيث المكان فهي حركة النقطة . والفرق بين حركة الكون والفساد وحركة الاستحالة ان حركة الكون والفساد تتعلق بالصفات الذاتية للشيء ، ففيها محلّ موجود محل آخر ، اي ان الحركة فيها إما تمّ بين نقيضين . وأما حركة الاستحالة فلا تتعلق بالصفات الذاتية بل بالصفات العرضية : ففيها محلّ عرض محلّ عرض آخر . فليست الحركة هنا بين نقيضين ، بل بين أعراض لا يصل الاختلاف بينها الى حدّ التناقض .

هذا وتفترض الحركة عدة أشياء . فهي تفترض أولاً موضوعاً وطرفين وعسلة . إذ لا بد للحركة من موضوع تقوم فيه وإلا امتنعت الحركة . وأما الحركة التي يذكرها افلاطون في «السوفسطائي» بين أجناس الوجود الكبيرى فلا معنى لها ، لأنه لا موضوع لها محلّ فيه .

وأما الطرفان فهما الاتجاه (من) والاتجاه (الى) . فالحركة تتجه من

١ - ليس لأرسطو رأي واحد في العلاقة بين التغير والحركة فهو في بعض الاحيان كان يفرق بينها ، ولكنه كان في اكثر الاحيان يميل الى الخلط بينها .

حال القابلية او التيسر الى حال التحقق او الوقوع ، وباصطلاح ارسطو ،
من حال القوة الى حال الفعل . ومن هنا فالحركة عند ارسطو إنما هي
استكمال لما هو بالقوة او تحقيق له . وهذا هو تعريفها العام عنده .
لذا يقول :

« ان الاستكمال (او التحقيق) لما يوجد بالقوة من حيث يوجد بالقوة
هو الحركة :

« فاستكمال المتغير من حيث هو متغير هو التغير .
« واستكمال القابل للزيادة والنقصان هو الزيادة والنقصان .
« واستكمال القابل للانتقال هو النقلة » (١) .

(ب) العلة . - وكذلك لا بدّ للحركة من علة تكون سبباً لها ، وإلا
كانت علة ذاتها . فالشيء لا يكون علة ذاته ، وإلا كان علة ومعلولاً في
آن واحد ، وهو 'خلف' .

والعلل اربع : علة مادية ، وعلة صورية ، وعلة فاعلة ، وعلة غائية .
فالعلة المادية هي المادة او الميول او ما منه الشيء ، كعجز الزخام
هو العلة المادية للتمثال .

والعلة الصورية او الصورة هي ماهية الشيء وشكله وبمجموع الخصائص
التي يتم بها كماله ، كشكل التمثال وما هو عليه .
والعلة الفاعلة او الفاعل هي ما به يصير الشيء ما هو ، كالفنّان الذي
صنع التمثال .

والعلة الغائية او الغاية هي ما من اجله الشيء ، وهي هنا الغاية التي
قصد اليها الفنّان حين صنع التمثال (٢) .

١ - Physique, III, 201 a 10 -

٢ - Phys. II, 194 b 21 -

وقد رأى ارسطو ان هذه العلل الاربع يمكن اختصارها ورد بعضها الى بعض . فوجد ان اللل الثلاث التي تُذكر الى جانب العلة المادية (الصورية والغائية والفاعلة) يمكن ردها الى علة واحدة هي العلة الصورية . فما العلة الغائية في الواقع سوى الصورة . فالعلة الصورية تسمى علة غائية من حيث انها الصورة النهائية التي يتطلع اليها الفاعل عندما يشرع في عمله كما ان صورة الشيء مبلية دائماً على الغاية منه ، متضمنة في ماهيته . فأصل التفرقة بينها إنما هي وجهة النظر فحسب . وكذلك العلة الفاعلة يمكن إرجاعها الى العلة الصورية ، وذلك لأن الفاعل إنما يحقق الصورة في الشيء المراد تحقيقها فيه . فالصحة التي في ذهن الطبيب هي وسيلته الى شفاء المريض . فصورة الصحة التي هي غاية الطبيب فاعلة هنا ، فهي إذن الحركة له . وبذلك تكون العلة الفاعلة جزءاً من العلة الصورية ، متضمنة في ماهيتها او قل هي نفس العلة الصورية ، وإنما ينحصر الفرق بينها في وجهة النظر وحدها . وهكذا فالعلة الفاعلة والعلة الغائية هما والعلة الصورية شيء واحد إذ يترد بعضها الى بعض حتى تنحل في الشيء الى علته الصورية . وأما العلة المادية او المادة فلا تنحل الى غيرها . ولذلك تترد العلل في الموجودات الطبيعية الى علتين اثنتين فقط هما العلة المادية والعلة الصورية ، وبعبارة اوجز : المادة والصورة .

(ج) المكان . - وإذا كانت الحركة تستلزم ما يتحرك أي المادة ، وقد تحدثنا عنها ، فإنها تستلزم ايضاً ما فيه يتحرك ، أي المكان . وقد عرض له ارسطو في الفصل الرابع من كتاب « الطبيعة » .

ووجود المكان امر بديهي تدلّ عليه حركة النقطة والإستحالة وتعاقب الأجسام على محل واحد ووجود الجهة : فوق ، تحت الخ .

والمكان مفارق للجسم خارج عنه ، فهو يحتوي الجسم دون ان يختلط به او يكون جزءاً منه . فهو بالوعاء اشبه . وتعريفه ان يقال : « انه

الحدّ اللامتحرك المباشر للحاوي ، او كما يقول الفلاسفة المسلمون متابعين
ارسطو : « انه السطح الحاوي من الجرم الحاوي المماس للسطح الظاهر
للجسم المحوي » .

وتتداخل الأمكنة بعضها في بعض ، كل منها يحوي الآخر ، حتى نصل
الى المكان العام الذي يحوي كل مكان ولا يحويه مكان . فالإنسان على
الأرض ، والأرض في الهواء ، والهواء في السماء ، والسماء تحوي الكون
بأسره دون ان يحويها شيء . وهكذا فالتسلسل في المكانية لا بد ان
يقف عند حد اقصى هو مكان الأمكنة جميعاً . وفي ذلك رد على زينون
وشيعته ممن ينقون وجود المكان لاستحالة ان تتسلسل الأمكنة الى غير
نهاية . فوجود الحاوي لا يستلزم بالضرورة وجود شيء آخر يحوي هذا
الحاوي ويكون هو بدوره محوياً بالنسبة الى حاوٍ آخر اكبر منه .
وبهذا المعنى فان السماء الأولى مكان اقصى يحوي كل شيء وليس يحويه شيء .
وبعبارة اخرى اكثر ايجازاً ، يفرّق ارسطو بين نوعين من المكان :
مكان خاص ومكان عام . وما ينطبق على احدهما لا ينطبق على الآخر .
فالمكان الخاص او المحل هو كل مكان يلزم من وجود الحاوي فيه ضرورة
وجود شيء آخر يحوي هذا الحاوي ، كالفرفة يحويها البيت والبيت يحويه
الشارع . اما المكان العام او المشترك فهو المكان الذي لا يلزم من وجود
الحاوي فيه ضرورة وجود شيء يحوي هذا الحاوي ، كالسماء تحوي كل
شيء ولا يحويها شيء . فهي حاوية لا محوية .

فاذا لم يكن خارج السماء مكان اوسع منها يحويها لم يكن هناك خلاء
يكون امتداداً لها ويكون مع ذلك خلوّاً من كل جسم حتى من الهواء .
فلا مكان بدون جسم متمكن ، اما المكان الخالي من الجسم فهو من اغاليط
الروم . فلا مكان للكون لأن كل مكان حقيقي فمن الكون هو . ولا موجود
غير الكون . فيلزم عن هذا ان الموجود هو الملاء ، وان الملاء محدود ،
فالكون اذن متناه .

(د) الزمان . - ولما تستلزم الحركة المادة والمكان كذلك هي تستلزم الزمان حتى لتكاد تختلط به على حد قول البعض وتصبح وإياه شيئاً واحداً . فأرسطو - كأفلاطون - قد ربط الزمان بالحركة ، إلا أن الفارق بينها ان افلاطون يعدّ الزمان هو الحركة في ذاتها ، اما ارسطو فيعدّ الزمان مقدار الحركة . فطبيعة الزمان عجيبة غريبة ، لأن وجوده غامض بل هو اقرب الى اللاوجود . فالمعلوم ان الزمان يتألف من الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو لا يخرج عن ان يكون احد هذه العناصر الثلاث ، فاذا كان الزمان موجوداً حقاً فأين عسى ان تكون عناصره ؟ ان الماضي قد فات ، والحاضر يتقضى ولا يكاد يستقر في مقامه . والمستقبل لم يوجد بعد . فهل نفهم من هذا ان الزمان غير موجود ؟ كلا . فهو امر يقضي به الحس الظاهر الذي لا مجال الى الشك فيه ، كما يتطلبه قانون الحركة . حتى ان هناك من يذهب - كما رأينا - الى التوحيد بينه وبين الحركة ، وما هو من الحركة في شيء . فالحركة انواع كثيرة ، فمنها حركة النقطة وحركة الاستحالة .. كما مرّ معنا ، إلا انه لا يوجد سوى زمان واحد مشترك بينها جميعاً . ثم ان الحركات منها السريع ومنها البطيء ، وأما الزمان فيجري على متوال واحد ووتيرة واحدة . فهو زمان راتب مطرد يظل هو هو ، فكيف يكون الزمان حركة ؟ نعم انه مزببط بالحركة لازم عنها ، ولكنه ليس هو الحركة . انه يعبر عن تنالي الحركة وتعاقبها بحسب ما قبلها وما بعدها ، غير انه على كل حال ليس هو إياها . ومن هنا فقد عرف ارسطو الزمان بأنه « مقدار الحركة بحسب المتقدم والمتأخر » . فالزمان اذن ليس عين الحركة ، وإنما هو الجانب المعدود من الحركة ، ما يقبل العد منها .

ويتخذ ارسطو من ارتباط الزمان بالحركة دليلاً على أزليتها . فالزمان لا يمكن فهمه إلا بواسطة ما يسمى « بالآن » إذ هو يرتدّ الى « الآن » . فالآن هو 'لبّ' الزمان . انه أشبه بحدّ يحدّ الزمان ، لأنه نهاية زمن مضى

وانقضى وبداية زمن آتٍ . فقبله زمانٌ وبعده زمان . وكذلك لكل زمان قبل او بعد . ولما كان لا آن إلا وكان آن قبله وبعده - إذ من المستحيل عند ارسطو وجود آن ذي صفة خاصة يصح ان يكون بداية مطلقة لزمن معين دون ان يكون في نفس الوقت نهاية لزمن آخر او يكون على العكس نهاية مطلقة لزمن معين دون ان يكون في نفس الوقت بداية لزمن آخر - لما كان الأمر كذلك فالزمان لا بداية له ولا نهاية . وكذلك الحركة لا بداية لها ولا نهاية ، لأننا لا يمكن ان نتصور المتقدم والمتأخر بغير زمان ولا زمان بغير حركة . فالحركة إذن أزلية أبدية لأنها مرتبطة بالزمان . وبذلك ينفي ارسطو فكرة حدوث الزمان والحركة ويقول بقدمها وأبديتها ، وبالتالي يقدم العالم وأبديته .

(هـ) الكون . - والكون كروي لأن الكرة افضل الأشكال ، ولأن الشكل الكروي هو الوحيد الذي يمكن للجموع فيه ان يتحرك حركة واحدة متصلة أزلية أبدية تدور في خط منحني مقفل على ذاته لا طرف له ولا حدود ولا يحتاج الى خلاء خارجه . فلا تتحقق الأزلية والأبدية إلا بالحركة الدائرية ، إذ لا اول لها ولا وسط ولا آخر ، ولا بدء ولا انتهاء . فهي الحركة الوحيدة التي تذهب من ذاتها لتعود الى ذاتها ، بينما الحركات الأخرى - كالمستقيمة مثلا - تذهب من ذاتها لتعود الى غيرها .

والكون في رأي ارسطو يتألف من مجموعة من الأفلاك المركزية المتداخلة التي يوجد بعضها في جوف بعض (sphères concentriques) يحرك الأعلى منها الأدنى ولا يفصل بينها اي فراغ . والفلك اشبه بكرة شفافة لها قطبان يتصلان احدهما بقطب الفلك الذي فوقه والآخر بقطب الفلك الذي تحته ، بحيث ان كل فلك يتحرك بما فوقه ويحرك ما تحته ، الى ان ينتهي الامر الى آخر الأفلاك وأقربها الى الارض وهو فلك القمر .

وهكذا عندما يحرك المحرك الاول الفلك الخارجي يحرك بالتالي جميع
الأفلاك التي تحته .

والارض توجد في الفلك المركزي الذي تدور حوله باقي الأفلاك .
وهي كرة ثابتة تقع في أسفل العالم ، لأنها من تراب ، والتراب ثقيل فمكانه
الطبيعي هو الأسفل . والدليل على كرويتها ظلها المستدير على سطح القمر
عند الخسوف ، كما ان الدليل على ثباتها في مركزها وعدم دورانها لا حول
نفسها ولا حول غيرها ان الحجر تقذف به الى اعلى فيعود الى نفس
المكان الذي قذف منه ، فلو كانت تدور حول نفسها لتأثر الحجر بحركتها
ولسقط في مكان آخر ، كما انها لو كانت تدور حول غيرها لانتقلت من
مكان الى آخر في الكون ولشاهدنا اختلافاً في مواقع النجوم الثابتة من
ليلة الى اخرى .

ويلي الارض فلك القمر فمطارد فالزهرة فالشمس فالمرنج فالمشاري
فزحل . يضاف اليها فلك الثوابت . أما آخر الأفلاك او اقصاها فهي
السماه الاولى ويسمى العرب بالفلك المحيط . وهو غلاف العالم ويتحرك
عن المحرك الاول ويحرك ما بعده . وأخيراً المحرك الاول او المحرك الذي
لا يتحرك او الله : ويقع على محور العالم . لكن ارسطو يستدرك في كتاب
(السماه) فيقول انه لما لم يكن خارج العالم خلاء او زمان او حركة
امتنع ان يوجد هذا المحرك في مكان ما او زمان ، او كما يقول الاسلاميون
انه موجود لا في زمان ولا في مكان ، ومع ذلك لا يخلو منه زمان او مكان .

ويقسم ارسطو العالم الى قسمين ، وأساس هذا التقسيم هو فلك القمر .
فهناك عالم ما فوق فلك القمر ثم هناك عالم ما تحت فلك القمر ، وكلا
العالمين متميز عن الآخر غاية التمايز .

فأما عالم ما فوق فلك القمر - ويسمى العالم الأعلى - فيتألف من الاجرام
السماوية على اختلاف انواعها ، وتختلف مادتها عن مادة الاجسام الفاسدة

المتغيرة في عالمنا الارضي . وهذه المادة كما يذكر في « كتاب السماء » هي الاثير او العنصر الخامس ، وهو عنصر سام شريف ، يمتاز من العناصر الأربعة بأنه غير متغير وغير قابل للفساد ولا للزيادة والنقصان ، ولا يقبل من بين جميع الحركات الممكنة غير الحركة الكاملة البسيطة الخالدة ، اعني الحركة الدائرية ، بينما العناصر الأربعة او مركباتها فاسدة متغيرة متحركة حركة مستقيمة من اعلى الى اسفل او من اسفل الى اعلى بحسب فاموس الحقنة والثقيل .

ويصف ارسطو الأجرام السماوية بأنها حية ، بل بأنها اكثر حياة من الانسان نفسه . ولها محركات أزلية أبدية تحركها عددها (٤٧) او (٥٥) يسميها ارسطو عقول الكواكب . وهي مغازقة أزلية أبدية تحرك هذه الإفلاك جميعاً وتستمد حركتها من المحرك الاول الذي لا يتحرك وهو الله . وتم حركة السماء الاولى او الفلك المحيط بنوع من المشق المتجه الى الله ، أي بحركة غائية بجثة . أما حركات الأفلاك الاخرى ، وهي حركات اكثر تعقيداً فتم بفعل محركات اخرى هي عقول الكواكب . ولذلك فكل شيء فيها انما يجري بنظام تام وإحكام عجيب .

وقد رجع ارسطو في تفسيره لهذه الحركات الى نظرية يودوكس (Eudoxe) الذي جعل عدد الأفلاك (٢٦) وتلميذه كليپوس (Callippe) الذي رفع عددها الى (٣٣) فنقدما ارسطو وجعل عدد الأفلاك (٤٧) او (٥٥) كما ذكرنا وجعل لها عقولاً هي مناط سيرها وحركتها .

وأما العالم الأسفل ، عالم ما تحت فلك القمر ، فهو عالمنا الارضي ، عالم العناصر الأربعة ودار الكون والفساد ، أي عالم التكوّن والتفكك ، لأنه يتألف من اربعة عناصر وكميقات متضادة ، ينتج عنها أفعال متضادة : فهو عالم ناقص خسيس قوامه المادة ، إذ المادة تتطوي على إمكانيات كثيرة ، وهذه الإمكانيات تؤثر فيها دوافع لا حصر لها تجعلها تتجه احياناً

الى عكس الطريق السليم . ومن هنا ما نرى فيه من شواذ ومسوخ وأمراض ونقائص ، خلافاً لعالم ما فوق فلك القمر ، فإنه عالم خال من المادة القابلة للممكنات ، ولذلك لا تجدد فيه إلا النظام والتمام والخير والحق والجمال .

وأول الموجودات في عالم الكون والفساد العناصر الاربعة (الماء والهواء والنار والتراب) وهي تنجم عن الهوى (المادة) عند اتحادها بكيفيتين من الكيفيات الاربعة (الرطب والبارد والحر والجاف) . فهذه الكيفيات منها الفاعل ومنها المنفعل كما يذكر أرسطو في كتابه (الكون والفساد)^(١) ؛ فالحر والبارد كيفيتان فاعلتان ، أما الرطب والجاف فكيفيتان منفعلتان . ومن هنا كان كل عنصر من العناصر الاربعة الاولية مشتملاً على جانب فاعل وجانب منفعل . ولما كانت الهوى هي العامل المشترك بين هذه العناصر جميعاً صح أن تتعاقب عليها الاضداد بتأثير الكيفية الفاعلة في الكيفية المنفوعة وأمكن للعناصر ان تتحول بعضها الى بعض ، لا بمحض الصدفة بل تبعاً لنظام ثابت لا يتغير .

وهذه العناصر طبقات غير مستقرة لما ينهاها من تغير واستحالة . فلكل واحد منها فلكه الخاص . لكل منها مكان طبيعي وحركة طبيعية الى هذا المكان إن لم يعيقه عائق : النار تتجه الى أعلى ، والتراب الى أسفل ، ومنه تتكون كتلة الارض ، وبينها الماء والهواء . وهذه تتلامس وتتراكب طبقات بعضها فوق بعض ، فأعلاها يلامس أسفل فلك القمر وهو أدنى الأفلاك العلوية ، وأدناها يلامس مركز العالم . غير ان هذه العناصر قد تتحرك حركة مضادة للطبيعة بفعل العنف والقسر ، وذلك حين تتجه بتأثير محرك خارجي في عكس اتجاهها الطبيعي ، كأن يتجه التراب الى أعلى . وتتم الحركة الطبيعية في العالب اذا لم يعيقها عائق ،

لأن مبدأ الحركة الطبيعية فيها أشبه بنزوع وقابلية للحركة نحو غاية معينة .

ومن هذه العناصر البسيطة - أي التي لا يمكن ان تتحول الى شيء آخر أبسط منها ولكن قد يتحول بعضها الى بعض - تتألف جميع الأجسام المركبة ، سواء كانت اجساماً جامدة او كائنات حية . والفرق بينها ان الكائنات الحية تتميز عن الجوامد بعة فاعلة يتم بها التغذية والنمو وتوليد المثل وغير ذلك . وهذه القوة هي النفس . وهي تختلف باختلاف مرتبة الحيوان في سلم الكائنات الحية . فالنفس هي أصل الحياة .

٨ - النفس

ان علم النفس تابع للعلم الطبيعي بحسب ارسطو ، بل هو الجزء الأخرى من العلم الطبيعي « فجميع الأفعال النفسية في الأجسام الحية متعلقة بالجسم وداخلة في العلم الطبيعي » كما يقول . لذلك كان من جملة العلوم الطبيعية . ومن اجل هذا جعلنا الكلام على النفس بعد الكلام على الطبيعة .

ان مذهب ارسطو في النفس مذهب ثنائي . فهو - كأستاذه افلاطون ومن قبله سقراط - يقول بوجود بدن ونفس . فلم يكن واقعياً صرفاً كما كان الاقدمون من سبقوه ، ولا مثالياً صرفاً كـ بعض الفلاسفة المحدثين من المدرسة الالمانية مثلاً . وتوضح هذه الثنائية في تعريفه للنفس من انها « كمال اول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة » . فهناك اذن نفس وهناك بدن في آن واحد . وهي تفرقة تقوم على فكرته الحسية التي تسود جماع فلسفته ، وأعني بها فكرة الهوى والصورة . فكما انه ثنائي في تصويره للأشياء من حيث ان كل شيء يتألف من مادة وصورة ، فهو كذلك ثنائي في مذهبه في النفس . فالبدن هو بمنزلة المادة او الهوى ، والنفس هي بمنزلة الصورة . وهذه الثنائية تراها تتجلى في كل فلسفته . فليس بدعاً ان

نراها في علم النفس عنده ، بل لعلها في فلسفته النفسية أولى منها في اقسام فلسفته الاخرى .

في هذه الثانية تكون الصورة بثابة الفعل او الكال بينما تكون الهوى بثابة القوة . فالنفس من البدن هي اذن بثابة الفعل او الكال من القوة التي تستكل به . غير ان الكال (او الفعل) على درجتين :

كال اول ، وهو حصول القوة او الاستعداد في الكائن الحي . إذ النفس لا تؤدي وظائفها باستمرار ، بل تتوقف بعض وظائفها احياناً كما في حالات النوم او الغيبوبة او عند الطفل الرضيع مثلاً . فالكال في هذه الحالة كال أول .

وأما الكال الثاني فهو حصول القوة بالفعل وتحقيقها باستمرار . وبهذا المعنى فان النفس كال اول ما دامت لا تقارن قوتها بالفعل على نحو دائم .

وقوله « جسم طبيعي » يُخرج الجسم الصناعي . فالنفس من خصائص الجسم الطبيعي وحده ، وأما الجسم الصناعي فلا نفس له .

وليس كل جسم طبيعي أياً كان محل فيه نفس ، بل لا بدّ لها ايضاً من جسم طبيعي « آلي » ، وهو الجسم الذي اكتملت آلاته وأعضاؤه ليكون قادراً على تأدية وظائف النفس .

أما قوله « ذو حياة بالقوة » فمعناه ان هذا الجسم المستكل لأداته تشريحياً يجب ان يكون ايضاً مستكلاً لوظائفه فسيولوجياً حسب تعبيراتنا الحديثة . فلو كان جثة هامدة ، أي مكتملاً تشريحياً ، فلا يكفي لكي تقارن النفس فيه افعالها ، بل يجب ان يكون ايضاً مكتملاً فسيولوجياً ، أي قادراً على ان يقوم بوظائفه على الوجه الاكمل .

هذا هو حد النفس عند ارسطو ، وفيه يربط بين النفس والحياة .

فالنفس هي ما يميز بين الكائن الحي من غير الحي . والمكس صحيح ايضاً بمعنى ان الحياة هي ما يميز الكائن المتنفس (ذا النفس) من الكائن غير المتنفس .

ومعنى هذا ان العلاقة بين النفس والبدن هي من الوثاقة والقوة بحيث لا يمكن للنفس ان توجد مفارقة ، كيف لا وهي صورة ، والصورة لا توجد مفارقة للهوى . وبهذا يخالف ارسطو استاذة افلاطون الذي يذهب الى ان النفس جوهر روحاني مفارق كان موجوداً قبل وجود البدن وسيظل موجوداً بعده ، وما وجوده مع البدن إلا لفترة قصيرة من الزمن سيفادره بعدها الى عالمه في المأ الأعلى .

مراتب النفوس . - والنفس ليست مخصصة بالانسان وحده . فإنها لما كانت هي التي تميز الكائن الحي من غير الحي ، كان منها مراتب مختلفة باختلاف مراتب الحياة . فهناك ثلاث مراتب من الحياة وبالتالي ثلاث مراتب من النفوس تصاعد في نظام تدريجي يبدأ بالأبسط فالأبسط فالأقل بساطة والاكثر تعقيداً بحيث تشمل المراتب العليا المراتب الدنيا .

فهناك أولاً النفس النباتية او الغذائية ، وهي أبسط أنواع النفوس لأنها موجودة في جميع الأحياء . ووظائفها التغذي والنمو وتوليد المثل ، وكل منها يُسلم الى ما بعده . فالتغذي يعمل الكائن الحي ينمو في اتجاه معين وسنة معينة حتى يصل الى غايته الضرورية ويقوى على التمسك والقيام بالذات . والتوليد يضمن استمرار النوع ومشاركة الفرد الفاني في الخلود والألوهية . فكل كائن حي يرغب في تخليد ذاته « وعحاكة ما هو أزلي وإلهي » . وذلك « غرض جميع الموجودات الحية » .

وهناك ثانياً النفس الحساسة او الحيوانية ، ووظيفتها الاتصال بالعالم الخارجي ونقل صورته الى الداخل . فهي تدرك الصور خالية من مادتها ،

على حين ان النفس الغاذية تقبل للمادة وإدخال لها في تكوين الجسم . وهذه النفس موجودة في جميع انواع الحيوانات وتدرج وظائفها بحيث تبدأ دائماً بحاسة اللمس لأنها أبسط الإحساسات وتشارك في جميع الإحساسات الاخرى الاكثر تعقيداً . ويلى اللمس الذوق فالتشم فالسمع فالبصر . وكل حاسة منها تنفعل بمحسوس معين لا تنفعل بسواه . فلكل منها اختصاص في النقل الى الداخل لا يشاركها فيه اي حس آخر . فالباصرة مثلاً تنقل الاشكال والالوان إذ لا تنفعل بغيرها ، والذائفة تنقل الطعوم . ولا تتعدى كل حاسة اختصاصها الى غيرها .

ولا يقتصر الامر على هذه الحواس الخمس الظاهرة ، بل هناك حواس اخرى باطنة هي الحس المشترك والخيالة والذاكرة .

أ - الحس المشترك . - ويختلف عن الحواس الاخرى في انه يدرك الصفات المشتركة بين المحسوسات التي لا بد فيها من تضافر عدة حواس ؛ مثال ذلك الحركة والسكون والجوع والشكل والعدد والحجم والوحدة . كذلك هو يميز المحسوسات المختلفة من كل جنس بعضها من بعض ، فيميز الابيض من الاسود في داخل اللون . وأخيراً نستطيع بهذا الحس ان ندرك اننا ندرك ، اي انه هو الذي يجعلنا نشعر بأننا نحس . فلو اقتصر الامر على الحواس الخمس لرأينا وسمعنا دون ان نشعر بأننا نرى ونسمع . ومن هذا نرى ان الحس المشترك ليس مجرد انفعال ، وإنما هو انفعال مصحوب بالإدراك . وبذلك يكون الحس المشترك اول خطوة في طريق التفكير . وهذا الحس مركزه القلب .

ب - ويلى الحس " المشترك الخيالة " وهي في مرحلة وسطى بين محض الحس ومحض الفكر . ذلك ان الصورة الحسية لا تزول من النفس بعد زوال المحسوس ، بل تتخلف عنها آثار تظل محفوظة بحيث يمكن استدعاؤها عند الحاجة اليها . وتتفاوت الحيوانات في الاحتفاظ بهذه الآثار ، اذ لا

توجد الخيلة في جميع الحيوانات ، بل في الحيوانات الراقية منها . وللخيلة شأن كبير في الاحلام : فمنها تنبعت صور الإحساسات السابقة وتظهر في النوم . وهذه الصور لا بد منها عند تكوين المعقولات .

ج - وأخيراً الذاكرة . - وهي لا تختلف عن الخيلة إلا في نسبتها الى الزمان الماضي ، إذ عملها محصور في بمت الصور إرادياً وإعادة تركيبها من جديد بأشكال مختلفة تلقائياً كما يحدث في الاحلام .

تحدثنا حتى الآن عن النفس النباتية والنفس الحيوانية ، وأما النفس الإنسانية او النفس الناطقة ، فيختص بها الإنسان دون الحيوان ، لأن الإنسان وحده يتميز بقوة النطق او العقل ، وهو القوة القادرة على إدراك ماهيات الأشياء والخواص العامة المشتركة بين المحسوسات التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان . فالحواس إنما تدرك الجزئيات ، أي الأعيان المحسوسة في علاقاتها الزمانية والمكانية ، فتشير اليها وتصفها بصفة : هذا إنسان ابيض ، وهذه امرأة زنجية . وأما العقل فيدرك الكلي . فهو لا يتعلق بهذا الإنسان او ذاك ، وإنما هو يتعلق بماهية الإنسان التي تنطبق على جميع الأفراد في كل زمان ومكان .

والعقل نظري وعملي : فهو من حيث يدرك الماهيات في انفسها يسمى عقلاً نظرياً ، ومن حيث يحكم على الجزئيات بأنها خير فيقبل عليها او شر فينفر منها يسمى عقلاً عملياً .

والعقل النظري يقال بالإشتراك على درجات مختلفة ، فهناك العقل الهولاني والعقل بالملكة والعقل للفعال . والتعبيران الاول والاخير ليسا لأرسطو وإنما هما لشراحه اليونان من بعده ، وقد وضعوهما بناء على ألفاظ أرسطو وروح مذهبه العام .

أ - فالعقل الهولاني إنما هو عقل بالقوة ، أي مجرد استعداد للتعقل . انه يشبه صحيفة بيضاء (Tabula Rasa) خالية من الكتابة ولكنها قابلة

لأن يكتب عليها كل شيء . وكذلك العقل الهولاني (او العقل المنفل) فهو قابل لأن تحصل فيه المقولات بالفعل بتأثير عامل خارجي هو بالفعل دائماً وهو مبدأ كمال او تحقيق في يسمى عقلاً فعلاً ، كالنور يجعل الألوان التي كانت في الظلام بالقوة (أي كانت غير مرئية ولكنها قابلة لأن ترمى بفعل فاعل) اقول يجعلها بالفعل بعد ان كانت بالقوة .

ب- وبلي العقل الهولاني العقل بالملكة ، وهو عبارة عن العقل الهولاني وقد حصلت فيه المقولات فأصبح بالفعل بمعنى ما بعد إن كان بالقوة ، نتيجة لاكتساب المعارف . او قل هو في مرحلة وسطى بين القوة والفعل لأن صاحبه يستطيع استحضار معارفه متى شاء ، ولكنها ليست حاضرة امامه دائماً . وهو من هذه الناحية في جانب بالقوة وجانب بالفعل . فمن حيث انه قدرة على الإدراك قد توقرت آلتها هو بالقوة ، ومن حيث انه تمرس بالمقولات وأصبح التعقل له ملكة ، هو بالفعل .

ج- وأخيراً العقل الفعال ، وهو الملة الفاعلة للإدراك ومبدأ الكمال او التحقيق للعقل الهولاني ، أي هو الذي يخرج المقولات من الماديات - وهي موجودة فيها بالقوة - ويطبع بها العقل الهولاني فيخرجها الى الفعل ، وإلا لظل عقلاً هولانياً بالقوة ولما تحقق له الكمال . فالعقل الفعال هو بالفعل دائماً ، كالشمس هي نور بالفعل دائماً ، يحيل المراتبات التي هي بالقوة الى مراتبات بالفعل . فلو كانت تارة ضياء وتارة ظلاماً ، أي لو لم تكن نوراً بالفعل دائماً ، لما استطاعت ان تكشف الأشياء وتنقلها من مراتبات بالقوة الى مراتبات بالفعل . هذا هو حال الشمس في المحبوسات . وكذلك حال العقل الفعال في المقولات .

وأرسطو مضطرب غاية الاضطراب في امر العقل الفعال ، بل انه لم يضطرب في شيء كاضطرابه فيه . فعلى حين يصرح في كتاب « النفس » بأن العقل الهولاني والعقل الفعال موجودان في النفس الانسانية ،

يصف العقل الفعال بصفات تميزه عن العقل الهولاني ، بل وعن قوى النفس جميعاً ، وعن كل الاشياء المادية المحسوسة ، اذ يقول انه مفارق ، اي غير متمزج بمادة وليس له عضو يقوم فيه ، وانه هو وحده لا يقنى بفناء البدن لأنه خالد دائم ، بينما يقول عن العقل الهولاني انه فاسد . ولكن هذا العقل هل هو الله حقيقة كما سيقول الاسكندر الافروديسي احد شراح ارسطو اليونان في القرن الثالث للميلاد ؟ أم هو والعقل الهولاني كلاهما موجود في النفس الانسانية كما سيقول ثامسطيوس (Thémistius) احد الشراح اليونان ايضاً في القرن الرابع الميلادي ؟ أم هو من العقول الفلكية او الجواهر المفارقة التي تحرك الاجرام السماوية كما سيقول فلاسفة العرب ؟ ثم ما اصل هذا العقل الخالد ومن أين يأتي ؟ ليس في نصوص ارسطو ما يساعد على ان نجيب عن هذه الاسئلة او ان نقطع فيها برأي . فالحقبة اذن غامضة ، والغموض يستتبع الغموض . فأرسطو بقوله بالعقل الفعال يناقض نفسه ، لأنه يقول تارة ان القوى الحسية والعقل الهولاني تضطلع وتتناقض ولا يبقى إلا العقل الفعال ، الذي هو قوة من قوى النفس ، « حاصل على وجود ذاتي وغير فاسد » وأنه مفارق خالد دائم . فقوله ببقاء العقل الفعال ومفارقة الصورة للبدن يجعله متفقاً مع استاذة افلاطون ، مع انه ثار عليه وانتقد آراءه الخاصة بجوهرية النفس وحولها في البدن ومفارقتها له بعد الموت . أم تراه يعني ان الجزء الناطق من النفس باق وحده بعد انحلال البدن ، اما قوى النفس الاخرى ، وأما الفرد الحاصل على هذه القوى ، فإلى فناء وانحلال ، كأنما الخلود للنوع لا للفرد ، مما سيُنسب الى ابن رشد زوراً وبهتاناً ؟ مجموعة من المتناقضات يحرر بعضها بعضاً !

هذه هي مراتب النفس عند ارسطو وهذه هي قواها المختلفة . فهو لا يفرق بين انواع مختلفة من النفوس كما توهم البعض ، وإنما هو يفرق بين وظائف مختلفة لنفس واحدة . فهو يتساءل : هل تشترك النفس بكليتها

عند قيامها بوظائفها المختلفة ، أم هي تنقسم الى اجزاء يختص كل منها بنشاط معين ؟ وهو يرفض احتمال انقسامها الى اجزاء ، وإلا فإذا عسى ان تكون علة وحدتها ؟ هل يكون الجسم ؟ كلا ، لأن النفس لا الجسم هي مصدر وحدة الكائن الحي . لذلك فإن النفس ذات طبيعة واحدة متجانسة لا تنقسم . والدليل على ذلك ان بعض انواع النبات والحيوان اذا قطعت اجزاء ظل كل جزء منها محتفظاً بجميع خصائص النفس التي في الجزء الآخر . وعلى كل حال ، فإن ارسطو حين يذكر كلمة « اجزاء النفس » فإنما يعني قواها المختلفة . واذن فلا يجوز ان تُخضع بتقسيمه النفس نباتية وحيوانية وإنسانية . فإنما هي نفس واحدة لها وظائف مختلفة . وبذلك يختلف ارسطو عن افلاطون الذي يقول بثلاث نفوس : شهوية وغضبية وعاقلة . وأما ارسطو فإنه يقول بنفس واحدة لها وظائف متعددة ينطوي الأعلى منها على ما هو أدنى لا العكس ، بمعنى ان النفس الانسانية تنطوي على قوى النفس الحيوانية والنفس النباتية ، وأما النفس النباتية فلا تنطوي إلا على قوى النفس النباتية وحدها . وأما النفس الحيوانية فإنها تنطوي على قوى النفس النباتية والنفس الحيوانية دون النفس الانسانية . فما هو في مرتبة دنيا لا يوجد إلا وحده ، وأما ما هو في مرتبة عليا فلا يوجد إلا بوجود ما تحته . وهكذا تصاعد قوى النفس من النفس النباتية الى النفس الحيوانية الى النفس الانسانية في نظام من التماسك والترابط جميل . وبذلك يكون ارسطو اقرب الى الروح العلمي من استاذة افلاطون .

٩ - ما وراء الطبيعة

تقع دراسة ارسطو لما بعد الطبيعة في اربع عشرة مقالة عُرفت بحروف الأيجدية اليونانية من حرف الألف الى حرف النون . ولذلك يسميها العرب « كتاب الحروف » ، وهي تبحث في الوجود من حيث هو موجود

وفي مبادئ البرهان الأولى وفي الأسس الكبرى للمعرفة العلمية ، وفيما اذا كان يصحّ وجود علم برهاني واحد يشمل جميع هذه المبادئ ، كما تبحث في الاسباب او العلل وأقسامها وفي طبيعة الجوهر وأنواعه وفي المادة والصورة والقوة والفعل وفي علة الموجودات القصوى او المحرك الذي لا يتحرك .

وأول ما يلاحظ المرء في هذا المرض لموضوعات كتاب « ما بعد الطبيعة » اتصالها الوثيق بنظرية المعرفة والمنطق والطبيعة وتشابكها بها تشابكاً يكاد يكون من المتعذر الفصل بينها فيه ، بل هي متشابكة. في ذهن ارسطو نفسه. وفي الوجود نفسه ايضاً . فالوجود لا يعرف هذه القيود المنطقية والمعرفية ولا يفرق بين الطبيعة وما بعد الطبيعة وإنما هي الاذهان تصل بين المنفصل وتفصل بين المتصل ، فتفرق وتوحد بالتحليل والتركيب ، وكل عمليات العقل إنما هي تحليل وتركيب .

فلا غرابة إذن ان يكون هناك اشتراك بين الموضوعات والمسائل التي سنعرض لها هنا في باب ما بعد الطبيعة وتلك التي عرضنا لها في ابواب اخرى من فلسفة ارسطو ، على اننا سنركز هنا بالطبع على جوانب من الوجود لم نتناولها هناك او لعلنا تناولناها على وجه كانت له أهمية خاصة في سياقه هناك فلم تعد له تلك الأهمية هنا .

فالوجود له جوانب لا تعد ولا تحصى ، كما ان لكل جانب وجوهاً من العرض تختلف باختلاف القرائن والسياق . والذي يهمنا هنا إنما هو ان ندرس الوجود من حيث هو وجود . فالوجود معنى عام قد يدل على الموجودات من حيث هي مادة وحركة ، وقد يدل على الموجودات من حيث هي كم وعدد ، وقد يدل عليها من حيث إمكان معرفتها ، وقد يدل عليها ايضاً من حيث ان لها قواماً وكنهاً مما علة وجودها . فالاول هو علم الطبيعة ، والثاني هو علم الرياضة ، والثالث هو علم المنطق ونظرية

المعرفة ، والرابع هو علم ما وراء الطبيعة . فعلم ما وراء الطبيعة هو علم الوجود بما هو موجود ، اي هو العلم الذي يبحث في وجود الوجود ، أعني كنه الوجود وما به قوامه ، او قل هو العلم الذي يبحث في أوائل الموجودات . ومن هنا تسميته بالفلسفة الاولى . فهي اولى لأنها تبحث في مبادئ الوجود وعالته وتعمق خاصة بمعرفة الله علة الملل ، ولذلك يطلق عليها اسم العلم الإلهي . وأما تسميته بعلم ما وراء الطبيعة فهي من « ميتا » (meta) اليونانية ومعناها « بعد » او « وراء » و « فوزيس » (phusis) ومعناها « الطبيعة » ، اي المقالات الاربع عشرة التي تلت كتب الطبيعة وجاء ترتيبها بعدها عند تصنيف كتب ارسطو . ولم يستعمل ارسطو هذه اللفظة ، بل لقد استعمل اسم « الفلسفة الاولى » و « العلم الإلهي » . ولعل اول ما ترد كلمة « ما بعد الطبيعة » عند نيقولاوس الدمشقي (القرن الاول للميلاد) الذي قد يكون استفادها من معاصره اندرونيقوس الروديسي عند تصنيفه لكتب ارسطو فوضع مقالات الفلسفة الاولى الاربع عشرة بعد كتب الطبيعة . وكلاهما من شراح ارسطو المعروفين .

وليس من الممكن هنا بالطبع ان نتناول جميع مسائل هذا العلم عند ارسطو ، بل سنجتزئ منها بما يعطي فكرة وافية عنه . وأهمها في نظرنا خمس مسائل : (أ) مبحث الجوهر ، (ب) مبحث المادة والصورة ، (ج) مبحث الفاتية ، (د) مبحث قدم العالم ، (هـ) مبحث الالهية .

(أ) الجوهر . — رأينا في المنطق ان الجوهر هو ما تحمل عليه سائر المحمولات ، وهي المقولات التسع الباقية . ولذلك فإن الجوهر هو اول الأشياء وأحق المقولات باسم الوجود ، إذ بانعدامه تنعدم جميع الموجودات وأما المقولات الأخرى فوجودها بالتبع لأنها حالات للجوهر ، وهو سابق عليها جميعاً ، فإنها تتقوم به ، أما هو فلا يتقوم إلا بذاته . ولذلك يعرفه

ارسطو بأنه ما لا يحمل على موضوع ولا يحمل في موضوع ، أي هو الشيء القائم بذاته والذي لا يوجد في غيره .

هذا هو المفهوم المنطقي للجوهر ، ولكن المنطق وحده لا يفي في معرفة الوجود . فيجب ان ينضم الى المفهوم المنطقي للجوهر المفهوم الوجودي ، أي تعيين طبيعة الوجود الذي ينطبق عليه المفهوم المنطقي ويكون في نفس الوقت موضوعاً للعلم الإلهي . وبهذا المعنى فإنه المفهوم الوجودي للجوهر هو ما يشير الى مقدرات هذا العالم المحسوس . فهو يقال على افراد الحيوان والنبات وأجزائها والأجسام الطبيعية كالعناصر الأربعة والمعادن .. أي كل ما في العالم الطبيعي من اشياء ، كما يقال ايضاً على الكواكب كالشمس والقمر وغيرهما .

هذا هو المعنى الاول للجوهر وهو الفرد الجزئي المركب من مادة وصورة كسقراط . وهناك معنى آخر له ايضاً وهو انه يطلق على الانواع والأجناس التي يدعوها ارسطو . بالجواهر الثواني لأنها جواهر بمعنى فرعي اذا قيست بالموجود الفرد . إلا ان افلاطون في نظرية المثل يجعلها اولى الجواهر وأولى الموجودات وأجدرها بالوجود ، إذ المثل ان الكليات عنده هي الوجود الحق وكل ما عداها وهم وخيال . فالوجود العقلي عنده اولى من الوجود الحسي ، وهو الموضوع الحقيقي للفلسفة ، خلافاً لأرسطو الفيلسوف الواقعي الذي يؤكد على الوجود العيني المحسوس . فالكلي عنده رغم كونه شيئاً حقيقياً وموضوعياً ، إلا انه ليس له أي وجود مستقل . وإنما الوجود للجزئيات لا للكليات ، وكلما اقترب الشيء من الوجود الفردي كان اعمق في الوجود . فعين يتعلق الأمر بالجوهر بالمعنى الأخير يكون النوع اعمق في الجوهرية من الجنس وذلك لأنه اقرب منه الى الفرد . بينما الجنس اعمق في التجربة . فمدار الجوهرية عند ارسطو إنما هو التحقق العيني والوجود

في الخارج ، فكلمنا اقرب الشيء من هذا التحقق كان ائمن في الوجود وبالتالي ائمن في الجوهرية . وبهذا المعنى فإن الجوهر صنو الوجود .

لكن هل معنى هذا ان ارسطو ينفي ان يكون هناك جواهر مفارقة للحس وبريئة من المادة ؟ كلا فإن ارسطو رغم واقعيته يؤكد بوجود ثلاثة انواع من الجواهر ، اثنان منها حسيان والآخر معقول مفارق للمادة :

فهنالك اولاً جواهر حسية قابلة للكون والفساد وهي الاجسام الطبيعية . وهناك ثانياً جواهر حسية أزلية خالدة غير قابلة للكون والفساد ولا تقبل غير الحركة المكانية ، وهي الاجرام السماوية المكونة من عنصر بسيط هو الأثير .

وهناك اخيراً جواهر أزلية خالدة مفارقة للحس ولا تلتحق بها الحركة على اي وجه كان : وهي الله والمعقول المفارقة والجزء الناطق من النفس المسمى بالعقل الفعال .

ب - المادة والصورة . - رغم اختلاف ارسطو وأفلاطون في اكثر من موضع فقد أبقى على المقدمات الافلاطونية لعدد كبير من نظرياته . ومن هذه النظريات نظرية المادة (او الهيولى) والصورة . فالمعلوم ان افلاطون يقول بعالم المثل ، وهو عالم من الصورة المجردة عن المادة (او الهيولى) بعدما افلاطون المصدر الاساسي لكل وجود مادي (او هيولاني) . فعالم الصور هو عالم الحقائق ، وعالم المادة هو عالم الأوهام . وقد أبقى ارسطو على المقدمات الافلاطونية لهذه النظرية ولم يتنازع إلا في مبدأ المفارقة . فان افلاطون يقول ان الصور مفارقة للمادة . فهي جواهر تقوم بذاتها ولا تحتاج الى ما تقوم به غير ذاتها . فهي مبدأ كل وجود ، وكل وجود فإنما منها يستفيد وجوده . وأما ارسطو فانه ينكر هذه المفارقة إنكاراً تاماً ويقول بتلازم الصورة والمادة تلازماً ضرورياً لا مجال فيه

لفصل احدهما عن الاخرى إلا في حالة واحدة ، وهي عندما يكون الامر متعلقاً بالالوهية : فالثق صورة محضة قائمة بذاتها لا تشوبها اي شائبة من المادة . وفيما عدا الالوهية فكل شيء آخر لا تنفك فيه الصورة عن المادة . فلا تفرقة بين المادة والصورة في الحالات العادية إلا في الذهن وعلى سبيل التجريد ومن أجل العلم فقط ، اما من حيث التحقق العيني في الوجود فان الطريقتين يوجدان معاً على الدوام .

أجل لا وجود للصورة مفارقة للهوى ، وبالتالي لا وجود للمثل . فان أهم مسألة في نظر الفلسفة هي معرفة كيف نشأ العالم لكن نظرية المثل لا تفسر لنا هذه المسألة . فإذا سلمنا ان هناك مثلاً للانسان فكيف نشأ عنه الناس ؟ وإذا سلمنا ان هناك مثلاً للأشياء فكيف نشأت الاشياء عن هذه المثل ؟

ثم ان المثل ثابتة . لذلك قد تكون علة لثبات الأشياء ، ولكنها لا تكون ابداً علة لحركتها . فإذا كانت الاشياء متحركة فكيف دبت الحركة في الاشياء وكيف استطاعت ان تهتز اذا كانت مثلها ثابتة ؟

وأخيراً ان المثل هي بحسب افلاطون ماهيات الاشياء . لكن ماهية الشيء يجب ان تكون متضمنة فيه لا خارجة عنه . فإذا ما فصل افلاطون بين الشيء وماهيته فقد وقع في خطأ فاحش وقلب طبائع الاشياء .

والخلاصة ان القول بالمثل او الصور المفارقة لا داعي له ، بل هو يزيد من مشاكل الميتافيزيقيا ويمقدما ، ويضيف الى عالنا الواقعي عالماً خيالياً فيه من الموجودات الوهمية بقدر ما في عالنا الواقعي من الموجودات الحقيقية . ولهذا يستبدل ارسطو بفكرة الصور المفارقة للمادة صوراً ملازمة لها . ومن هنا نظريته في الصورة في مقابل الهوى . فالهوى لا توجد مفارقة كما ان الصورة لا توجد مفارقة ايضاً ، بل هما مثلاً زمان اشد

التلازم ، إلا في حال الالهية كما تقدم معنا . وكلتاها ضرورية لوجود الاشياء . فلا المادة تستغني عن الصورة ، ولا الصورة تستغني عن المادة . ان افلاطون لم يستطع ان يتصور الهىولى (او المادة) تصوره لشيء موجود باستمرار بل لقد قال عنها انها عدم صرف بينما يؤكد ارسطو وجودها على أساس ما نرى في الأشياء من تغير ، فالتغير لا يمكن تفسيره إلا اذا سلمنا بوجود موضوع تطرأ عليه التغيرات وتتعاقب . فالتغير دليل على ان هناك « ما » يتغير ، ما يقبل التغير او يقع عليه التغير . وهذا القابل شيء غير معين ، أي هو خال من أي تعين ، ولكنه يمكن ان يتحقق بأي تعين ، أي ان يتحول الى شيء ما ، وذلك لأن الصفات والاعراض التي تتوالى على الشيء الواحد لا يمكن القول انها تتحول بعضها الى بعض ، وإنما هي تتعاقب على موضوع ثابت يظل هو هو على الرغم مما يجري عليه من تغيرات . هذا الموضوع او هذا القابل هو ما يطلق عليه ارسطو اسم « الهىولى » ، وبه زحده يمكن تفسير حقيقة التغير . وأما مادة افلاطون فلا تُتغني في هذا الموضوع شيئاً لأنها عدم والعدم لا يفسر شيئاً .

ولما كانت الهىولى مجرد قابلية واستعداد ، فهي قوة مهيئة للفعل ولكنها ليست فعلاً . انها سلب للفعل ، او قل انها لا تصبح او لا توجد بالفعل إلا عندما تحلّ فيها كيفية ما تعطىها صفاتها الذاتية وتكون ماهيتها ، وعندئذ تتجوهـر ويدركها الحس . هذه الكيفية التي تحلّ في الهىولى هي الصورة . فالصورة هي مجموع الصفات التي تطلق على شيء ما ، لأن بهذه الصفات يتمّ كمال الشيء ، فاذا سُلبت عنه لم تبقَ فيه إلا هىولى فحسب . وتسمى الهىولى ايضاً باسم « القوة » ، ويسمى الوجود في حال الهىولى وجوداً بالقوة ، كما تسمى الصورة باسم « الفعل » ، ويسمى الوجود في حال الصورة وجوداً بالفعل .

ولما كانت الهيولى لا توجد مفارقة فهي تتعشق الصورة دائماً كي تحلّ بها ، كما ان الصورة كي تتحقق لا بد لها من وجود الهيولى . فهناك إذن تعاون بين الهيولى والصورة لا بد منه لحصول الاشياء وتحقيقها في الخارج . لكن هذين الطرفين الضروريين لحصول الاشياء ليسا على درجة واحدة من الأهمية . فالوجود الحقيقي عند ارسطو انما هو وجود الصورة لا الهيولى ، بينما وجود الهيولى أدنى مرتبة بكثير من وجود الصورة ، وذلك لأن الوجود بالفعل أعلى مرتبة من الوجود بالقوة ، والهيولى كما مرّ معنا وجود بالقوة ، بينما الصورة وحدها هي وجود بالفعل . وليس معنى هذا انه ليس للهيولى اي وجود ، وإلا لم تحدث الاشياء .

وبما ان الصورة هي ما يجعل الشيء بالفعل ويتمّ به كماله ، فقد كانت الاساس في كل علية . ومن هنا التعبير الارسططاليسي « العلة الصورية » . وليس معنى هذا ان الهيولى تخلو من اي أثر للعية . كلا . فالهيولى علية ، ولكنها علية سلبية انفعالية . فالهيولى تنفعل بالصورة وتقبلها ، ثم هي تعشق الصورة او على الأقل هي شرط في ان يتوقف على وجوده تحقق الصورة . فهي إذن بمعنى ما علة ، وإن تكن علة سالبة .

وكل من الهيولى والصورة أزلي أبدي لم يسبقه عدم ولا يصير الى العدم ، إذ لا يمكن للعدم ان ينتج وجوداً ، كما لا يمكن للوجود ان يستحيل عدماً . لكن الصورة متقدمة على الهيولى في الشرف والرتبة وأولية الوجود .

والصورة كلية لأنها - كما تقدم - مجموع الصفات التي تطلق على شيء من الاشياء وبها يتمّ كماله . كما انها هي الأصل في الماهية . ولذلك فهي موضوع العلم . فموضوع العلم هو الكليات او الماهيات الثابتة الموجودة دائماً على نحو واحد . إذ العلم لا يُعنى بسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وإنما هو يُعنى بمعرفة ماهيتهم ، اي بالانسان الكلي الذي هو مبدأ المعقولة والثبات .

فما هي الانسان ليست اللحم والمغظم و... وإنما ماهيته انه حيوان ناطق .
فالماهية ليست مركبة من أجزاء مادية وإنما هي تتركب من علاقات
منطقية أهمها هنا الجنس والفصل .

وإذا كانت الصورة كلية فإن الهوى هي مبدأ التفرقة بين الاشياء
ومبدأ تشخصها ، وبالتالي هي الاصل في الهوية او الفردانية . فهي التي تقبل
الصورة وتستولي عليها في تكوين وجود جزئي يختلف باختلاف الافراد .
وإذن فان اختلاف أفراد النوع الواحد في الصفات العرضية وتعددتها إنما
يرجع الى الهوى . وهكذا فما يفرق بين الاشياء بعضها وبعض - مما
يدخل تحت صورة واحدة : انسان مثلاً - إنما هو وجود الهوى فيها .
فصورة الانسان واحدة بالنسبة الى الناس جميعاً ، ولا وجه للتمييز في
الصورة بين الافراد المشاركين فيها . وإنما يأتي التشخص او الفردية عن
طريق الهوى كما قلنا . فالهوى هي أساس التشخص . فحيث لا توجد
هوى لا يوجد تشخص ، وبالتالي لا يوجد تمييز او تفرقة .

ولهذا لا يكفّ ارسطو عن القول بأن الاصل في الهوية (او الفردية)
هو الهوى ، وحيث لا تكون هوى لا تكون فردانية ، بل تكون الاشياء
واحدة . هذا مع الإشارة الى ان ارسطو لم يتعمق معنى الفردانية ، وإنما
تركها متموجة غامضة ، حتى انها جرت عليه كثيراً من الاشكالات وأوقعته
في التناقض .



هذا وأولى الكيفيات او الصور التي تحلّ في الهوى هي الطبائع
الاربعة : الحار والبارد والجاف والرطب . وعنها تنشأ العناصر الاربعة :
الماء والهواء والنار والتراب . وبامتزاج هذه العناصر بعضها ببعض بنسب
مختلفة تحدث سائر الاشياء .

وهناك تدرُّج في الصور والهيولات هو الأساس فيما نرى من تدرُّج في نظام الاشياء . فهناك الهوى الاولى التي هي مادة العناصر . وهناك هوى الاجسام الحيوانية الاكثر تعقيداً . وفيما بين هذين النوعين من الهوى تتسلسل عدة هيولات متوسطة : فهناك مثلاً بعد هوى العناصر هوى المعادن ، ثم هوى اجسام مركبة من هذه المعادن فهوى الاجسام الحية . وهذه الاجسام بدورها تتفاوت في تعقيدها . وهكذا دواليك .

ونجد هذا التدرج نفسه في سلم الصور . فهي . ايضاً تنظم في الطبيعة درجات بعضها فوق بعض وتتسلسل بحسب نصيبها من الهوى او خلوها منها . فهناك اولاً الصورة التي لا توجد إلا مع هوى كصورة العناصر الاربعة . وهناك صورة الصور التي تقوم بذاتها دون حاجة الى الهوى وهي الله . وفيما بين هاتين الصورتين توجد باستمرار وسائط لا تقع تحت حصر .

ويمتدنا من هذا النظام المتسلسل اعلاه ، حيث نجد صورة محضة لا يخالطها شيء من المادة أصلاً . انها علة العلل او المبدأ الاول او الله . فهو صورة الصور ، الصورة الوحيدة التي توجد بذاتها مفارقةً أي منفصلةً عن عن المادة ولواحق المادة ، وأما ما عداها فلا يخلو من المادة ، قلّ حظه منها او كثر .

وهكذا فالعالم على درجات بعضها فوق بعض يتفاوت نصيبها من المادة والصورة . فما كان منها في منزلة عالية فصورته قد غلبت مادته ، وما كان منها في منزلة منخفضة فمادته قد غلبت صورته . وهناك صراع دائم بين الصورة والمادة (او الهوى) ، إذ الصورة كما مرّ معنا فعل او كمال ، وبالتالي تقتضي بطبيعتها الحركة ، وأما المادة فهي قابلة للحركة وتلقّي افاعيل الصورة . هذه هي الناحية الحركية او الدينامية في مذهب ارسطو : ففي الوجود دينامية مستمرة وحركة لا تنقطع . وبحكم هذه الدينامية فإن

الصورة لا تنفك تجذب العالم الى اعلى ، كما ان المادة لا تنفك تجذبه الى أدنى . فحركة العالم إنما تتلخص في جهد الصورة لتشكل المادة ، ومقاومة المادة للصورة ، وعنها ينتج الكون والفساد في الطبيعة . فلو لا مقاومة المادة لما كان فساد ، ولو لا جذب الصورة لما كان كون . فالكون والفساد هما أداة الطبيعة لبلوغ اهدافها العليا وتحقيق غاياتها البعيدة .

(ج) الغائبة في الطبيعة . - ومذهب ارسطو في الطبيعة والحياة مذهب غائي . فالطبيعة عنده ليست كتلة من الحوادث الموجهة ، وإنما هي بمثابة المظاهر التي يدل نظامها على انها تتجه نحو هدف معين . فكل شيء موضوع لغاية او إنما يسعى لغاية ، كما لكل عضو غاية ولكل كائن حي غاية . وعن طريق فكرة الغائية هذه نجد ارسطو دائماً يحاول ان يفسر اوضاع الأشياء ووظائف الحياة تفسيراً لا يخلو من التعسف والإبتسار .

فلقد كان يصف حركات الاجرام السماوية والأشياء بنفس المبارات التي يصف بها افعال الخلوقات الحية . فكما ان الكائن الحي يتجه الى غاية يسمى للوصول اليها فكذلك تفعل المادة الجامدة .

فإذا سئل عن السبب الذي يصيب السهم من اجله صدر الجندي مثلاً اجاب بأن المكان الطبيعي لهذا السهم إنما هو صدر الجندي العدو . وإذا سئل عن السبب في سقوط الاجسام الثقيلة على الارض اجاب بأنها إنما تسقط كذلك لتحتمل مكانها الطبيعي كالقار يبحث عن حفرة يكن فيها . وكذلك النار تصعد الى أعلى لتنتقل الى عالمها الطبيعي الشريف وهو عالم الافلاك ، كالنسر يأوي الى عشه في اعالي الجبال . فكل كائن حي وكل جسم له مكانه الطبيعي ، فإذا ترك شأنه اخذ يفتش عنه فلا يرتاح له بال حتى يستقر فيه : فكل شيء في الطبيعة - كالإنسان - له خصائصه وإرادته وغاياته . هذه هي نظرية الانسان الاكبر والإنسان الاصغر التي سيطرت على التفكير الفلسفي القديم كله .

وهكذا فالغائية عند ارسطو ليست شيئاً خارج الكائن الجامد او الكائن الحي وإنما هي توجهه من باطن . ومعنى ذلك ان الغائية عنده لا تقتصر على الكائن الواعي الذي هو الانسان بل هي منبثقة في الطبيعة بأسرها . لذلك استطاعت الطبيعة ان تربط بين الوسائل والغايات بمحقق عجيب وذكاء خارق يدع الانسان مبهوراً لعظم ما يشاهد .

وهنا تبرز مشكلة جديدة في فلسفة ارسطو : لأنه اذا كانت الغائية انما تحرك الموجود من باطن وكانت هي الموجهة لعلته الفاعلة ، وكان الله غاية الغايات ، أفلا يؤدي هذا الى نوع من وحدة الوجود وحلول الله في صميم الاشياء ؟

د - قدم العالم . - وهذا الوجود قديم . فالهوى موجودة بالقوة منذ الأزل . ومهما كان البون شامعاً بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل الذي تستمد هذه الهوى من الفعل المحض او الله ، فهي على كل حال ليست عدماً محضاً وإلا استحال ان تكون مبدأ لوجود ما بالفعل . فلها اذن بالضرورة شيء من الوجود مهما انحط قدره ، ومن هنا نظرية ارسطو في قدم العالم .

فقد استبعد ارسطو فكرة الخلق وقصر فعل الله في العالم على تحريكه فقط بطريق العشق وجعل هذا التحريك فعلاً ضرورياً لا ارادة فيه بوجه ، لا سيما وقد رأينا ان الحركة أزلية والزمان أزلي ، وكلها مفاهيم تحول دون نسبة الخلق الى الله .

ان العالم لا يحتاج الى موجد اوجده . فكل شيء فيه أزلي أبدي لا يفتقر الى خالق يخرججه الى حيز الوجود ، وإلا لم يتحرك . فالحركة كما مر معنا لا بُد لها من موضوع تقوم فيه ، والهوى هي هذا الموضوع . فلو كانت حادثة لحدثت عن موضوع ، ولكنها هي ذاتها موضوع تحدث عنه الاشياء ، وإلا لزم ان توجد قبل ان توجد ، وهو تخلف . لذلك

استعمال الحدوث المطلق ، اي حدوث الهيولى لا عن هيولى ، لانتفاء موضوع يقوم فيه ذلك الحدوث (او الحركة) . لذلك فقد ذهب بعض الفلاسفة في القرون الوسطى الى ان الخلق ليس حركة او تغيراً ، وإنما هو فعل من نوع خاص لا يحتاج الى موضوع يقوم فيه .

وعلى كل حال ان العالم موجود منذ الأزل وسيظل موجوداً الى الابد . وكل ما هنالك من صلة بين الله وبين الاشياء قائما هي صلة تجاور في الوجود ، بمعنى ان الاشياء موجودة كما ان الله موجود ، وإن كان وجود الله غير وجود الاشياء . والمهم ان نعلم ان الله لم يخلق العالم لأن الله ثابت بظل هو هو دائماً له نفس القدرة دائماً وليس هناك زمان او شيء ان يكون بداية للخلق من زمان آخر . إذ الازمان متساوية ونسبتها الى الله متساوية . فكيف يكون خالقاً في زمان دون زمان ، إلا ان يكون لعجز فيه او لفقدان آلة او تجدد ارادة لم تكن ، وإلا لكان هنالك ترجيح بلا مرجح . فلا خلق اذن ولا ايحاد من العدم وإنما كل شيء قديم لا اول له في الوجود . فالعدم لا ينتج وجوداً ، كما ان الوجود لا يستحيل عدماً .

والخلاصة ان الوجود موجود وليس هنالك من يسلبه الوجود ، كما ان العدم معدوم وليس هنالك من يخرج به الى الوجود . فالوضع الوجودي او اللاوجودي للأشياء لا يُمس ، وإنما هي الصور والأشكال التي تمس . فالوجود يظل كما هو ، وإنما هي الصور تظهر ثم تنساب وتختفي لتحل محلها اخرى في دوامة مستمرة لا غاية لها ولا انتهاء .

د - الألوهية ، - لم تتبلور فكرة الألوهية ولم تتحدد إلا مع ارسطو . اما قبل ارسطو فقد كانت الفلسفة الإلهية محاولات غامضة مشوشة لم تسلم من التردد والتناقض ولم تستقر على مفهوم ثابت محدد . فأفلاطون ، رغم انه يمثل قلة شاذة من قم التفكير الانساني العالمي ، ظل مضطرباً غاية

الاضطراب في تصوّره للألوهية . ولعل مردّ ذلك الى انه شاعر بقدر ما هو فيلسوف . فتارة يعبر عن الله بصيغة المفرد ، وطوراً يعبر عنه بصيغة الجمع . تارة يوحد بينه وبين مثال الخير وتارة يفصل بينها . تارة يعبر عنه بنفس العالم ، اي علة الفاعلة ، وتارة يفرق بين نفس العالم وبين علة الفاعلة ويعدّ نفس العالم معلولة للعة الفاعلة . تارة يصرح بما يفهم منه ان الله هو صانع العالم فيشكّم عن الصانع (*démiurge*) كأنه الإله الأعظم ، وتارة يذكر ما يُفهم منه ان الصانع شخصية اخرى خاضعة لله خضوعاً تاماً مقيدة في جميع أفعالها بالمثل تقلدها وتتخذها نماذج لها في تحقيق مصنوعاتنا . نعم ان افلاطون لا ينكر الألوهية ، وإلا لما سُمّي بأفلاطون الإلهي ، ولما كانت فلسفته كلها مفعمة بالشعور الإلهي ولما كان اسم الله محوطاً عنده بأهى آيات العظمة والإجلال . ولكن ليس المهم ان ينكر الألوهية او لا ينكرها ، إنما المهم ان تكون له فكرة واضحة عنها ، وهذا ما لم يصل اليه افلاطون بل كان مأثرة من مأثر ارسطو .

يستدلّ ارسطو على وجود الله من النظر في ظاهرتي الزمان والحركة اللتين تقدّم ذكرهما :

فلقد رأينا ان الزمان لا بداية له ولا نهاية ، فهو أزلي أبدي ، وذلك لأن كل آن منه فله قبلٌ وبعْدٌ ؛ فلا آن أحق بالزمانية من آن ، إذ كل الآتات سواء . فكلما تصوّرنا آناً تصوّرنا آناً قبله وآناً آخر بعده . فالآتات إذن لا نهاية لها في الأزل والأبد ، وإذن فالزمان موجود منذ الأزل والى الأبد .

والزمان مقياس الحركة . فإذا كان الزمان أزلياً أبدياً فان الحركة التي تقيسه لا بد ان تكون هي ايضاً أزلية أبدية . وهذه الحركة لا تكون علة ذاتها وإلا اجتمع فيها انها علة ومعلول في آن واحد .

هذا الى ان العالم متغير ، وكل تغير فلانما يحدث لتحقيق الكمال والوصول

الى الأفضل . ولما كانت العلة الغائية هي الكمال الذي يتجه اليه كل معلول ، ولم يكن من الممكن ان يحتوي المفضل على الأفضل ، فليس من الممكن إذن ان يشتمل المعلول على علته بل لا بد ان تكون هذه العلة غيره وخارجة عنه .

وهناك نوعان من العلل : علة اولى وعلل ثوان . ولما كانت العلل الثواني معلولة لما قبلها ، فكل متحرك لا بد له من متحرك ، وهذا المحرك لا بد له من محرك . وهكذا دواليك . فإما ان يستمر التسلسل الى غير نهاية ، وإما ان يدور على ذاته ، وإما ان يتوقف على محرك اول .

اما الاستمرار الى غير نهاية فمستحيل لعدم العنور على محرك اول ، وبعدم العنور عليه تبطل الحركة اصلاً ، مع ان الحركة ثابتة بالبرهان . فالاستمرار الى غير نهاية إذن فيه نفي للحركة وللمحرك معاً .

وأما الدور فهو مستحيل ايضاً لأنه يجعل العلة الواحدة علة ومعلولاً في آن واحد .

فلا بد إذن من التوقف عند محرك اول يكون علة جميع الحركة ولا علة له . هذا هو المحرك الاول او علة العلل او الله .

والمحرك الاول لا يتحرك . انه يمدّ بالحركة كل ما عداه وهو منزّه عنها . فهو محرك المحركات دون ان يتحرك . إذ لو كان متحركاً لافتقر الى محرك ، لافتقر المحرك الى محرك ، ويتسلسل . فلا بد ان ينقطع التسلسل ونقف عند محرك اول لا هو يتحرك ولا محرك له من الخارج .

ثم ان الحركة إنما هي انتقال من حال الى حال . فلو أمكن اتصاف المحرك الاول بها لانتقل من الحالة التي هو عليها الى حالة اخرى إما ان تكون أسوأ من الحالة الاولى التي كان عليها او خيراً منها او ماثلة لها ، وكل ذلك يتناقض مع ما يجب له من الكمال المطلق .

فالتحرك الى أسوأ يوجب اتصاف الله بالنقص ، والتحرك حركة بمائلة لحالته الأولى يوجب اتصافه بالمبث اذ لم ينتج عن هذه الحركة شيء ، والتحرك الى الاحسن والافضل يحيز على الله الاستكمال بمعد ان كان ناقصاً . وهكذا فكل حركة تؤذن بالنقص .

ولما كانت الحركة أبدية أزلية ، اي لا نهاية لها ، فيجب ان يكون المحرك الاول لا نهاية لقوته وإلا لم تكن الحركة لانهاية . فإن ذا القوة النهائية لا تصدر عنه حركة لانهاية . كما ان ذا القوة اللانهاية هو وحده القادر على التحريك بحركة لانهاية . فإذا كان النهائي لا يقدر إلا على الحركة النهائية فإن اللانهائي لا حدود لتحريكه . وبما ان البداية والنهاية حدان للحركة ، وبما ان الحركة في الكون لا حدود لها ، بمعنى انه لا ابتداء لها ولا انتهاء ، فإن المحرك الاول المحدث لهذه الحركة ذو قوة لانهاية وبالتالي فإنه هو ايضاً أزلي أبدي .

ثم انه واحد من كل وجه ، يدل على وحدته انتظام العالم وتناسب الحركات بعضها مع بعض ، فإن ذلك لا يُتصور لو لم يكن المحرك واحداً . يضاف الى ذلك ان الحركة الأزلية الأبدية حركة متصلة متساوية تجري على وتيرة واحدة في كل اجزائها ، وهي الحركة الدائرية ، فلا بد ان تكون علتها واحدة ايضاً . فالمحرك لهذه الحركة اذن واحد .

وهو واحد بسيط لا تركيب فيه ولا كثرة بوجه من الوجوه ، فلو كان فيه شيء من الكثرة لكان فيه شيء من المادة والتغير وإمكان الوجود وجواز الانحلال ، إذ كل مركب فمصيره الى الانحلال فضلاً عن ان وجوده متوقف على وجود اجزائه لا يبقى إلا ببقاء هذه الاجزاء .

والمحرك الاول صورة محضة ، اذ الوجود الحقيقي انما هو وجود الصورة الخالصة التي لا تشوبها هيولى او اي شائبة من شوائب الهيولى . لأن الهيولى

نقص وهو منزّه عن النقص . ويترتّب على ذلك انه فعل محض ، فلا يداخله شيء مما هو بالقوة ، وإلا لاحتاج الى فاعل آخر يخرججه من القوة الى الفعل فيكون وجوده مستفاداً من غيره ، والفرض انه علة ذاته . ولا يقتصر أمره على انه فعل محض وصورة محضة ، وإنما هو في قمة الصورية والفعلية وأعلى درجة من درجاتها .

وهو خير محض ، لأن الخير المحض هو ما لا يمكن ان يكون على غير ما هو عليه . وتلك حال الفعل المحض والصورة المحضة ، ولذلك تصبو اليه جميع الكائنات . فهو اذن العلة الغائية التي تتوجه اليها الأشياء والتي تحركها جميعاً دون ان تتحرك .

وأخيراً هو عقل . فهو لما كان صورة خالصة وفعل محض لا تشوبه شائبة من شوائب المادة فانه لا امتداد فيه . ولا كثافة ، إذ الامتداد والكثافة من صفات الهيولى . فهو اذن في مقابلة الوجود المادي وعلى نقضه ، وبالتالي فهو عقل خالص ، اي شأنه التعقل ودأبه التفكير ، فلا عمل له إلا التعقل والتفكير .

لكن ماذا يتعقل وفيه يفكر؟ انه لا يتعقل اي شيء كان ولا يفكر في اي موضوع اتفق ، فهذا لا يليق بالكمال المطلق ، انما يليق به ان يتأمل من هو في مرتبة ذاته كالأ ورفعة . ولما كان المحرك الاول واحداً واحداً لا ندّه ولا شبهه ، وكل ما سواه فإنما هو دونه مرتبة وعلواً ، فالنتيجة الحتمية لذلك انه انما يتأمل ذاته ويفكر فيها وحدها ، وإلا فأى شيء أولى بأن يفكر فيه منها ؟ كيف يعلم من هو منزّه عن كدر المادة ، ما في العالم من الأكدار والأدناس والفواحش من غير ان ينقص من صفاته شيء ؟ فهو سعيد بذاته مبتهج بها ، عاكف على التأمل فيها لا يبغي عنها حولاً . وتأمله لذاته لا استدلال فيه ولا استنتاج ، وإنما هو حدس مباشر يهبه اسمى انواع السعادة ويجعله في غبطة دائمة لا يصل اليها

البشر إلا في حالات نادرة جداً . فهو ليس كالإنسان ينشطر فيه التفكير الى عاقل ومعقول ، فيكون العاقل فيه غير المعقول ، وإنما العاقل والمعقول يكونان فيه شيئاً واحداً وحقيقة واحدة . إذ لا مجال للفرقة فيه بين الذات والموضوع ، الذات التي تعقل والموضوع الذي 'يتعقل' ، وإنما الفرقة تكون في عالمنا الانساني القاصر عن ادراك ما بين الذات والموضوع من هوية مطلقة . وفي هذه الحال ، انه عقل قائم بذاته عاقل لذاته ، معقول لذاته ، أي ان العقل والعاقل والمعقول شيء واحد عندما تطلق على المحرك الاول . فهو عقل وعاقل ومعقول . انه يعقل عقل العقل ، او قل هو فكر فكير الفكر .

لكن اذا كان الله لا يفكر إلا في ذاته ولا يتأمل إلا ذاته مكتفياً بها فكيف يعقل العالم وكيف يعلم ما يجري فيه ؟ ان ارسطو ينبغي علم الله بالعالم لأن في ذلك سقوطاً يجب تنزيه الله عنه . فكما ان من الاشياء ما عدم رؤيته خير من رؤيته ، فلا يليق ان يعلم الله العالم وهو اقل منه ، فانه لا يعلم ما دونه وإلا كان ناقصاً ، لأن شرف العلم إنما يكون بشرف المعلوم ، وأشرف معلوم إنما هو الخير الاعلى والذات المطلقة . والفعل الخالص . فإذا علم شيئاً غيره لحقه دنسه وفسد بفساده وصار ناقصاً مثله . فخير له إذن ألا يعلم ما دام في العلم به حطة له وانتقاص من شأنه .

لكن اذا كان الله لا يعلم العالم فكيف يحركه ؟ ليت شعري كيف يصحّ تسميته بالمحرك الاول وما وجه هذه التسمية ؟ يحجب ارسطو عن هذا السؤال بأن الله إنما يحرك العالم على سبيل الشوق . ويشرح ذلك بمقابلة الهوى بالصورة : فقد مرّ معنا ان الهوى تعشق الصورة وتطلبها وتشتاق اليها . فهي بذاتها امكانية محضة لا تتحقق إلا بعد تحصيل الصورة . وهذا العشق المستمر للصورة من جانب الهوى هو ما يسمى بالحركة . فالصورة هنا هي علة حركة الهوى . وبشيء من هذا القليل يفسر ارسطو

تحريك الله للعالم . فان الله لما كان خيراً محضاً وفعلًا محضاً ومعقولا محضاً وصورة محضة فهو علة غائية للكون تشتاق اليها الهوى وتطلبها . وهذا الشوق هو مصدر حركتها . وبهذا المعنى فان الله هو المعشوق الاول الذي تصبو اليه جميع الكائنات وتطلبه ، كما يطلب المباشق المعشوق فتتحرك بفعل الشوق او الرغبة اليه ويدب فيها النشاط والحياة . فتأثير الله في العالم إذن ليس اكثر من تأثير صورة يتمسكها محبؤها ، إذ هو لا يؤثر فيه إلا بمحاذينته وجماله ، اي من حيث هو علة غائية فقط ، لا عناية لها ولا تدبير ، ولا قصد فيها ولا روية .



يا لها من ألوهية عظيمة شريفة قصد بها ارسطو تنزيه الله وبعاده عن كل نقص . ولكنه أخطأ المرمى . فإذا كان الله لا يتصل بالعالم لا من جهة العلم ولا من جهة الخلق ولا من جهة التدبير فما مبرر القول به إذن ؟ اذا كانت الاشياء إنما تفعل بذاتها وتنظم بذاتها وتسير على أحسن ما يكون السير بذاتها فما حاجتها الى مبدأ يسيّرهما وعلة تنظم أفعالها ؟ اما القول بوجود شوق طبيعي في جميع أجزاء المادة الى هذا المبدأ وعشق له وشغف بحبه ، يدفعها من طور الى طور ، دون ان يكون للإرادة ولا للعلم الإلهيين اي تدبير او تأثير - ان قولاً كهذا لا يفسر شيئاً ، لأنه أدنى الى الشمر منه الى الفلسفة .

لقد كان ارسطو يحلّ الله وينزهه عن كل نقص ، ولكنه ذهب في ذلك مذنباً شططاً حتى جعل من الله محركاً جاهلاً وقائداً لا علم له يبيحه وعلة لا فعل لها في معلولها . فكل شيء مشغوف بحب المبدأ الاول ساع الى لقائهم والاتصال به . وهذا الشوق هو - لا تدبير المبدأ الاول - سبب ترقى الموجودات وانتقالها من طور الى طور . وكذلك تشتت السموات - بدافع العشق ايضاً لا بتأثير من المبدأ الاول وتوجيه الحكيم - ان

نحيا حياة شبيهة بحياة المبدأ الاول ، غير انها لا تستطيع لأنها مادية ، فتحاكيها بالتحرك حركة متصلة دائمة هي الحركة الدائرية .

ان الشعر لا يغني من الحق شيئاً ، مهما بلغ من الروعة والجمال ، فكيف اذا قصر عن المراد ؟ كيف يمكن تدبير هذا العالم من قبل إله لا يعلم إلا ذاته ؟ كيف وجد العالم في الاصل وكيف يمكن ان يبقى اذا لم يكن المبدأ الاول عالماً به مديراً لأمره ؟ أفلا يكون ارسطو بذلك قد جعل الإله والعالم قطعتين منفصلتين لا اتصال لإحدهما بالآخرى ؟ لقد انتقد ارسطو استاذة افلاطون بأنه قال بعالم المثل ثم عجز عن تفسير نشأة الاشياء من عالم المثل . وما هو ذا ارسطو يقع فيما وقع فيه الاستاذ فيضع العالم في جانب ويضع الله في الجانب الآخر دون أن يفسر تأثير احدهما في الآخر تفسيراً يزيل الشك ويقطع دابر الاشتباه ، فيظلال متقابلين لا اتصال بينهما ولا تأثير . والنتيجة الحتمية لهذا ألا حاجة له بالعالم ولا حاجة للعالم بالله . وما أقبحها من نتيجة !

١٠ - الاخلاق

هناك تصوران للأخلاق قديم وحديث . فأما التصور القديم ونعني به الاخلاق عند اليونان فهو مطبوع بطابع السعادة ، أي ان اخلاق اليونان إنما هي اخلاق سعادة . وأما التصور الحديث ، ونعني به الاخلاق منذ كنط ، فهو مطبوع بطابع الواجب . فعلى حين ان قاعدة السلوك عند كنط تقول : « افعل هذا لأنه واجبك » فإن الاخلاق اليونانية تقول : « افعل هذا لأنه يؤدي الى سعادتك » . فالبحث عن السعادة عند اليونان هو المطلب الاسمي للانسان وغيره الاعلى وغايته القصوى . ويعد ارسطو من اوضح الممثلين للاخلاق اليونانية من هذه الناحية ، فالفضيلة واللذة والنجاح والسعادة والخير الاسمي ألفاظ مترادفة لها دلالة واحدة عنده ، فكلها إنما تطلب لذاتها وليست وسيلة لشيء آخر يعلمو عليها ، وهذا من أهم شرائط

السعادة بالمعنى الارسططاليسي . وقد وقف ارسطو كتابه « الاخلاق الى نيقوماخوس » لمعالجة هذه المسألة .

فإذا كانت السعادة هي الغاية القصوى للحياة وكانت إنما تطلب لذاتها لا من اجل شيء آخر ، فلنبعث في ماهية هذه السعادة لنرى كيف تكون افعالنا سعيدة وما هي مقومات الحياة السعيدة .

ما هي السعادة ؟ لا يمكن إدراك طبيعة السعادة بدون إدراك طبيعة النفس وقواها ، إذ السعادة لا تعدو ان تكون حالاً من احوال النفس البشرية . وقد مر معنا ان قوى النفس منها ما هو حظ مشترك بين الإنسان والحيوان والنبات كالقوة الغذائية ، ومنها ما هو مشترك بين الحيوان والإنسان كالقوة الحساسة ، ومنها ما هو ميزة للإنسان وحده كالقوة الناطقة . فسعادة الإنسان بما هو انسان ليست بمزاولة الحياة الغذائية ، لأن الحياة الغذائية لا تعبر عنه كإنسان ، أي لا تعبر عن الميزة التي ينفرد بها الإنسان من دون سائر الموجودات الاخرى ، وإنما هي تعبر عن الإنسان والحيوان والنبات على السواء . وكذلك ليست السعادة بمزاولة الحياة الحساسة او الحيوانية ، لأن هذه الحياة إنما تعبر عن الإنسان والحيوان معاً ولا تعبر عن الإنسان وحده . فلم يبق إذن إلا ان تكون سعادة الإنسان بمزاولة ما يمتاز به من دون سائر الموجودات ، أي بمزاولة الحياة الناطقة على اكمل وجه . وذلك يلعب من القاعدة الاساسية عنده والقائلة بأن أي كائن لا يبلغ غايته ، وبالتالي لا يحقق سعادته وخيره الاقصى إلا بأدائه لوظيفته الخاصة به على احسن وجه . هذا هو المعنى الحقيقي للسعادة بشرطها الأساسي . وهكذا فالسعادة إنما تكون في عمل النفس الناطقة وحدها بما هي نفس ناطقة ، أي بحسب فضيلتها او وظيفتها الخاصة . فإذا كان لها عدة فضائل او ميزات فبحسب افضلها وأكملها ، لا مرة واحدة بل طول العمر ، حتى يصبح ذلك لها عادة راسخة . فكما انه لا يكفي

خطاف واحد او يوم واحد معتدل الهواء للارهاص بالربيع ، فكذلك السعادة ليست فعل يوم واحد ولا مدة قصيرة من الزمن .

هذا وان عمل النفس الناطقة بحسب فضيلتها مصدر لذّة حقيقية لها لأن فيه خيرها . وبذلك يوحّد ارسطو بين اللذة والسعادة ، غير انه يعطي للذة هنا معنى آخر غير المعنى المألوف الذي من اجله تار افلاطون والكليون على اللذة . فاللذة عنده لها معنى روحي يحملها قريبة جداً من الخير الافلاطوني . إنها لذة نظرية مجردة لا صلة لها في الواقع باللذة الحسية التي تتبادر الى الازدهان . فهي ما يعقب تحقيق الفعل المطابق للفضيلة من غبطة وارتياح . انها كمال لم يبق فيه أثر لقوة ، اي هي كمال تحقق بالفعل ، او قل هي بمثابة الصورة بعد ان تتحقق على الوجه الاكمل بالنسبة الى شيء من الاشياء ، وذلك لا يكون إلا في الحياة النظرية ، حياة التأمل والفكر ، لأنه تحقيق لأعلى درجة من درجات الكمال .

ويعترف ارسطو بضرورة النجاح المادي في الحياة لحصول السعادة وتحقيق الخير والفضيلة . إذ من العسير على المرء - إن لم يكن من المتعذر - ان يفعل الخير ما لم يتوفر له المال والبنون والسلطة والجاه والصحة وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا ، فكثير من المكارم لا يمكن الاتيان بها بغير الاستعانة بهذه الامور ، فكلها شرائط للسعادة ان عدت أفسدتها ، إذ لا يمكن لإنسان ان يكون تامّ السعادة وهو قليل الحيلة او كان فقيراً او مريضاً او عقيماً لا ذرية له . ولكن هذه الشرائط ليست دائماً في متناول الانسان بل هي وليدة الظروف والمصادفات ، فانما الدنيا حظوظ وإقبال . وهذا من شأنه ان يجعل السعادة والفضيلة والخير في نظر ارسطو وليدة الصدفة والاتفاق ليس للمجهود الشخصي فيها كبير غناء . لذلك يستدرك فيؤكد ان الانسان قد يحيا حياة مليئة بالآلام ، ولكن هذه الآلام نفسها تحقق له اكبر قسط من السعادة . فالرجل الفاضل اسعد من الشرير مهما

ينزل به من الكوارث . انه يتقبل الصدمات والمصائب بقلب ثابت وعزيمة صادقة . فهو يتشبث بأذيال الفضيلة مهما ساء طالعها ويتلقى ضربات القدر وطوارق الحدثان بجرأة ورباطة جأش دونها شجاعة الشجعان . هذا هو الرجل الفاضل لا يثنيه شيء عن المكارم والمحامد ، وهذا هو دأب الفضيلة في كل زمان ومكان . وفي ذلك يلتقي ارسطو مع استاذة افلاطون .

والفضائل على نوعين : فضائل خاصة بالقوة الناطقة وتسمى الفضائل العقلية ، وفضائل خاصة بالقوة النزوعية او الشهوية حين تطبيع اوامر العقل وتسمى الفضائل الاخلاقية .

فأما الفضائل العقلية فهي كالعلم والفن والحكمة بنوعها النظري والعملي الخ ... وهذه الفضائل 'تكتسب بالتعلم وتنمو بنموه . لذلك كان بلوغها يتطلب وقتاً طويلاً وخبرة عظيمة . والحكمة النظرية هي أم الفضائل جميعها لأنها الفضيلة الوحيدة التي يشارك الانسان بها الله . فالله عقل وتأمل وتفكير ولذلك فهو سعيد سعادة مطلقة . وقد يتاح للانسان احياناً ان يحظى بها إلا في لحظات هي اندر من الكبريت الاحمر . ولذلك فسماعته تظل ناقصة . لكنه كما اوغل في حياة التأمل والنظر استمتع بهذه السعادة واستغرق في البهجة العظمى والغبطة القصوى . وهكذا يشيد ارسطو - كأفلاطون - بعظمة التأمل فيرى فيه الفضيلة العليا التي تسمو على جميع الفضائل الاخرى . ففي الجزء العاشر في كتاب « الاخلاق » يقرر عظمة التأمل وسموه على سائر الفضائل ويؤكد ان الفيلسوف يحيا حياة الالهة إذا قام مثلهم بتأمل الموضوعات الأزلية ، اي الأفلاك في دورانها المنتظم .

وأما الفضائل الاخلاقية فهي كالشجاعة والعفة والكرم الخ . وهذه الفضائل إنما 'تكتسب بالتعود والمران والإرادة الواعية . وهي لا تتكون فينا على سبيل الطبع ، وإلا لما أمكن الاتصاف بأضدادها . كما انها لا 'تضاد الطبع وإلا لما أمكن الاتصاف بها . وكل ما في الامر اننا

مهيأون لاكتسابها . وهذا التهيؤ الذي هو بالقوة إنما يستكمل ويصير بالفعل بحكم العادة والممارسة والتدريب . وهكذا فالاستعداد لقبول هذه الفضائل مركوز في النفس كامن فيها بالطبع ، وما غاية التربية وواضعي الشرائع إلا غرس هذه الفضائل في النفوس وتنشئة الناس عليها .

فإذا تقرر ان الفضائل ليست طبيعية وإنما هي تُكتسب اكتساباً فيمكن القول في حدّها انها ملكات خلقية مكتسبة راسخة في النفس يكون الفعل فيها حراً صادراً بحض الإرادة لا بأي تأثير خارجي ، فيكون المرء بحسبها صالحاً قوياً يقوم بما ينبغي عليه على أحسن وجه وأكمله .

ويرتبط معنى الفضيلة عند ارسطو بمفهوم الوسط العدل بين رذيلتين احدهما إفراط والاخرى تفريط . فالشجاعة مثلاً وسط بين الجبن والتهور ، والعفة وسط بين المجون والجمود ، والكرم وسط بين الإسراف والتقتير الخ . فعنبر الامور أوساطها .

وإذا كانت الفضيلة وسطاً بين رذيلتين ، فليس هذا الوسط وسطاً رياضياً ثابتاً يُقاس بطريقة آلية مطلقة كالوسط الذي نعنيه في الكم المتصل ، وإنما هو وسط متموّج متذبذب رجراج كالزئبق لا يثبت على حال واحدة ، لأن أفعال الناس وإنفعالاتهم لا تحتل مثل هذه الدقة ولأن الناس يختلفون في الطباع والاستعدادات ويتباينون في ظروف حياتهم وأحوالهم المعيشية والعقلية . فاختيار الوسط إذن يختلف باختلاف الاشخاص وتباين أحوالهم ، ويجب ان يُراعى فيه « من » و « أين » و « متى » و « كيف » و « لِم » ، وبذلك يعنى معنى الفضيلة عند ارسطو ويزداد دقة . لذا يعرفها بالإضافة الى التعريف السابق بأنها ملكة خلقية إرادية راسخة في النفس تجعل صاحبها قادراً على تحطيط الإفراط والتفريط واختيار الوسط بينهما ، بناءً على مبدأ عقلي سديد . وعلى نقيض ذلك تكون الرذيلة : انها التنكس عن الوسط واختيار احد الطرفين : الإفراط والتفريط ، كلاهما شر .

ويجب ان نحترز من الاعتقاد بأن لجميع الافعال والإنفعالات اوساطاً ، لأن منها ما لا وسط له . فمن الانفعالات (كالسود والغيرة والفيظ) ومن الافعال (كالسرقة والقتل والزنى) ما يدل بمجرد ذكر اسمه على شر . فهي ردائل بالذات لا بحكم الاقراط او التفريط ، تفوح منها رائحة الإثم والفجور . كما ان من الفضائل ما لا يمكن تحديد طرفيها المرذولين : فالصدق مثلاً ليس سوى ضد الكذب ، والنظر العقلي ليس سوى ضد بلاة الذهن . ولئن كانت الفضيلة بحكم التعريف وسطاً بين رذيلتين إلا انها في ذاتها ليست نقصاً في الكمال بل لها قيمة مطلقة هي في غاية الشرف والكمال . اذن اختيار الوسط لا يكون خبط عشواء ، بل بحسب ما تقتضي به الحكمة وأصالة الرأي بعد تقدير جميع الظروف المحيطة بالفعل واستقراء كل جزئياته وأحواله ، لمعرفة ما يجب فعله « هنا الآن » اي في الحالات الخاصة التي يختلف الحكم عليها باختلاف الزمان والمكان .

١١ - السياسة

ان السياسة امتداد للأخلاق عند ارسطو كما كانت عند افلاطون . وعلى الرغم من انه كان أوضح من استاذه في الفصل بين الاخلاق والسياسة إلا انه لم يجعل هذا الفصل تاماً . فالأخلاق عنده مصبوغة بصبغة السياسة ، بكل ما للسياسة من محاسن ومساوىء . ولن تنفصل الاخلاق عن السياسة فصلاً نهائياً إلا بعد ارسطو ، ولا سيما عند الرواقيين . فالأخلاق الجديدة عندهم لن تكون متصلة بالسياسة ، إذ سينطوي الفرد على نفسه قلن يعنيه من امر الجماعة شيء ، وعندئذ سيكون الفصل تاماً بين اخلاق الدولة وأخلاق الفرد ، بل سينشب نزاع بينها ، وستطرح لأول مرة المشكلة التي يسمونها مشكلة الفرد والمجتمع .

وعلى كل حال 'عني ارسطو بالسياسة كما عني افلاطون من قبله ، لكن سياسة ارسطو تختلف عن سياسة افلاطون من حيث المنهج ومن حيث الروح .

فأما من حيث المنهج فانتنا نجد ان منهج افلاطون منهج معياري فلسفي . بمعنى انه يهتم في سياسته المثلى بما يجب ان يكون ، بصرف النظر عما هو كائن بالفعل . بينما يهتم ارسطو بما هو كائن من حيث وصف نظم الحكم الممكنة وبيان نشأتها ووضع نظرية في الدولة على اساس الدراسة الموضوعية والواقع العلمي . هذا هو المنهج الوضعي التكويني ، اذا صح استعمال تعبير عصري جديد للكلام على اوضاع قديمة لا تنطبق عليها تعابيرنا الحديثة إلا بالكثير من التمثل والافتعال .

وأما من حيث الروح فان سياسة افلاطون تكاد تختلط بفلسفته كلها وتطبعها بطابعها ، حتى ليتمكن القول بشيء من التجوُّز ان فلسفته سياسية كما ان سياسته فلسفية . وأما ارسطو فان سياسته قد جاءت في آخر مذهبه تنويهاً له كأنما أحس ان هذا المذهب لا يكتمل إلا بإضافة ذوابة من السياسة اليه . فالسياسة عنده تكاد تكون متميزة من الأجزاء الأخرى من فلسفته ، وهو يدرسها دراسة فنية كأنها فصل من الفلسفة يشرحه شرحاً موضوعياً ، فإذا كتاب « السياسة » ^(١) الذي عليه معولنا هنا كتاب فاتر يعوزه دفء الحياة وصدق الشعور ، أين منه كتاب « الجمهورية » .

يبدأ كتاب « السياسة » بعلم تدبير المنزل . فيفند الزعم القائل بأن الفرد هو نواة المجتمع . فنواة المجتمع انما هي الأسرة لا الفرد ، لأن الفرد حيوان مدني بالطبع ، أي لا يمكن ان يعيش منعزلاً عن الآخرين ، بل لا بد ان يوجد في جماعة ، اللهم إلا ان يكون بهيمة او إلهاً ، فكلهما لا يحتاج الى غيره ، إما لنقص فيه (كالبهيمة) او لكاله المطلق (كالله) . والأسرة هي نواة هذه الجماعة وهي نواة تكفي نفسها مؤقتاً لتأمين حاجاتها اليومية . فإذا أرادت ان تحقق حاجات أخرى فوق الحاجات اليومية

ارتبطت بأسر أخرى فحصلت القرية . فإذا تشعبت حاجات القرية فتطلعت الى قرى أخرى غيرها تتبادل معها المنافع والمصالح نشأت الدولة ، او كما تسمى « دولة - المدينة » (Polis) . فدولة المدينة تشمل سائر المجتمعات وتفي بأوسع حاجات الانسان ، وهي مجتمع طبيعي بكل معنى الكلمة ، وليست مجتمعا مصطنعا كما يقول السوفسطائيون . فهي كائن عضوي يتألف من مجموعات من الخلايا هي الأسر ، تعمل في تناسق بينها كالجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحتمى والسهر . ولئن كانت لاحقة للأسرة في الزمن ، إلا انها سابقة عليها من جهة الحقيقة والقيمة ، لأن الككل سابق على أجزائه من حيث هو غاية . فالدولة هي الغاية ، والأسرة هي وسيلة تحقيق هذه الغاية ، والوسيلة متأخرة عن الغاية ، والغاية متقدمة على الوسيلة في الشرف والرتبة والحقيقة ، او قل انها صورة ، والأسرة بمثابة الهيولى لها ، والصورة أسبق من الهيولى وأعظم قيمة وأكثر شرفا وأعظم رتبة .

وتتألف الأسرة من الرجل والمرأة والأولاد والعبيد . الرجل رأس الأسرة وسيدها وإليه تعود امورها ، لأنه يتميز بالعقل والحصافة وجودة الرأي . وأما المرأة فدونه عقلا ، ووظيفتها العناية بالأولاد والمنزل . ويرجع الى العبيد تحصيل الثروة وتأمين الحاجات الضرورية لقوام الأسرة . فهم أدوات حية وآلات للحياة والإنتاج ، يقومون بالأعمال المنافية للمواطنين الإغريق الأحرار . فهؤلاء سادة لا يجوز استرقاقهم لأنهم جمعوا بين الروح العالية والشجاعة التي ينفرد بها أهل الشمال ، وبين الخلق والذكاء والمهارة التي يتصف بها الشرقيون . فلأنما الناس مقامات ودرجات وعلى الأعلى ان يسيطر على الأدنى كما على الأدنى ان يخضع للأعلى ويطيعه . هذا هو حكم الطبيعة وهذا هو ناموسها . فأنسى اتجهت تجمد فروقا بين الكائنات والاشياء ، بين النفس والجسد ، بين الانسان والحيوان ، بين الذكر والأنثى ، فلا تثريب عليك ان تجمد نفس الفروق بين طوائف البشر .

ولقد حاول ارسطو ان يخفف من وطأة نظام الرق هذا ، فأوصى السيد بالألا يسيء معاملة عبيده بل ان يحسن معاملتهم ويهبهم الأمل في العتق والحرية . كما رأى ان الفرق بين السيد والعبد ليس واضحاً على الدوام وأنه لا يلزم لابن الرقيق ان يكون رقيقاً بالوراثة والطبع ، بل ان ارسطو عندما حضرته الوفاة اوصى بعق عبيده جميعاً . وفضلاً عن ذلك انه يرى ان الاستعباد بالفتح ليس مشروعاً لأنه قائم على القهر والبطش لا على انعدام بعض المزايا الطبيعية . فالقوة والفطنة لا يعنيان دائماً التفوق والامتياز . فالحر حر رغم ما ينزل به من عسف وعبودية ، وعبوديته انما هي عبودية بالعرض . والعبد عبد رغم ما يحققه من نصر واستعلاء . وهكذا فمن العبيد من لم يُخلق للعبودية ، ومن الاسباد من لم يُخلق للسيادة ، فكلامهما عبد او سيد بالعرض والاتفاق لا بالجواهر والحقيقة ؛ فما لم يكن النصر والقلبة ناجحين عن مزايا ذاتية لم تكن الحرب عادلة ويجب ان يسقط حق الاستعباد . ولما كان نظام الرق في معظمه ناشئاً عن الحرب فهو امر مستهجن كره وعمل غير مشروع . وعلى كل حال لقد كان الرق على عهد ارسطو اصلاً من اصول الاجتماع فلم يكن بد من الاعتراف به ، ولم يكن بد من تعليقه . وكان موقف ارسطو فيه اقل ما يمكن لرجل من طرازه ان يفقه ، ولا عليه بعد ذلك ان يشارك عصره في بعض هناته .

ويختلف ارسطو عن افلاطون في تقدير قيمة الفرد وصلته بالدولة . فبينما كان افلاطون يجرّد الفرد من قيمته الفردية ليجعل منه اداة مسخرة لخدمة الدولة ويصهر كيانه في جهازها العظيم ، اذا بأرسطو يعيد للفرد فرديته وينحّه الكثير من الاستقلال والحرية لينعم في ظل الدولة وحمايتها بحياة خصبة واعية معطاء . فهو لا يذيب الفرد في الدولة كما فعل افلاطون عندما انكر على الحكام مثلاً حق الملكية والزواج وقرض عليهم شيوعية النساء والأولاد خشية ان يدب الخلاف بينهم ، حتى انتهى الى ضرورة

اشتركهم في كل شيء امعاناً منه في تأكيد وحدة الدولة وتماسكها . كلا ، لم يفعل ارسطو شيئاً من هذا لأن فيه ما يخالف الطبيعة البشرية ويفرّج بالحياة الاجتماعية . فأفلاطون كان واهماً حين ظن ان الدولة ينبغي ان تكون وحدة متجانسة تلتقي فيها الكثرة والتنوّع . فالفرد انما هو الوحدة ، وأما الدولة فهي كثرة متنوعة تتعدد فيها المنافع وتتشابك المصالح . فليست الملكية الخاصة سبباً للاختلاف والثيقاق ما دمنا لا نسمح بتركيزها في بعض الأيدي ، وإنما هي مدعاة للتنافس بين الأفراد وحافز لكل شخص على العمل وزيادة الانتاج ، مما يعود على الفرد والمجتمع والدولة بالخير العميم . كذلك يجب الإبقاء على العلاقات بين الابن وأبيه والزوج والزوجة والأولاد ، لأن في ذلك استمراراً لحياة الأسرة وترباطها ، وإلا كان الابن ابناً للجميع والأب اباً للجميع والزوجة زوجة للجميع ، ومن كان كذلك لم يكن ابناً لأحد ولا اباً لأحد ولا زوجاً لأحد ، ولن يجد احداً يشعر نحوه بعواطف الأب والأم او الزوج . فتتبع العلاقات الطبيعية وتضيع العواطف الانسانية وتذوب أسمى المشاعر وأنبهها . فبست من حياة ، وما اخزاء من مجتمع !

ويختلف ارسطو عن افلاطون ايضاً في انه لم يضع نظاماً صارماً للمدينة الفاضلة ، لأنه رأى ان نظام المدينة يختلف باختلاف الزمان والمكان . لكنه قسم انواع المدن اقساماً ستة ، ثلاثة منها فاضلة يقابلها ثلاثة اخرى مضادات لها وهي :

(١) مدينة الرشاد ، وهي حكومة الفرد الفاضل العادل المتفوق بعقله وحكمته . فهو لذلك يحكمها بحقه الطبيعي . ولكن حكمه لا يطول . فاذا فسد نشأت :

(٢) مدينة العسف والظفیان ، وهي التي يتولاها حاكم بأمره مستبد غاشم .

(٣) المدينة الارستوقراطية ، وهي حكومة الاقلية العاقلة المتنازة بكفائتها وشمائلها الخلقية والروحية . ولكن العقل لا يسود دائماً . لذلك فسرعان ما يدبّ فيها الفساد فتنشأ عنها :

(٤) مدينة اليسار ، وهي الحكومة التي يتولى زمام الحكم فيها طبقة الأغنياء والأعيان .

(٥) المدينة الجماعية ، وهي الحكومة التي تقتصر سلطة الشعب فيها على انتخاب الحكم ، فيزاول هؤلاء الحكم بإشراف الشعب ويقدمون له الحساب باستمرار ، لكن كثيراً من المخاطر تتهدد هذا النظام امهما ان ينتقل الحكم الى ايدي الفوغاء .

(٦) مدينة الفوغاء ، وهي حكومة العامة تتبع اهواءها المتقلبة الهوجاء وتتولى الحكم بنفسها دون مراعاة لقيم الرجال وأقدارهم .

لكن كيف السبيل اذن الى المدينة الفاضلة التي لا تخلق في الخيال ويكون لها مع ذلك جذور عميقة راسخة من الواقع الانساني ؟ للرد على هذا السؤال يعمد ارسطو الى نظرية الأوساط في الاخلاق والتي مؤداها الحكمة القائلة « سحب التناهي غلط ، خير الامور الوسط » . فليس هناك شكل خاص من اشكال الحكم هو في نفسه خير الاشكال . فكل منها له محاسنه ومساوئه ، وكل منها انما يصلح لظروف معينة وأمم معينة في اوقات معينة . لذلك ليس من المستحسن ايثار احدها على الآخر وعدها كاملاً دون سواه . وخير الأمور ان نبادر الى الطبقات فنقوها ونزيد في عددها . فأحسن الدول نظاماً انما هي تلك التي تكون الطبقات الوسطى فيها اكثر عدداً وأعظم قوة من الاغنياء والفقراء . وعندما يقل عدد الطبقات الوسطى عن المطلوب تتغلب عليها الطبقة التي تفوقها في العدد سواء كانت طبقة الاغنياء او طبقة الفقراء . فإذا ما سيطر الاغنياء على الفقراء او الفقراء على الاغنياء لم تستطع هذه الطبقة او تلك ان تقيم دولة حرة .

فالطبقة الوسطى هنا وسط بين طرفين . فهي اذن تعبر عن المبدأ الاساسي الذي اتخذه ارسطو لنفسه في الاخلاق وهو ان « خير الامور الوسط » . ويسمي ارسطو هذا النوع من الحكومة « الحكومة الدستورية » (البوليائية) فهي حكومة وسط تمثل جميع الطبقات خير تمثيل يمكن الوصول اليه . ولما كانت كذلك ففي مقدور زعمائها وقادة الرأي فيها ان يصمدوا للتيارات المتطرفة ، كما ان هذه التيارات تجد نفسها اقرب الى كتلة الوسط منها الى التيارات المقابلة التي تقف معها على طرفي نقيض . وفي ذلك ضمان لبقاء هذه الكتلة بعيدة عن الهزات ، اذ تتقرب اليها جميع احزاب التطرف وتتخذها نكاة لمحاربة خصومها .

ومع ذلك فإن ارسطو لا يلج على هذا النوع من الحكم الحاح افلاطون على مدينته الفاضلة . فالحكم الصالح لشعب ما انما تقرر - بحسب ارسطو - طبيعة هذا الشعب وأوضاعه الخاصة التي تختلف من شعب الى آخر . كما ان اشكال الحكم ليست انواعاً ثابتة مطلقة وإنما هي متغيرة رجراجة تختلف باختلاف الظروف والاحوال . فليس هناك شكل واحد للحكومة الرشاد او الحكومة الجماعية او الحكومة الارستوقراطية ، وإنما لها اشكال متعددة لكل واحد منها خصائصه ومتطلباته .

بهذه الاعتبارات لا نبني في الهواء مدينة نظرية لا وجود لها إلا في احلام الفلاسفة . فالفلاسفة - وأكثرهم كأفلاطون لا كأرسطو لسوء الحظ - يطلبون الأفضل بإطلاق ، لا بالإضافة الى ما هو ممكن مستطاع ، ويتجاهلون الفروق والتنوعات ، فيردونها الى وحدة منطقية مجردة تكون متسقة منسجمة مع نفسها، ولكنها - وهذا هو عيبها الاساسي الذي تتلشى بجانبه كل خصائصها المنطقية - تظل بعيدة عن الواقع المحسوس . فهيهات لمدينة من هذا القبيل ان تتحقق او ان يكون لها اي حظ من الاستقرار .

وهكذا فإن ميزة ارسطو على افلاطون انما هي ميزة الواقع على الاحلام ،

والحقيقة على الخيال . ولكن ذلك لا يحرد الخيال من سحره وجماله ، كما لا ينفي عن الواقع ما فيه من عيوب وأخطاء . والحق ان لكل من الخيال والحقيقة خصائصه وأحكامه .

ان ارسطو اكثر تجرية من افلاطون . فقد اطلع على دساتير امم كثيرة قبله ودرسها واستخرج العبرة منها وكانت له ملاحظات هامة في شأنها . ولكن افلاطون أخصب خيالاً وأمتع تصويراً وأهين حلة . ففي محاوراته من الجمال والاصالة والفن ما لا نجد له مثيلاً في غيره من نوابغ الفكر والأدب .

فأعظم بأفلاطون وأرسطو من عملاقين فذين اجتمع لهما في جيل ما قد تفرق في شتات الأجيال !



الافلاطونية المحدثة

٧

الافلاطونية المحدثة^(١)، هي إحدى الموجات الفكرية التي انطلقت من الاسكندرية في القرون الاولى للميلاد. فقد كانت الاسكندرية عاصمة للعلم والفكر خلقت أثينا بعد ان خبا ضوؤها وزال عنها ما كان يشد الرحال اليها.

ولقد تلاقت في الاسكندرية مذاهب حجة ومدارس متعددة، وذلك لموقعها الجغرافي بين الشرق والغرب، وبعدها عن الحروب التي توالى على آسيا وبلاد اليونان. وكانت بها مكتبة ضخمة تضم نصف مليون بردية كانت قبلة الانظار في الشرق والغرب. فيها نبغ اقليدس (القرن الثالث قبل الميلاد) ووضع كتابه العتيد في الهندسة. وفي قاعات الدرس منها ايضاً تعلم ارخميدس (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م.). كما نبغ فيها ايضاً العالم الجغرافي والفنوي اراتوسن (Eratostenes) (٢٧٥ - ١٩٤ ق.م.) وكان اميناً لمكتبتها الشهيرة، وهو اول من سمى نفسه بالفيلولوجي تمييزاً له عن

١ - Néoplatonisme أو مذهب الاسكندرانيين كما يسميها العرب .

الفيلسوف . وفيها أيضاً ذاع اسم مدرسة الطب وترجمت التوراة الى اللغة اليونانية ، ونشطت الرياضة والكيمياء ووضعت اسس تصنيف العلوم ونقد النصوص وشرحت المذاهب الدينية والفلسفية ، وازدهرت التجارة والصناعة . وفيها اخيراً امتزجت الآراء والأفكار والمذاهب والأديان والمعتقدات ، واصطبغت اليهودية أولاً ثم المسيحية ثانياً بالصبغة اليونانية .

وعصر الاسكندرية من العصور الطويلة في التاريخ نسبياً . فهو يمتد من فتح الاسكندر الأكبر للشرق سنة ٣٣٦ ق.م. حتى الفتح الإسلامي في منتصف القرن السابع للميلاد . ويطلق على القرون الثلاثة التالية لموت الاسكندر (٣٢٣ ق.م.) اسم العصر الهليني ، وإن كان أثرها يمتد الى ما بعد الميلاد قرونًا طويلة . والهلينية (Hellénisme) من هيلين (Hellène) أي يوناني ، وتعتبر في معناها الاصطلاحي عن طابع الفكر والحضارة على أثر فتوح الاسكندر للشرق وامتزاج الفكر اليوناني بالروح الشرقية .

هذا والعصر الهليني خصائص عدة نجملها فيما يلي :

(أ) توفر العناية بمذهب افلاطون أولاً وقبل كل شيء ثم الجمع بينه وبين ارسطو وضم الآراء المتعارضة بعضها الى بعض وشرحها والتوفيق بينها والتعليق عليها بما يتفق وكتب الوحي .

(ب) التشبع بالأفكار والآراء والمعتقدات الدينية والوثنية من زرادشتية وبوذية ومناوية ويهودية ونصرانية ، وسيكون لكل ذلك آثار بعيدة المدى في تطور التفكير الفلسفي .

(ج) بدء الانفصال بين العلم والفلسفة بعد ان كانا مرتبطين في المذاهب الفلسفية الكبرى . فقد كان القرن الثالث قبل الميلاد من ازهي عصور العلم القديم . فيه قام علماء اختصاصيون عنوا بتمحيص المعارف الموروثة وتهذيبها والزيادة عليها . وعلى الجملة شهد هذا القرن بداية تحجر العلوم من ربة

الفلسفة ، ولا سيما في مدونة الاسكندرية . اجل في هذا القرن ثم في القرون التي اعقبته اخذت الكيمياء والهندسة وعلم الفلك وعلم الطب والجغرافيا تنفصل عن دوحه الفلسفة بعد ان كانت جزءاً لا يتجزأ منها . نعم لم يكن الانفصال تاماً بالمعنى الحديث الذي بدأ في القرن الثامن عشر ، ولكنه على كل حال انفصال ما ، كان من شأنه بروز بعض الحركات العلمية التي تتطلب الدقة والتحديد على حساب الشطحات الفلسفية التي لا ضابط لها ، إلا ان ذلك لا يمنع ان بقايا من التفكير الغيبي والسحري والصوفي ظلت تشوب طرق التفكير العلمي وتؤثر فيها .

(د) انتشار النزعات الصوفية والتعلق بالسحر والتنجيم والغيبيات والايان بالحوارق .

في هذا الجو نشأت الافلاطونية المحدثة ، فكانت آخر حركة فلسفية طلعت بها العبرية اليونانية عند افتتاحها على الشرق وآخر مجهود خلّاق بذلته العصور الوثنية القديمة لإنتاج مذهب فلسفي شامل يمكنه تلبية مطامع الانسان وحاجاته العقلية والدينية والاخلاقية ، وذلك بتقديم صورة شاملة للكون متسقة منطقياً ، جميلة فنياً تحقق للانسان الخلاص في الحياة العاجلة والنجاة في الدار الباقية .

ويلبغني ان نؤكد هنا ان مصطلح « الافلاطونية المحدثة » ^(١) مصطلح حديث . فالاشخاص الذين يُطلق عليهم هذا الاسم كانوا يزعمون انهم افلاطونيون . اما معرفة ما اذا كان هذا اللفظ ينطبق عليهم وهل كانوا افلاطونيين حقاً ، فمسألة تتنازعها الآراء . ودون ان ندخل في التفاصيل

١ - يطلق عليها البعض اسم « الافلاطونية الحديثة » وهذا خطأ يقع فيه الكثيرون . فهي ليست حديثة بمعنى (moderne) ولكنها وليدة افكار افلاطون القديمة . فهي منبثقة منها محدثة عنها .

نستطيع ان نؤكد ان الافلاطونية المحدثه قد عمدت الى افكار افلاطون والأصول التي استقى منها افلاطون فلسفته من اورفية وفيثاغورية وامبيدوقلية فمزجتها بالأفكار التي جاءت بعده وتسير معه في خط واحد تقريباً من رواقية ومعتقدات وثنية وأساطير وطقوس وعبادات كانت شائعة في الأديان الشعبية ، ثم اعطت ذلك كله دعامة عقلية من فلسفة ارسطو ؛ فخرج من ذلك كله مركب جديد كان آخر ما انتجته القرائح قبيل الفتح الإسلامي .

ولانستطيع هنا بطبيعة الحال ان نلم بجميع رجال العصر الاسكندري والافلاطونية المحدثه ولكننا سنجتزئ بقطبين من اقطاب هذه الحركة الضخمة يمثلان احسن تمثيل وكان لهما الفضل الأكبر في اعطائها الصورة التي استقرت عليها والتي ستهيء المناخ الفكري للفاتحين العرب عندما يغزون مناطق الإشعاع الحضاري آنذاك فيتأثرون بها ويؤثرون فيها .

هذان القطبان هما فيلون وأفلوطين .

١ - فيلون (٢٥ ق.م - ٥٤ ب.م)

اشهر فلاسفة اليهود في القرن الأول للميلاد . وهو من أسرة نبيلة في الاسكندرية . وضع مذهبه باللغة اليونانية وأشرب قلبه حب الفلسفة ولا سيما فلسفة افلاطون حتى لقد لقب بافلاطون اليهود . كما كان يؤمن بالتوراة ويرى ان هذا الكتاب وحي الله الصادق وتزليه الحكم ، ولئن كان معجباً بفلسفة افلاطون فان إيمانه بشريعة موسى كان لنفسه امثلك وبقلبه اوثق . فالحقيقة كلها إنما هي موجودة في التوراة ، لكن افلاطون قد توصل اليها ايضاً بنسوع من الوحي . فالفلسفة اليونانية والشريعة اليهودية كلتاهما تعبر عن الحقيقة ، لكن طريقة التعبير تختلف في الدين عنها في الفلسفة . فالدين حق والفلسفة حق ، وكل ما بينها ، من فارق

ان الدين أكمل وأتم ، وان كان أقل تفصيلاً وتدقيقاً . انه وحي يهيه
الوضوح والبيان الشافي لا الدخول في تفاصيل الأدلة ودقائقها . والفلسفة
هي أيضاً وحي ، ولكنها وحي عميق غامض أقل شمولاً من الدين واكثر
تفصيلاً وادق صياغة . فأفلاطون وارسطو إنما استمدا تعاليمها من موسى
ومن التوراة ، ومن هنا نشأ ما لها من حكمة وفكرة ، لذلك كان على
فيلون ان يفصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال .

والطابع العام لفلسفته التأويل الرمزي « allégories » للتوراة . وقد
عرف هذا التأويل في الاسلام والمسيحية فيما بعد ، إذ كان الاعتقاد سائداً
ان الكتب السماوية إنما تخاطب الناس جميعاً ، العامة منهم والخاصة ، ولهذا
فهي تلجأ الى الرموز واستعمال المجاز ضناً بالحقيقة على غير أهلها وسراً
لها ، واذن فالتأويل ضروري لان فهم النص على حقيقته ليس مقدوراً
للجميع . فباستعمال الأمثلة والصور والرموز تقرب الحقائق الى افهام
الناس ، فيأخذ العامة بظاهر النصوص ويحدون فيها بقنماً والكفاية ،
واما الخاصة فيتناولونها وبأخذون بيوهر معانيها وبذلك يستخرجون ما
في التوراة من فلسفة كانت ستظهر عارية منها لو أخذت بنصوصها
حرفياً .

ان التأويل في نظر فيلون ممكن على ان نعرف كيف نؤول نص
التوراة في ضوء الفلسفة . فمن الضروري تأويل النصوص التي تثبت لله -
إذا اخذت حرفياً - ما لا يليق به من الصفات والاحوال كالتجسم والكون
في مكان والكلام بصوت وحروف ، والغضب والندم ... فالله كما يقول فيلون
لا يستغزه الغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات ، وليس له من مكان
يقر فيه . وعندما يعرض فيلون لقصة خلق الله للعالم في ستة ايام يتغني
عن الله الحاجة الى مدة من الزمن يخلق فيها العالم ، ولكن موسى لا يسمعه
إلا ان يستعمل اللغة التي نفهمها نحن البشر ليصف لنا نظام العالم الذي خلقه

ورثيته ومنزلته بعضه من بعض . فمن السذاجة الاعتقاد أن العالم 'خلق حقاً في ستة أيام او في فترة من الزمن أقل من ذلك أو أكثر .

وهو يرى ان التوراة انما تصوّر قصة النفس في اقترابها وابتعادها عن الله بقدر اقترابها او ابتعادها عن الجسد ، وفي تأويله للفصل الأول من « سفر التكوين » يؤكد ان اول ما خلق الله العقل السماوي الذي يحيا بالعلم والفضيلة ، ثم خلق الله على مثاله عقلاً أرضياً يرمز به لآدم . ثم تفضل عليه بنعمة الإحساس الذي يرمز لحواء ، فانقاد العقل للحس واستسلم للشهوة التي يرمز لها بالحية . ثم تأس النفس على ما فرطت في جنب الله وتندم ، فيجىء نوح الذي يرمز للمدالة ، ويقع الطوفان رمزاً للتطهير التام .

هذه بعض الأمثلة لطريقة التأويل لنصوص التوراة عند اليبا فيلون ليحمل من شريعة موسى شريعة عامة للناس كافة ، عوامهم وخواصهم ، في كل زمان ومكان .

وطريقة التأويل الرمزي هذه كانت شائعة جداً في عصر فيلون . وهي طريقة قديمة ولعلها انما ترجع الى الاسرار الاورفية . وقد استعملت في شرح اشعار هوميروس وتأويلها تأويلاً يحمل من صاحبها ارسططاليسيا ورواقيا وأبيقورياً في آن واحد . كما عرفها الرواقيون ايضاً ولجأوا اليها في تفسيرهم للأساطير اليونانية وعقيدة الآلهة في الديانة الشعبية .

وكان نومينيوس (Numenius) من أهل اباميا (Apamea) ، توفي حوالي سنة ١٨٠ ق. م. والذي نعرف تعاليمه مما ورد من كلامه في يوسيبوس (Eusebius) ومن اشارات قليلة اخرى ، أقول كان نومينيوس هذا اول فيلسوف يوناني يظهر اي تقدير للدين العبري . فقد وصف افلاطون بأنه أشبه بموسى يتحدث بلهجة اثينا ، وفيه تتجلى بشدة نزعة واضحة الى

التوفيق الديني على ما نحو ما يظهر عند رجال الافلاطونية المحدثه^(١) ، وقد كانت هذه النزعة ايضاً واسعة الانتشار في القرن الثاني وما بعده ، لا في الاسكندرية وحدها ، بل في كل مركز فلسفي عالمي ، لكن الاسكندرية كما يقول بريميه كانت هي المركز الأم لهذه الطريقة في نحو عصر فيلون وكانت كتاباته هي المعين الأم لها^(٢) . ويقال ان امونيوس (ولعله امونيوس سكاس) حاول التوفيق بين افلاطون وأرسطو . وقد لاحظ فرفوربوس السوري في مؤلفات استاذة افلاطون خطأ بين آراء الرواقيين والمشائين فوضع سبع رسائل في التوفيق بين ارسطو وأفلاطون . كما كانت يجيى النحوي واصطفن الاسكندري من أشهر الموفقين بين الفلسفة والدين المسيحي . وهكذا ايضاً سيكون طابع الفلافة الاسلاميين والمسيحيين في القرون الوسطى . لقد كان توفيق هؤلاء قائماً على ان الحقيقة واحدة ، لما في الدين لا يناوئ الفلسفة ، وما بين الفلاسفة لا يناوئ بعضه بعضاً . فإن اختلف الدين مع الفلسفة او اختلف فيلسوف مع آخر فهذا الاختلاف إنما يكون في العبارة دون الجوهر . ولا تقتصر نزعة التوفيق هذه على التوفيق بين الدين والفلسفة او بين الفلاسفة بعضهم مع بعض ، بل لقد شملت ايضاً التوفيق بين الأنبياء . فان امونيوس السالف الذكر قد ألفت - على ما يقول هيرونيموس (Hieronymus) - « سفرأ لطيفاً في التوفيق بين موسى وعيسى »^(٣) .

أجل لقد كانت محاولات التوفيق قائمة على قدم وساق في القرون الاخيرة قبل الميلاد والقرون الاولى بعده . فلما جاء فيلون ألم بأراء

١ - انظر اوليري : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب (الترجمة العربية) ص (٧٠) .
 ٢ - Bréhier, Les idées religieuses et philosophiques de Philon d'Alexandrie p. 99 - 37.

٣ - نقل عن اوليري ، المصدر السابق ص ٢٨ .

سابقه ومعاصريه في هذا الباب ، غير انه لم يستطع ان يخلصها من شوائبها ولا ان يضمها في نظام موحد او ان يستر ما فيها من التناقض والضعف . وقد ظهر ذلك في اسلوبه الرمزي الذي توصل به الى وضع نظرية فلسفية يشرح بها عقيدته في الالهية وصلتها بالوجود . وهذه النظرية يمكن إجمالها فيما يلي :

ان الكائن الذي قال به افلاطون هو نيهو إله بني اسرائيل الذي بشر به موسى . وهو إله مفارق للعالم ، فوق الجوهر وفوق الفكر ، خارج عن الزمان والمكان ، لا يقبل الكيف ولا يحدّه العقل ، على كل شيء قدير ، وإلا لم يكن إلهاً ، فالاصل في الالهية الفعل والقدرة والتأثير . وهو خالق هذا العالم ومصدر الخير في الوجود . لا نهاية لكماله ولا يمكن وصفه إلا بطريق السلب . واذا كان لا بد من وصفه فكل ما يوصف به انه موجود بلا كيف ولا صفة . وكل ما جاء في التوراة من تشبيهاته بالحوادث فيجب تأويله وحله على غير ظاهره .

والله لفرط علوّه عن العالم ولعظم الهوّة بينها فانه لا يؤثر في العالم تأثيراً مباشراً ، وإنما هو يؤثر فيه بجموعة من الوسطاء او القوى الإلهية هي سفراء الله ورسله ، كما ان النفس لا تبلغ الى الله إلا بالوسطاء أيضاً . وهؤلاء الوسطاء يختلفون بعضهم عن بعض تبعاً للأعمال التي يقومون بها وهم :

اللوغوس (او الكلمة) وهو أشبه بمثل افلاطون ، اذ هو النموذج الذي يخلق الله العالم على صورته ومثاله . ويصفه فيلون بكل صفات الكمال من حق وخير وجمال .

ويليه الحكمة الإلهية (او سوفيا) التي يتحد بها الله لينتج عن اتحادها بها هذا العالم . وكثيراً ما يطلق عليها فيلون اسم « أم العالم » وقد يصفها بأنها « روح الله » .

ومن الوسطاء أيضاً الملائكة والجن ، وهم كائنات نارية أو هوائية لا يعصون الله ولا يخالفون عن أمره .

وهؤلاء الوسطاء يتوسطون كذلك بين النفس الإنسانية والله . فتطهير النفس بالزهد والعبادة لا يزال يصعد بها من وسيط الى وسيط حتى تبلغ الوسيط الأعظم ، اللوغوس أو الكلمة . ولا يتم التطهير أو الصعود والعودة الى الله إلا بالمجاهدة والتصفية والعلم والنجاة بالنفس من هذا العالم المتناهي ، عالم الوم والخيال ، عالم المادة ومصدر الشر .

وغاية الإنسان إنما هي الوصول الى الله والإتحاد به والفناء فيه . وهذا الإتحاد يتم في أعماق الروح لدينا بنوع من التجدد الداخلي والإشراق النفسي والطمأنينة المطلقة والسكينة العظمى ، وهي حالة لا يمكن تحديدها بالألفاظ ، إذ يضيق عنها نطاق النطق ، وإنما تُعرف بالذوق والكشف ؛ وفيها لا يبقى شاهد ولا مشهود ولا عارف ولا معروف . هناك البهجة العظمى والسعادة القصوى .

وهكذا يستمر فيلون في الخلط بين تعابير الفلاسفة الأفلاطونية والفلسفة الرواقية وتعاليم التوراة ليقدم لنا صورة بدائية فجأة لما سيكون عليه المذهب عند افلوطين من بعده .

حقاً ان فلسفة فيلون ليست في مثل هذا الرضوح والصفاء ، وإنما هي مزيج غريب مضطرب من الآراء المبعثرة والأفكار المتناقضة والأقوال الغامضة يتخللها بين الحين والحين بريق خاطف من العاطفة الدينية المشبوبة والتقوى الصادقة ، دون ان يُعنى صاحبها بتحديد معاني الفاظه أو تفسيرها . وكل ما ذكرنا فإنما يُستخلص استخلاصاً بعد معاناة النصوص والإصطبار عليها . لذلك فقد يكون في هذه الخلاصة بعض الجورر بتحميل النصوص ما لا تحتمل . إذ يستحيل تكوين مذهب منسجم متناسق من اقوال زئبقية لا ثبات لها ولا استقرار في معانيها ، على ما فيها من جذب وحفاء .

ب - افلوطين (٢٠٥ م - ٢٧٠ م)

حياته

أشهر مجدددي الافلاطونية وباعثها بعد فيلون على بعد الشقة بينها . وُلد في ليقوبوليس (Lycopolis) (اسيوط) أي انه كان مواطناً مصرياً ذا إسم روماني وتربية يونانية ، وإن كان لا يجب ان يتحدث إطلاقاً عن وطنه ولا عن آبائه وأسرته ، كما يقول تلميذه فرفوربوس . ولم يهتم بدراسة الفلسفة إلا عند بلوغه الثامنة والعشرين من عمره ، وعندما قصد الى الاسكندرية وتعلم لامونيوس الحمال (Ammonius Saccas) ولا يكاد يعرف شيء عن امونيوس هذا سوى انه ولد من ابوين نصرانيين ثم صبا الى الدين اليوناني القديم ، ولم يؤثر عنه أي كتاب . وقد اعجب به افلوطين ايتا اعجاب وكان يشيد بفضله عليه وينسب آراءه هو اليه ، حتى لقد كان ينكر لنفسه كل أصالة ويقول انه في فلسفته إنما يشرح مذهب استاذه امونيوس الحمال وإنما ينطق باسمه . وهذا يذكرنا بموقف افلاطون في استاذة سقراط .

وقد لازم استاذة إحدى عشرة او اثني عشرة سنة لا يفارقه فيها . ثم بدا له ان يتركه عام ٢٤٢ م عندما حدث له ازمة نفسية غادر الاسكندرية على أثرها وتبع الامبراطور غورديانوس (Gordien) الى الشرق لمحاربة الفرس ، إذ كان يأمل ان ينضم الى الجيش الروماني ليتعلم من الشرقيين حكمتهم التي سمع الكثير عنها ويتلقاها في منابعا وأصولها لا في بطون الكتب . ويذكر ان مؤسس المانوية كان هو ايضاً في جيش سابور ملك الفرس . غير ان هزيمة غورديانوس امام سابور فيا بين التهرين قضت على هذه الاحلام الشرقية في نخلة افلوطين ، فارتد الى انطاكية ومنها الى روما واستقر بها . وهناك عكف على تعلم الفلسفة حتى وافته منيته . وكما مجلسه حافلاً بأمل العلم والفضل وكبار رجال الدولة ، كما كان الامبراطور

جاليانوس والامبراطورة سابينا من مريديه ، حتى لقد قيل ان الامبراطور اعترم ان يُقطعه اقليم كبانيا ليقم عليه مدينة فاضلة سماها « مدينة افلاطون » (Platonopolis) تشبهاً بجمهورية افلاطون وتيمناً بها . فقد انتشر مذهب الفيلسوف وأصبح طراز ذلك العصر ، واجتذبت دروسه كثيرين وجدوا فيها البقية والوطن وغاية المني . ففتحوا نفوسهم امام ذلك الاستاذ الخبير بأمرار الحياة الباطنية القادر على شفاء النفوس الغرثى والأرواح القلقة . فقد كان موجهاً شديد الرأي بصيراً بأغوار النفس يشفيها ويعيد السكينة اليها ، لا تخفى عليه مطالب الحياة ولا يفوته ما أُجبلت عليه الخليفة من ضعف .

ولا يعرف العرب كثيراً عنه ولكنهم يعرفون مذهبه ويسمونه « مذهب الاسكندرانيين » او « المذهب الاسكندراني » نسبة الى مدينة الاسكندرية ، كما يسميه الشهرستاني « الشيخ اليوناني » .

وقد أعاد افلاطون الى الفلسفة سميتها الطيبة بأن عاش معيشة القديسين وسط حرف روما ورذائلها وبين ارسوقراطيتها الماجنة المتهكة . فقد كان زاهداً متقشفاً لا يبيع لنفسه أكل اللحوم ولا ينعم بالنوم إلا بقدر ما تضطره اليه الحاجة ، ولا يأكل من الخبز إلا قليلاً ومن الطعام إلا ما يقيم الأولد ، وكان لا يُعنى بجسمه بل « لقد كان يستحي ان يكون لروحه جسد » على حد تعبير فرفوربوس . ومن طريف ما يُروى عنه ايضاً انه لم يسمح لفنان بتصويره لأن جسمه أقل أجزائه شأنًا ولأن تصويره من شأنه ان يثبت « ظلاً لظل » ، وفي ذلك اشارة الى ان الفن يجب ان يُعنى بالروح لا بالجسد .

ومرّت الأيام والسنون وأدركته الشيخوخة وجاءه مرض الموت ، فانتتهت حياة استاذ من أعظم أساتذة العصر الاسكندراني في القرن الثالث للهيلاد .

آثاره

لقد كان تعليم افلاطون شقوياً حتى صار شيخاً ، إذ لم يبدأ بتدوين آرائه إلا في سن الحسین تقريباً ، عندما نضجت فلسفته . ومع ذلك فقد دوّنّها وهو كاره . ولم يراجع قط مسوداته الأولى لمرض في عينيه . ولم يكن يكثرث للأسلوب والعبارة بل كان أكبر همّه محصوراً في الفكرة ، والفكرة وحدها . فعمد الى تليذه فرفوريوس يجمع كتاباته وتنظيمها وتبويبها . فجعلها في ستة أقسام كل قسم منها تسعة فصول وذلك تيمناً بالعددین (ستة) و (تسعة) على الطريقة الفيثاغورية . ولا تزال « التاسوعات » (Ennéades) - وهو الاسم الذي أطلقه على هذه الأقسام المتسعة - من أكثر المؤلفات اضطراباً في تاريخ الفلسفة ، رغم ما بذله فرفوريوس من عناية في تصحيحها وتقريب عبارتها وتسهيل مأخذها .

فلسفته

ان فلسفة افلاطون هي مزيج رائع فيه قوة واصالة بين آراء افلاطون والرواقيين وفيلون وبين الأفكار الهندية والنسك الشرقي والديانات الشعبية المنتشرة آنذاك .

والطابع العام لفلسفته هو غلبة الناحية الذاتية فيها على الناحية الموضوعية ، فهي فلسفة تمتاز بعمق الشعور الصوفي والمثالية الأفلاطونية ووحدة الوجود الرواقية ، وكلها عناصر يقوي بعضها بعضاً ويشد بعضها بأزر بعض ، حتى لتخال وانت تقرؤها كأنك أمام شخص لا خبر له بالعالم الموضوعي او يكاد . فالعرفه عنده وعند شيعته تبدأ من الذات وتنتهي الى الله دون ان تمر بالعالم المحسوس ؛ هذه المعرفة الذاتية الباطنية هي كل شيء عندهم . ولذلك يفسرون شعار سقراط « اعرف نفسك بنفسك » تفسيراً جديداً يطلبون فيه من الانسان ان ينطوي على نفسه

ويسد كل المنافذ التي يطل منها على العالم الخارجي . انها منافذ السوء
والغواية والزخرف الكاذب ، فلا يجوز ان نصدقها ونستسلم لها ، فلاحساس
درجة دنيا من درجات المعرفة لا يصح الركون اليه وحده ، ومهما يكن
من اهميته فانه لا يصل بنا الى درجة اليقين . ترى كيف يتعلق الانسان
بالحسن والحس مصدر التغير والكثرة ؟ كلا ، يجب على الانسان في سلوكه
نحو الله ان يتخلص من هذا الحسن لكي ينتهي الى الوحدة والسكينة .

وكما ان الاحساس لا قيمة له عند افلوطين وشيعته فكذلك المعرفة
العقلية لا قيمة لها ايضاً . وانما القيمة كل القيمة للتجربة الصوفية ،
وللكشف والذوق والاشراق ، حيث يرتفع التمارض بين الذات والموضوع
وحيث لن تكون المعرفة تحصيلاً وكسباً بل تكون اتحاداً بالمعروف
وتحققاً بهويته . فالانسان في هذه الحالة لا يشاهد الأول (الله) منفصلاً
عن ذاته بل يشاهده متحداً بها غير متميز عنها ، وهذه المشاهدة لا
لا تكون عن طريق العقل . وانما تكون بالذوق والكشف والاشراق
كما قلنا .

وهكذا فالعالم الذاتي قد استغرق على افلوطين مشاعره كلها ، فأصبح
العالم الموضوعي ، عالم الاشياء والحوادث ، هزيراً مهجوراً مبتدلاً لا قيمة
له كالكثافة تُنبذ على الأرض . فالوجود الحقيقي انما هو وجود الذات في
اعمق سالاتها واشدها استقطاباً ، وبالتالي عندما تستغرق في الأول
وتوغل فيه .

ومعنى هذا ان الوجود الحقيقي هو وجود الأول ، وبليته وجود العقل
فالنفس ، بل وجود العقل مقدم على وجود النفس ، ووجود الأول مقدم
على وجود العقل ، واما المادة فلا ذكر لها . انها سلب للوجود او ظل
له ، او قل هي الوجود وقد استنزفت منه كل عصارة فأصبح هشيماً
تذروه الرياح . انها الحثالة التي تتخلف عن المضغ ، والثفل الذي يرسب
في قاع الاناء ، انها عدم ؛ وهل يعد العدم وجود ؟

وفلسفة افلوطين كثيرة التشابك والتداخل بحيث ان الكلام على جانب منها يستدعي في الحال الكلام على الجوانب الأخرى . ومع ذلك لا بد لنا - لدراسة هذه الفلسفة - من تقسيمها الى اقسام مختلفة يسهل بها فهمها والوقوف عليها .

وعلى ذلك يمكن تقسيم فلسفة افلوطين ثلاثة اقسام : (١) الأول ، (٢) نظرية الفيض ، (٣) النفس الانسانية ، (٤) الاتحاد ، (٥) العالم المحسوس .

١ - الأول (او الواحد)

ان الوجود الحقيقي انما هو وجود « الأول » او « الواحد » او الله باسمى ما له من كمال الربوبية ، فكل شيء انما صدر عن « الأول » والى « الأول » يعود . اجل انه « الأول » بإطلاق ، لأنه مبدأ كل وجود . انه الواحد الأوحد المطلق اللامتناهي الذي لا يوصف بأي وصف ، لتفاهة جميع الأوصاف وقلة شأنها وهوان امرها ؛ فلا يقال مثلاً انه جميل او متصف بالجمال او مشتمل على الجمال ، ولكنه فوق الجمال وعلته ، بمعنى انه لا يدخل تحت صفة اعلا منه هي الجمال . فهو أعلى من كل شيء وعلته ، وكل شيء فانه معمول له . وهكذا الحال في بقية الصفات ، فكلها دونه . وهو فوقها جميعاً ومصدرها جميعاً وعلتها جميعاً . فكل صفة صفة ايجابية نصفه بها او ضمير متحيف نشير به اليه انما هو تحديد له غير لائق به . وكل ما نستطيع ان نسميه به هو أنه واحد وأول . وكل ما عدا ذلك فلا نعرفه عنه لا بطريق السلب . فالسلب هو اقوم سبيل لوصف الله .

ثم ان كل صفة فمن شأنها ان تدخل فيه نوعاً من التعدد والكثرة يجب تنزيهه عنه . فهو واحد من كل وجه : في الذهن والتصور ، وفي الواقع والحقيقة . فلا يقال مثلاً انه عقل في ذاته ، لأن وصفه بالعقل يقتضي ان

يتصور الانسان معه معقولاً حتى ولو كان هذا المعقول هو ذاته . فها هنا انشطار في الذات واثنائية مما نتيجة حتمية لوصفه بالعقل . فلتن كان وصفه بالعقل مانعاً للتعهد في الواقع والحقيقة فليس مانعاً له في الذهن والتصور ، وذلك لأن العقل من الامور الاضافية ، اي التي يستتبع تصورُ احد طرفيها تصورُ الطرف الآخر ، بمعنى ان العقل لا بد له من معقول بإزائه ، حتى ولو كان هذا المعقول هو ذاته . كذلك لا يقال انه معقول لذاته ، لأن المعقول من الامور الاضافية ايضاً إذ هو يفترض بإزائه عقلاً يعقله ، حتى ولو كان هذا العقل هو ذاته . ففي عملية التعقل انقسام بين العاقل من حيث هو عاقل والعاقل من حيث هو معقول ، والعاقل والمعقول ليسا شيئاً واحداً ، من الوجهة المنطقية على الأقل . وبعبارة اخرى ان العقل معناه التفرقة بين الذات العاقلة وبين موضوعها المعقول ، وهذه التفرقة تتنافى مع الوحدة المطلقة الواجبة للواحد الاول .

فأفلوطين حريص على وحدة « الاول » متمسك بها لا يعدل عنها ، بحيث انه لا يقبل اي نوع من التعدد ، لا في الواقع فحسب ، بل حتى في الذهن والتصور ايضاً . وربما يبدو ناقصاً اقل من الانسان لكونه غير عقل . ولكن لما كان عنوان الكمال في الاول عند افلوطين يكن في كونه واحداً من كل وجه وفي تنزهه عن كل ما يدخل التعدد والتكثر فيه ، ولما كان من شأن العقل ان يحدد وحدة الاول وينسبها من القواعد ، اقول لما كان ذلك كذلك فان عدم اتصاف الاول بالعقل او عدم كونه عقلاً ليس منقصة في حقه وبالتالي ليس موجباً للقول انه اقل من الانسان . والخلاصة ان « الواحد » او « الاول » ليس عقلاً وإنما هو فوق العقل وعلة له .

كذلك ليس هو إرادة ، ولا يصح وصفه بالإرادة ، إذ الإرادة تخرج الواحد عن وحدته ، ان لم يكن في الواقع والحقيقة فعلى الأقل في الذهن والتصور . وذلك لأن الإرادة لا بد فيها من مريد ومراد . فتصور الانسان

له مريداً يستتبع - في الذهن على الأقل - تصور ان يكون هناك مراد بإزائه . فالإرادة لا بد فيها من مريد ومراد . ثم ان الإرادة تدل على الاحتياج الى الغير ، والاحتياج يتعارض مع الوحدة المطلقة التي للأول ، بل تخرجه عن الأولية ، فلا يكون هو الاول ، بل ان المحتاج اليه سيكون حينئذ هو الاول . وكما ان عدم الاتصاف بالعقل ليس منقصة للأول ، كذلك عدم الاتصاف بالإرادة ليس منقصة له ايضاً .

وكذلك ليس هو الوجود ، لأن الوجود معين محدود ، وإنما هو فوق الوجود . انه مبدأ الوجود وعلّة له . فلو كان وجوداً لكان له مبدأ اعلى منه بالضرورة يستفيد منه الوجود او على الأقل ان اطلاق صفة الوجود عليه من شأنه ان يجعل هذه الصفة متقدمة عليه ، مما يتنافى مع كونه « الاول » . فالوجود منحدر منه تابع له ، وهذا ايضاً ليس منقصة في حقه وإنما هو عنوان كماله .

وأخيراً لا يوصف « الاول » بأنه جوهر او عَرَض ، لأن وصفه بأحدهما يستتبع وصفه بالآخر ولو في التصور الذهني على الأقل . فتصور الذهن له بأنه جوهر يستلزم بالضرورة تصور عَرَض في مقابلته ؛ وكذلك تصور الذهن له بأنه عَرَض يستلزم بالضرورة تصور جوهر في مقابلته ؛ وكل ذلك من شأنه ان يدخل فيه نوعاً من التعدد والكثرة ، والفرض انه واحد من كل وجهه ، اي في الذهن والتصور ، والواقع والحقيقة .

ونتيجة هذا كله ان « الاول » هو الكائن الذي لا صفة له من صفات الحوادث . فهو لا يمكن نفعه ولا يمكن ادراكه ولا تحييط به الأفهام والمقول . فهو الغني بذاته ، المكتفي بذاته ، القائم بذاته ، البسيط المطلق الذي لا اول إلا وهو سابق عليه ، ولا واحد إلا وقد استفاد وحدته منه .

٢ - الفيض

فاذا كان «الاول» هو مبدأ الوجود وعلّة له فكيف صدرت الأشياء عنه ؟ لقد كان ذلك بطريق الفيض^(١).

فالواحد البسيط من كل وجه والمبدأ الاول الذي لا انقسام فيه ولا تركيب وليست فيه كثرة بأي اعتبار، هو في آن واحد لا شيء وكل شيء، هو لا شيء، لأنه فوق كل شيء ولأنه ليس من الممكن ان يميز فيه شيء عن شيء ولا ان يُبين فيه وجود معين.

وهو كل شيء، لأنه مبدأ جميع الأشياء ومنه ينبثق كل شيء. فهو الأشياء جميعاً لأنه يحويها بالقوة - اذا صح التعبير - دون ان يكون واحداً منها.

يقول افلاطون في نص عربي هو عبارة عن ترجمة موسّعة لبعض فصول «التاسوعات» :

«كل ما كان بعد الاول فهو من الاول اضطراراً، إلا انه إما ان يكون منه سواء بلا توسط، وإما ان يكون منه بتوسط أشياء أخر، هي بينه وبين الاول؛ فيكون إذن للأشياء نظام وشرح. ذلك ان منها ما هو ثانٍ بعد الاول ومنها ثالث؛ اما الثاني فيُضاف الى الأول، وأما الثالث فيُضاف الى الثاني. وينبغي ان يكون قبل الأشياء كلها شيء مبسوط^(٢)، وأن يكون غير الأشياء التي بعده، وأن يكون مكثفاً غنياً بنفسه وأن لا يكون مختلطاً بالأشياء، وأن يكون حاضراً للأشياء بنوع ما، وأن يكون واحداً، وأن لا يكون شيئاً ما، ثم يكون بعد ذلك واحداً، فان الشيء اذا كان واحداً على هذا النوع كان الواحد فيه كذباً

١ - ويقال له أيضاً الصدور والانبثاق.

٢ - اي بسيط.

وليس واحداً حقاً ، وأن لا يكون له صفة ، ولا يناله - علم البتة ، وأن يكون فوق كل جوهر حسي وعقلي . وذلك انه إن لم يكن الاول مبسوطاً واحداً حقاً خارجاً عن كل صفة وعن كل تركيب لم يكن اول البتة ،^(١)

في هذا النص يبين لنا افلوطين ان كل ما في الوجود فلما يرتد الى « الاول » ضرورة . فلا شيء غير « الاول » . « فالاول » هو مصدر الكائنات جميعاً ومفيدها ومفيضها . والاشياء إنما صدرت عنه في نظام تنازلي متدرج .

وفكرة الصدور هذه هي فكرة غنوصية شرقية كانت واسعة الانتشار في عهد افلوطين نرجح تأثره بها . لكن هناك فرقاً بين صدور افلوطين وصدور الغنوصيين . فالغنوصيون لم يبينوا كيفية هذا الصدور ، بل لقد عدوا - كمادتهم - الى الرمزية الاسطورية والى التهاويل والتصورات الغامضة . إذ هم يشبهون الصدور بعملية الولادة ويحدثون عنه بتعابير مأخوذة من لغة الولادة^(٢) . وهذا تفوق عليهم افلوطين . فقد استطاع ان يبين لنا في دقة وإحكام كيفية صدور الموجودات عن « الاول » ونشوء الكثرة عن الوحدة وتسلسل الموجودات بعضها من بعض ، وأن يرتب ذلك كله في نظام منطقي معقول كأنه نسيج واحد يحكم الأجزاء .

« فالأول » كامل لا يفتقر الى شيء ولا يعوزه شيء . وكاله من الشمول والسمعة بحيث لا يمكن إلا ان يكون فياضاً . وهكذا فمن مبعث السنا الأسنى للكائن الأزلي انطلق الفيض . وفيضه يحدث شيئاً غيره . وهذا الفيض يجري فيه بالطبع لا بالإرادة والإختيار ، إذ لا يصح اتصافه

١ - التاسوعات ، التاسوعة الرابعة ، نقل عن الدكتور عبد الرحمن بدوي ، خريف الفكر اليوناني ، صفحة ١٧٤ - ١٧٥ .

٢ - انظر بدوي ، المصدر السابق ص ١٦٤ - ١٦٨ .

بالإرادة لما مر معنا من انها تخرجه عن وحدته وتدخل فيه الاثنينية .
فالتبعية ابرز الضرورة - لا الإرادة والاختيار هي التي تحمل إذن على
صدور غير الكامل عن الكامل او صدور الوجود عن «الاول» دون
تكثر فيه . وهذا الصدور غير الإرادي ناتج عن الوفرة المتحققة في «الاول» .
وهو إنما يحدث لا في زمن ، إذ هو ازلي ابدى سرمدي لا تنطبق عليه
مقولة الزمان ، فالزمان من شأن المحسوسات فقط لا من شأن عالم العقول .

وهذا الفيض عن «الاول» لا يعني خروج «الاول» عن ذاته وفيضانه
بما فيه في الخارج او على الخارج ، كلا ، فهذا من شأن الفيض المحسوس .
أما الفيض في عالم العقول فيظل فيه «الاول» على حاله دون ان ينقص
منه شيء . «فالأول» هنا لا ينتقل منه شيء ليحل في شيء آخر ، وإلا
لحدث تغير في ذاته ، فهو لا يبذل شيئاً من جوهره وإنما يبذل آثاره .
وبذل الأثر غير بذل الجوهر . وهذا معروف في عالم العقول ، حيث يحدث
المعقول أثره دون ان يترتب على ذلك أي نقصان في ذاته . فالعلم ينتقل
من انسان الى آخر دون ان ينقص منه شيء ، وإنما يظل العلم عنده كما
كان ان لم يحصل المزيد منه . فها هنا إذن حالة تأثر واستجابة من قبل
الشيء في الخارج شبيهة بحالة العشق عند ارسطو ، وهي الحالة التي يفسر
بها المعلم الاول ما نرى من نظام في سير العالم واتجاهه الى علته الغائية
فيتحرك وتنظم اموره دون ان تتحرك علته ودون ان تلتقل أي حركة
من المحرك الاول الى السماء وعالم الاشياء . فالسماه إنما تستجيب للحرك
الاول وتتأثر به دون ان يتحرك هو ودون ان يتغير . وهكذا الحال في
فيض الوجود عن «الاول» دون ان يحدث فيه أي تغير ودون ان يصيبه
نقصان .

والأصل في الفيض هنا إنما هو كمال «الاول» لا التسلسل السبيي او
الضرورة المنطقية كما كان الحال عند ارسطو . بمعنى ان الحركة لا تنقل

من المحرك الى المتحرك على سبيل الضرورة ، وإنما المتحرك هو الذي يستجيب للمحرك ويتأثر به فينتج الوجود بحكم الكال الذي في « الاول » ، وتصدر الاشياء عن هذا الكال .

ولما لم يكن في الأمر ضرورة منطقية ، وإذ كان يصعب التعبير عن ذلك بلغة العقل ، فقد عمد افلوطين الى لغة القلب يستعير منها الامثال والرموز والتشبيهات ، لتقريب هذه المعاني الى الازهان ، وما اكثر ما اسعفت افلوطين هذه اللغة ، وما اكثر ما وجد فيها هو وشيعته من فلاسفة الذوق والوجدان ضالتهم المنشودة : فالفيض يحدث كما يصدر النور عن الشمس دون ان يتغير جوهر الشمس ، فالوجود بالقياس الى « الاول » هو بمثابة شعاع الشمس من الشمس . ذلك بأن جميع الكائنات - ما دامت موجودة - تحدث حولها ومن جوهرها حقيقة تنزع الى الخارج ، وهذه الحقيقة هي صورة للأشياء التي انبثقت عنها . وهاك مثلاً آخر يقرب به افلوطين عملية الفيض يتأثر فيه بدون شك بالغنوصيين الشرقيين : فعندما يبلغ كائن ما كماله نرى انه يلد ، فهو لا يطيق ان يبقى في ذاته بل يبدع كائنات أخر . فالنار تسخن ، والثلج يبرد . فكيف يمكن للكائن الكامل - وهو الخير المطلق - ان يحبس خيره في ذاته .

وهكذا فكل موجود فائما يستفيد وجوده من « الأول » ويقوم به ويعتمد عليه دون ان ينقص من « الاول » شيء ، وانما هو ينجذب الى كاله فيتأثر به ويستجيب له .

واول شيء انبثق عن « الاول » هو « العقل » ، ويقال له الاقنوم الثاني . وهذا « العقل » دون الأول ، وأقل منه كلاً ، والوحدة من كل وجه التي كانت « لأول » تدب فيها الأثنينية ، والأثنينية ادنى مرتبة من الوحدة في منطق القدماء . والسبب في ولوج الأثنينية فيه ان مقتضى كونه عقلاً يستلزم معقولا ، اي موضوعاً للعقل ، وهذا بعينه ما جعلنا

تنفي عن « الأول » ان يكون عقلاً او يتصف بالعقل . فها اذن اثينية في التصور حدثت بعد وحدة مطلقة . وهذه الاثينية هي - او هذا العقل هو (والمعنى واحد) - الأصل في الوجود وما فيه من تعدد وتكثر . او قل - والمعنى واحد ايضاً - ان الوجود والعقل عند افلوطين شيء واحد . فهو إذ كان يعقل « الأول » ويتأمله كان عقلاً ، وإذ كان يتقوّم به ويستفيد منه الوجود كان وجوداً . وهكذا يكون الأقنوم الثاني عقلاً ووجوداً في آن واحد . فها هنا اثينية واضحة تسربت الى اصل الوجود هي مبدأ التكثر والتعدد في العالم ، فما الاثينية الا تكثر وتعدد في اول درجاتها .

ويضع افلوطين هذا « العقل » في منزلة صانع العالم (démiurge) الذي قال به افلاطون ، ويجعله ايضاً متضمناً لمثل افلاطون عدا مثال الخير الذي هو « الاول » . فهو حين يفكر ينتج معقولات ، وهذه المعقولات هي المثل الافلاطونية ، بل ان هذه المثل جزء منه وليست مجرد اشياء مختزنة فيه . ومع ذلك فهناك بعض الاختلاف بين كل من مثل افلاطون وافلوطين . فبينما نجد مثل افلاطون استاتيكية ساكنة ، اذا بمثل افلوطين دينامية فاعلة . وهناك فرق آخر بينها ايضاً ، وهو ان مثل افلاطون محدودة ، توجد للاجناس والانواع فقط ولا توجد للأفراد ، وهي لذلك لا تزيد ولا تنقص ، واما مثل افلوطين فهي توجد للأفراد ويزيد عددها او ينقص بحسب العصر ، ومن هنا فهي لا متناهية : واذن فإن « العقل » لا يتصف بالاثينية فقط ، وانما هو يموج - كما نرى - بكثرة لا نهاية لها . واخيراً هناك تباين كبير بين المثل والمحسوسات عند افلاطون ، واما افلوطين فينكر ذلك ، إذ لا تباين عنده بين « العقل » والوجود ، وبالتالي لا فرق عنده بين المثل والمحسوسات المتعلقة بها ، بل هناك شبه بينها ، والاختلاف انما هو اختلاف في الرتبة والدرجة لا في النوع والحقيقة .

والاقنوم الثاني او « العقل » الذي هو فيض الاقنوم الاول او « الواحد » وصورة له وانعكاس لنوره ، يمتد قدر إمكانه ان يظل بالقرب من مصدره الذي استفاد منه الوجود ، ولذلك قانه فور صدره عنه يلتفت اليه ليتأمل ، ومن هذا الالتفات او التأمل يتولد الاقنوم التسالي ولادة أبدية لا في زمان . فالتأمل بالنسبة اليه والى سائر الكائنات العقلية في العالم الأعلى هو في وقت واحد عمل عقلي مجرد وضرب من النشاط الخلاق المحسوس . وهكذا يفيض عن العقل جوهر او كينونة هي الاقنوم الثالث او النفس الكلية ، هي أيضاً صورة للأقنوم الثاني وانعكاس لنوره ، وهي آخر الموجودات في عالم العقول وخاتمة المطاف . وهي كالعقل تلتقي الى السالم الإلهي إلا انها دونه درجة ، كما ان « العقل » دون « الاول » درجة . فهي تقف على تخوم العالم المعقول قريبة من العالم المحسوس . والكثرة التي دبّت الى الاقنوم الثاني وهو أشرف منها لا بد ان تزيد في الاقنوم الثالث بطريق الأرض . فكلما قلت الوسائط بين الاقنوم الاول والاقنوم الاخرى التي تليه ، اي كلما اقترب اقنوم ما من الاقنوم الاول ، كانت درجته في الوجود والكمال أعظم وأكبر . والعكس صحيح ايضاً : فكلما اتسعت الشقة بينها كانت درجته في الوجود أخس وأدنى . وبالتالي كلما بعدت المسافة عن « الاول » ازدادت الكثرة والتعمد حتى ينتهي الامر الى العالم المحسوس الذي هو عنوان الكثرة وسبب الاختلاف .

واذا كان « العقل » - على قربه من « الاول » - يمجج بالحركة والدينامية والتغير ، لما فيه من مثل متصل بالفعل وقوة الأحداث ، فأولى بالنفس الكلية ان تموج بهذه الاشياء . ومن هنا قدرتها الخارقة على انتاج العالم المحسوس حالما تتوجه للعقل الذي صدرت عنه وتلتفت اليه لتأمله وتجعله موضوعاً لتعقلها . فهو علة وجودها كما ان « الاول » علة وجود « العقل » .

ومن النفس الكلية فاضت فيوضات كثيرة - لا فيض واحد فقط - هي نفوس الكواكب ونفوس البشر وسائر الموجودات في العالم المحسوس ، وقد صدرت عن النفس الكلية بنفس الضرورة التي صدرت بمقتضاها النفس الكلية عن «العقل» . أما صلة النفوس الجزئية بالنفس الكلية فهي اشبه بصلة المماني المتعددة بالعقل الذي يتضمنها . فهي موجودة فيها وجود العلوم المختلفة في داخل مفهوم العلم ، وجود الافكار المتباينة في باطن المذهب ، أي هناك شبه وحدة بين النفوس الجزئية والنفس الكلية وإن كان من الممكن التمييز فيها بين اشياء متعددة .

وبعبارة اخرى ، ان النفس يجب ان نفرق فيها بين جانبيين : جانب كلي تطل منه على العالم المحسوس في مجموعة لتدبير اموره وتصريف احواله العامة ، وجانب جزئي تطل منه على شؤون كل فرد على حدة ، وبهذه المثابة ينطوي الجانب الجزئي على عدة نفوس تتصل كل نفس منها بفرد معين في العالم المحسوس . وهكذا تكون النفس الكلية في احد جانبيها مصدراً للعالم المحسوس في مجموعه وكيالاته كما تكون في جانبها الآخر مصدراً لأفراد البشر فرداً فرداً . وبذلك فلننا نشارك عالم العقل في طبيعته وشرف مقامه من جهة ، ومن جهة اخرى نشارك عالم الأبدان في خسته ودنائه . وبذلك تتحقق الصلة بين العالم الأعلى والعالم الأسفل ويتوثق الرباط الذي يشدهما احدهما الى الآخر .

٣ - النفس الانسانية

وقد كانت النفس الانسانية تحيا من قبل حياة ابدية كاملة ، ثم هبطت من عالمها المقول الشريف الى عالمنا المادي الخسيس لتتفضل عليه بالخير والإنعام . فمن شأن الاعلى ان يميل بذاته الى الأدنى ليفيض عليه ويمحضه طبيعته . هذا هو قانون الاشياء بحسب افلاطون وهذا هو المبدأ الاصيل الذي يقوم عليه مذهبه .

والنفس ليست ذات طبيعية جسمية كما يقول الماديون ، وإنما هي ذات طبيعية ، روحية خالصة تختلف كل الاختلاف عن طبيعة البدن . كيف لا وهي تنتمي الى عالم العقول ، وهو عالم ابدى شريف لا يدخل في مقولة الزمان ولا يقبل التغير والفساد . وكذلك النفس الإنسانية : فهي جوهر شريف معقول . قائم بذاته غير محتاج الى بدن يحل فيه او يتوقف عليه وجوده ، إذ كيف يحتاج المعقول الى المحسوس ويتوقف عليه ، ولئن كانت النفس تحل في البدن فإنما حلوها امر عارض على طبيعتها ولا يدخل في جوهر وجودها ، فضلاً عن انها تحل فيه الى اجل مسمى ثم تغادره الى عالمها السامي حيث الخلود وحيث البقاء الدائم . لقد كانت موجودة قبل البدن وستظل . موجودة بعده بحكم طبيعتها المعقولة وماهيتها الروحية الشريفة . وهكذا فالنفس خالدة ، ما دامت نفثة إلهية وقبساً من العالم المعقول .

ومع ان مسألة خلود النفس لا تحتاج الى دليل في نظر افلاطون ، فمن الناس من لا يزال يطلب البرهان عليها . وفي محاوره « فيدون » لأفلاطون الكفاية وفصل الخطاب ، لذلك يعتقد افلاطون في التاسوعة الرابعة من تأسوعاته فصلاً خاصاً للبرهان على خلود النفس يعيد فيه أدلة افلاطون بحذاقها تقريباً^(١) .

وكما قال افلاطون بالتناسخ فكذلك يقول به افلاطون . فهو يتابعه فيما يمرض للنفس بعد فراقها للبدن من تناسخات مختلفة . فالنفوس الآئمة تهوي في اجسام نباتات وحيوانات ، بينما النفوس الطاهرة الزكية تقوم في الكواكب او تعود الى اصلها في النفس الكلية تبعاً لمزلتها في هذه الحياة الدنيا وحسب ما كان لها من فضل وكرامة .

ولكن ليس هذا هو منتهى ما تصبو اليه النفس الانسانية . فهي تروى

١ - انظر التاسوعة الرابعة ١٧٩ - ٢١٠ من ترجمة اميل برمييه (بالفرنسية) .

الى الانخراط والمشاركة والرؤى الغامضة الواضحة والإستغراق في « الواحد »
والاتحاد به والفناء فيه . هذا هو مطلبها الاسمي ومقصدها الاسمي !

٤ - الاتحاد

ولا يصل الانسان الى هذه الغاية إلا بشق النفس ؛ فالبدن لا يترك له
حرية العمل والتصرف ، بل يوسوس به ويضغط عليه بمطالبه وشهواته .

أجل ان البدن سجن للنفس . فهو أصل شقاءها على هذه الارض
وأصل نقائصها وشروها . ولذلك فلن يقر لها قرار حتى تتخلص منه
وتعود الى مصدرها الاول . ولكن لن تصل الى هذه الغاية دفعة واحدة ،
فلا بد لها أولاً من ان تتحرر من قيود الجسم والحس بالمجاهدة والتصفية
والدأب على حياة الوجدان والروح . ولا يزال صاحبها يتدرج في مقامات
الساوك حتى يبلغ فيها مبلغاً كبيراً يغيب فيه عن نفسه وينخلع عن شعوره
بذاته ويصاب بما يشبه الصعق والحق ، فيفقد تعيّنه وتشخصه وتسقط
عنه جميع الأغيار ويفنى الكل في الكل وتنطمس معالم الاشياء وتنمحي
صورها وحدودها . غير ان هذا المحو يمتدحه صحو ، والفناء يعقبه بقاء ،
ولكنه بقاء في الله وصحو في هويته المطلقة ؛ كذلك يرتفع الصعق ويذول
الحق وتحلّ الطمانينة وتنزل السكينة . فها هنا يحس السالك بحضور مع
الله في كل وقت وفي كل شيء ولا ينقطع عنه في شيء ، بل يحس أنه
قد صار وإياه شيئاً واحداً واتحد به وشاركه في هويته . هذا هو حال
الاتحاد يأتي بعد مقامات الساوك ، كالخطفة ترد ثم تزول ، او كالبروق
تومض ثم تخمد . وهي حالات نادرة لا يعرفها إلا ذووها وهم من النادرة
يمكن ، كما ان هذه الحالة نفسها نادرة عندهم . لقد كانت حلم افلاطون
وأمنيته العذبة ، ولكنها لم تتحقق له سوى اربع مرات ، كما كانت أمنية
تلميذه فرفوريوس الذي لم تحدث له سوى مرة واحدة . وفوق ذلك فان

هؤلاء الذين يصلون اليها لا يستطيعون التحدث عنها . فهي حال يضيق عنها نطاق النطق ولا تشرحها العبارة ، ولا يكشف المقال فيها غير الخيال . ومن أحب ان يتعرفها فليتدرج الى ان يصير من أهل المشاهدة دون المشاهدة ، ومن الواصلين الى العين دون السامعين بالأثر ، على حد تعبير المتصوفة الاسلاميين .

٥ - العالم المحسوس

ولكن اكثر الناس لا يعلمون . فقد ران على قلوبهم حب الظل دون الحقيقة ، وتعلقوا بالأثر دون العين . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن عالم العقل هم عمون . وكل هذا من بقايا ظلمة الاجسام ، وطفيلان عالم المادة ، وهو عالم خال من العقل ، خال من الصورة ، خال من الخير والنور ، فهو أصل الفساد وأصل الشر وأصل الظلام . انه سلب محض ، ولا تعين صرف ، وإمكانية مطلقة ، كيف لا والمادة متحد من الحقيقة فيه ؟ انه نتيجة الإضعاف المستمر للقوة العاقلة التي انطلقت من « الاول » ، واستنزاف لفيضها المتدفق ، فظلت تتردئ وتتردئ حتى أضناها البعاد واستنفدت آخر صباية فيها . فليت شعري كيف لا يكون طلاب هذه القوة المنهكة ظلمانيين أخيساء وكيف لا يقبلون على حطام زائل وعرض من الدنيا قليل ؟

اجل ، ان العالم المشاهد ليست له حقيقة ذاتية وليس له كمال ذاتي ، وما فيه من حقيقة او كمال فانما هو انعكاس لعالم المجرديات وتشتت لضوئه . ومعنى ذلك ان العالم ليس شراً كله بل فيه أطيايف من الخير . فلئن ندد افلوطين بالعالم المحسوس إلا أنه لا يجرده من كل حقيقة ، وإن كان في هذا ما يؤذن بتناقضه . ولعل الذي حمله على هذا التناقض عداؤه للنصراية ومعارضته لآباء الكنيسة الاولين الذين كان دأبهم التنديد بالعالم والمادة بأنه شر وخطيئة ولعنة لحقت آدم وذريته . فيجب الخلاص منه والعمل

ليوم الدينونة العظيم . فكيف يخلو العالم من معدن الخير وهو أثر الله ووليد العناية الإلهية ؟ حسب ذلك شرفاً ! فهو ليس نقصاً كله ، وإنما هو كامل بقدر الامكان . نعم انه ظل ، ولكنه ظل للحقيقة ، ومهما بعدت الشقة بين الظل والحقيقة فانه لا يعدم لحاظ هذه الحقيقة ولا تفوته عنايتها . ولكنها ليست عناية بالأفراد بل بالكل . فالعناية عند افلوطين انما تفيد ان الكون بنساء حي متقن مترابط الاجزاء وكل " عضوي " متماسك بحكم التركيب ، كل شيء فيه مرتب لعناية موضوع لفرض . وهكذا تتقلب فلسفة افلوطين الى نظرية متفائلة تؤكد الانسجام ونظام الخير في الاشياء ، فتحيي القلوب وتنعش النفوس وتغذيها بالأمل وحسن العقبى . فاذا لم يكن العالم خيراً كله فلا ننس انه ايضاً ليس شراً كله . فلنعمم العالم !

خاتمة

والخلاصة هناك في فلسفة افلوطين طرفان للوجود : طرف أعلى وطرف أسفل ، او قمة وحضيض ، بينها سلسلة من الاوساط تسد الثغرات وتلأ النجوات . فالمادة التي هي اصل النقص في هذا العالم تمثل الطرف الادنى والأخير في سلسلة تدرج الموجودات ، بينما « الاول » يمثل الطرف الاعلى . ولا يزال الشماع الساقط من « الاول » بواسطة « العقل » الى « النفس » ومنها الى هذا العالم ، يتضاءل ويتضاءل - فتكون كل مرتبة ادنى من التي سبقتها وأعلى من التي تلتها في الحقيقة والكمال والخيرية - حتى يجبو او يكاد . وبهذا التضاؤل يتحول الوجود الى عدم او يصدر العدم عن الوجود ، ويتلاشى النور في الظلام او يصدر الظلام عن النور ، ويتبدد الخير في الشر او يصدر الشر عن الخير .

وهكذا تمثل فلسفة افلوطين تدرجاً تنازلياً وتصاعدياً من العلة الى المعلوم ومن المعلوم الى العلة ، من الكامل الى الناقص ومن الناقص الى الكامل ، من الخير الى الشر ومن الشر الى الخير ، من الوجود الى العدم

ومن العدم الى الوجود .. فكل حلقة في هذه السلسلة المتصلة من لدر
« الاول » الى المادة ومن المادة الى « الاول » تحمل نصيباً من الخير والكمال
والنور الى جانب نصيب آخر من الشر والنقص والظلام ، ويختلف نصيبها
من هذا او ذاك باختلاف قربها او بعدها عن « الاول » الذي هو خير كله
وكال كله ونور كله !

كذلك تمثل فلسفة افلوطين طريقين : طريقاً متافيزيقياً هابطاً يصف
فيه افلوطين سير الوجود من « الاول » الى « العقل » ومن « العقل » الى
« النفس » الى الأجسام المحسوسة ، يقابله طريق صوفي صاعد يصف فيه
افلوطين عودة النفس الى مصدرها الاول والمجذبا اليه واتحادها به .
فالطريق الأول يسير من الوحدة الى الكثرة ، والطريق الثاني يعود من
الكثرة الى الوحدة .

وفي هذه الصورة الجميلة تتحطم الوحدة المطلقة - اذا صح التعبير -
وتتناثر اشلاء هنا وهناك ، فيتداخل الكل في الكل ويكون الكل ممثلاً
في الجزء والجزء ممثلاً في الكل . وعلى هذا النحو يمكن لكل جزء ان
ينطوي في جلته على جميع خصائص الكل ويكون سمة له ودليلاً عليه .
وهذه الفلسفة إنما تشف عن نصيب كبير من مذهب وحدة الوجود ،
حيث يكون الله منبثاً في الأشياء مختلطاً بها غير متميز عنها .. « فالأول »
يحتوي كل شيء لأن الأدنى حاضر في الأعلى : فالجسم في « النفس »
و « النفس » في « العقل » و « العقل » في « الأول » و « الواحد » في كل مكان ،
موجود في كل شيء بحسب استعداد كل شيء لتقبله .

هذا هو افلوطين شيخ الاسكندرانيين . شخصية تعبق بالروحانية
وتتضوع بالمثل والقيم العظيمة . فهذا الوثني هو في الحقيقة مسلم بلاني
الاسلام ومسيحي بلا المسيح . انه مسلم بالفطرة والجوارح والروح ، وهو
مسيحي بالمشاعر والمنهج والنسك والسيرة الطيبة . ولقد قبل المسلمون كل

سطر من اسطره تقريباً . وما اكثر صحائف الفارابي^١ التي ترده نشوة
هذا الصوفي الجليل . وعن طريق فيلون وأفلوطين تغلغل استاذة افلاطون
في ضمير الفكر الاسلامي وتعمق في أبعاد اغواره . وبهم جميعاً اخذت
الهوة القائمة بين العقل والنقل تضيق شيئاً فشيئاً ، فقد رضي العقل ان
يسير في ركاب النقل ، كما رضي النقل ان يسير في ركاب العقل ، قرابة
الف عام او تزيد !



١ - اقرأ للمؤلف نفسه في منشورات الدار : مع الفلسفة الاسلامية .

للمؤلف لدى منشورات عويدات

- الإنسان (ترجمة عن الفرنسية) تأليف جان رويستان . ١٩٦٥ .
- المسألة الفلسفية - طبعة ثالثة ١٩٨٨ .
- مع الفلسفة اليونانية - طبعة ثالثة ١٩٨٨ .
- اينشتين - طبعة أولى ١٩٨٣ .
- الكندي - طبعة أولى ١٩٨٤ .
- جديد في مقدمة ابن خلدون - طبعة أولى ١٩٨٨ .
- أصالة الفكرة العربي - طبعة أولى ١٩٨٢ .
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية - طبعة ثالثة . ١٩٨٤ .
- الجامع في تاريخ العلوم عند العرب - طبعة أولى . ١٩٨٨ .

فهرست

مقدمة ٥

القسم الأول

مدخل الى دراسة الفلسفة

- ١ - الابعاد الزمنية ١٣
- ٢ - مفارقة الذات العضوية ١٦
- ٣ - القدرة على التغيير ١٨
- ٤ - العالم العقلي ٢٠
- ٥ - العقل والانسان ٢٢
- ٦ - المعنى العميق للفلسفة ٢٦
- ٧ - وظيفة الفلسفة والفائدة منها ٣٨
- ٨ - بين الفلسفة والعلم ٥٠

القسم الثاني

الفلسفة اليونانية

- ١ - اليونان وأنماط التفكير عند الشرقيين ٥٧
- ٢ - اطوار الفلسفة اليونانية ٨٤
- ٣ - الفلسفة قبل سقراط ٨٦
- ٤ - سقراط ٩٣
- ٥ - افلاطون ١١٢
- ٦ - ارسطو ١٥١
- ٧ - الافلاطونية المحدثه ٢١٧

والمنهج الذي سنتبعه في دراسة هذه الفلسفة لن يكون المنهج المعياري بل سيكون المنهج الوضعي في غالب الاحيان ، اذا صح نقل هذا التعبير من ميدان الاخلاق وعلم الاجتماع الى ميدان تاريخ الفلسفة . فقد جرت العادة بين نفر غير قليل من الذين يؤرخون للفلسفة ، ان يكثروا من نقد اصحابها وتوجيه المطاعن اليهم ، وان يطلبوا منهم اكثر مما تتسع له امكاناتهم وامكانات الحقبة التاريخية التي يعيشون فيها . . .

اننا نطالب هنا بدراستها على اصول المنهج الوضعي ، اي دراستها كما هي كائنة بالفعل . فدراسة « ما ينبغي ان يكون » قد اثبتت فشلها ، فهي لا تعود على اصحابها والعلقم . فهذا الكتاب تتخلله فكرة اساسية مؤداها ضرورات حياتية لاصحابها ولعصرها ، ولها وظائف بعينها ، وان لكل مرحلة تاريخية فلسفتها ومزاجها والروحي ، ولكل حضارة خصائصها المتميزة . . .

Bibliothèque alexandrina



0351250